

كتاب

التغول صرورا للإمام الغزالي

أو

ترجمة حياة حجة الاسلام الغزالي

GHAZZALI

A MOSLEM SEEKER AFTER GOD.

No. 312

إذا رمت الحصول على الآتي وإحراز المفخر والمعالي
بترجمة حوت من كل فضل عليك بقصة الشيخ الغزالي

ألفه

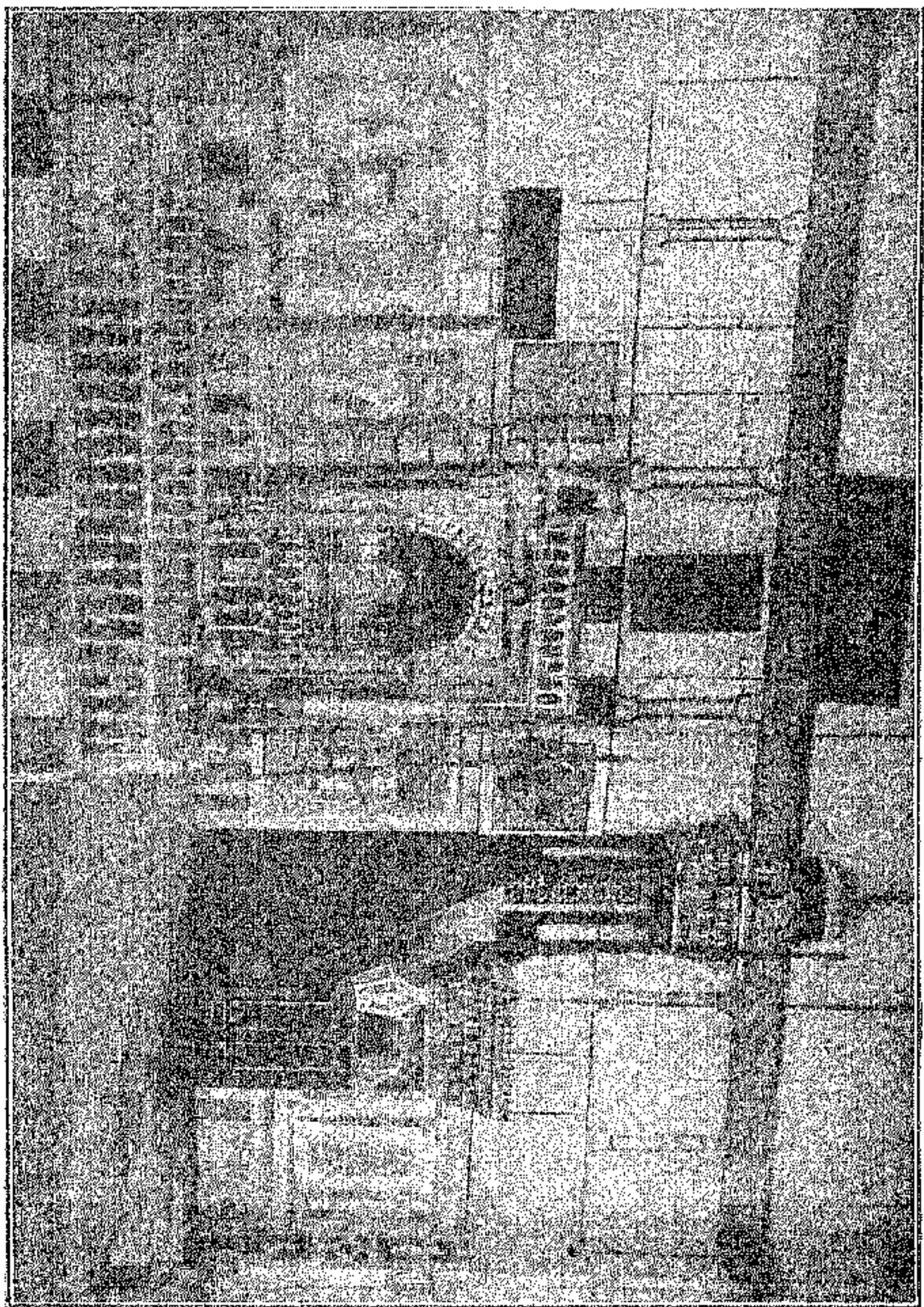
المستشرق البحاثة الدكتور زويمر

باللغة الانكليزية

الطبعة العربية الثانية سنة ١٩٢٦

مترجم الطبع والنشر مطبعة النيل بمصر

محراب الجامع الاموي المشهور بالقيس



مكتبة الزيت

الغزالي صراط للإيمان

أو

ترجمة حياة حجة الاسلام الغزالي

GHAZALI

A MUSLEM SEEKER AFTER GOD.

No. 312

إذا رمت الحصول على الآلي وأحراز الفخر والمعالي
بترجمة حوت من كل فضل عليك بقصة الشيخ الغزالي

الله

المستشرق البعثية الدكتور زويمر

باللغة الانكليزية

الطبعة العربية الثانية سنة ١٩٢٦

مترجم الطبع والنشر مطبعة إنجيل مسيحية

ويطلب من مكتبها بخان الزيت قرب باب العمود بالقدس الشريف

With the aid of A. C. L. S. M.

فهرست الغواص والآلى

وجہ	
۱	المقدمة (بقلم الامتاذ عبد الفادي القاهراتي)
۷	الفصل الاول - العصر النهبي في الآداب العربية
۳۷	الفصل الثاني - ولادة الغزالي وتربته
۶۳	الفصل الثالث - تعليمه واهتداؤه واعتزاله
۸۴	الفصل الرابع - رحلات واخریات ايامه وموته
۱۰۴	الفصل الخامس - مؤلفاته
۱۲۹	الفصل السادس - علم الآداب كما علمه الغزالي
۱۵۷	الفصل السابع - تصوف الغزالي
۲۰۰	الفصل الثامن - يسوع المسيح في الغزالي
۲۳۲	الخاتمة (لمسلم استهدى فاهتدى)

مقدمة

بسم الله الرهادي الى الصواب

سبحان خالق الامور ومعيدها ومنشئ الديانة ومحبيها . وبعد فلنا الشرف
أن تقدم الى القراء مؤلفاً تقيساً سميناه « الغواص والآلي » وهو عبارة عن
سيرة حياة حجة الاسلام الامام « الغزالي » الذي غاص في بحار العلوم والفلسفة
يفتش على الآلي - ثمينة ودرر فآخرة وهذا المؤلف تأليف العلامة البحاثة
الدكتور زويمر المستشرق الامريكاني وقد أصدره أصلاً باللغة الانكليزية
وسماه حضرتة « مسلم يبحث عن الله » وقد طلب اليّ أن اقول كلمة عن أهمية
الكتاب من الوجهة الدينية في البحث عن اللؤلؤة الثمينة التي هي الغاية
المقصودة والضالة المنشودة لكل باحث في كل عصر وصفح ألا وهي نيل
عقران الخطايا كأول خطوة في الطريق الى الله
وليسمح لي القارىء ان انقل شيئاً مما قلته في محاضرتي الصغيرة (١) عن
صاحب الترجمة . قلت :-

﴿ الازمات الروحية ﴾

ان خير وسيلة لمعرفة أدوار حياة هذا الاستاذ ان نتخذ كتابه «المنقذ من
الضلال» كترجمة لحياته وفعلاً كان هذا من أهم اغراضه في تأليفه اياه . وعند ما
نفتح الكتاب المذكور نجد فيه ذكر اربع أو خمس ازمات روحية اصابته

(١) «الغزالي وكتابه المنقذ من الضلال» ثمنا نصف غرش فقط وتطلب من مطبعتنا
بمصر أو من موزعينا في الجهات

وما هو معنى «أزمة روحية» يا ترى؟ هل فاب عنكم ذكر الازمة المالية التي اصابته مصر بل جميع الشرق في سنتي ١٩٠٧ و ١٩٠٨؟ — ان الازمة هي عبارة عن شدة موقته فقد تأتي بني آدم في بعض الاحيان فرصة للتوبة والتفكير في الآخرة وربما تأتي هذه الفرصة فجأة وبعد ان تدوم مدة من الزمن تذهب فجأة كما اتت فيرجع الانسان الى عاداته المعهودة . على ان نتيجة تلك الفرصة تدور فاذا تاب الانسان واستغفر الله فخييراً والا فشرّاً لان الازمة الروحية عبارة عن صوت الله تعالى ينادي قائلاً «هلموا يا بني آدم اتركوا ذنوبكم وفتشوا على الصراط المستقيم الذي يتقدم من الهلاك في النار ويوصلكم الى دار السعادة الابدية»

وعلى هذا فاننا نقسم حياة الغزالي الى الأدوار الآتية وهي :-

الغفلة — اليقظة — البحث — الوصول الجزئي

(١) زمن الغفلة — يصف الغزالي حالته الاصلية بالحديث الذي اقتبسه «الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا» ومعنى ذلك ان اهمالهم وعدم مبالاهم يشبه النوم أو الموت وفعلاً تسمى هذه الحالة بالموت الروحي وهذا يوافق قول الانجيل «أموات بالذنوب والخطايا» فليست هي حالة كل مسلم مهمل فقط بل تقول انها حالة كل مسيحي غير مبال بأمر الدين ايضاً

(٢) اتى زمن اليقظة أو ادراك الحالة فحالما استيقظ الغزالي خاف وفرع . خاف من الدينونة والهلاك في النار . نعم ان الاطباء قد نسبوا ذلك الى أثر مرض كان قد اصابه لكن هؤلاء الاطباء هم اطباء الجسد لا الروح لان ذلك

خارج عن دائرة علمهم فلا يقدر الطيب ان يرشدك الى الصراط المستقيم أو ان يشفع فيك عند الله وقت التوبة والاستغفار

١٣٠٠ عود - رأى الاستاذ ان كافة مجهوداته لم تجد ثعماً . وحيث كان له جانب عظيم مما نسميه «شجاعة ادبية» فاعترف بالشكوك التي خالحت فؤاده في ذلك الوقت فقد جاهر في كتابه «المنتقد من الضلال» بأنه ذهب مذهب السفسطة (الزندقة) مدة شهرين حتى شعر بأنه طى شفا جرف هار فيئس من النجاة ويخال لي ان حالة الغزالي كحالة كثيرين من شباننا اليوم

استيقظ هؤلاء من نوم عميق وانتبهوا وسألوا عما هي فائدة دينهم الذي ولدوا وتربوا فيه . سألوا « اين الرضى والانبساط الذي عرفه أوبانا ؟ كان دينهم يكفيهم فهل يكفيننا ؟ » هم تكلموا عن المغفرة التي اختبروها لكونهم استغفروا المولى تعالى ولكننا لانعرف كيفية ذلك لاننا قد فقدنا مفتاح الطريق

هذه هي بعض الشكوك التي تحضر الشاب العصري وليست هي بعيدة عن تلك التي طالما داهمت الاستاذ الغزالي واحرجته مع انه جد واجتهد ولم يستسلم لليأس والقنوط بل بحث عن الطريق المثلى التي بها ينقذ نفسه من الهلاك (٣) دور البحث : - قام الاستاذ بكل عزم وحزم تاركاً منصباً عالياً وairاداً طائلاً لانه اعتبر انقاذ نفسه اكثر قيمة من حفظ امواله . خرج من بغداد سنة ٤٨٨ هـ وبذلك فك كل قيوده التي طالما ربطته ومنعته حرية الفكر والتأمل

(١) - تعلم علم الكلام ثم رفضه - كان الغزالي مسلماً تقياً بمعنى الكلمة

فلم ترضه الابحاث المنطقية الطويلة التي كانت الاشعري وغيره قد انشأوها واعتمدوا عليها كأنها اصل الدين ! فانه لم يلم بها الماماً تماماً لكنه بعد استقصاء البحث رفض علم الكلام والمتكلمين أي اساتذة ذلك العلم وازدرى بهم في كتابه ازدراء شديداً

(ب) — تحول الى الفلسفة ولسان حاله يقول ان شاء الله تعالى وجدنا المطلوب فهذه هي ضالتنا المنشودة . لكنه لم يلبث حتى نبذ جميع انواع الفلاسفة وهم الدهريون والطبيعيون والاهليون . أما النوع الاول فلائهم رفضوا الخالق وهذا كفر كما لا يخفى . وأما الطائفة الثانية وهم الطبيعيون فاعتقدوا ان العالم قد سار مثل ما كينة بعد صنعها أي بلا اعتماد على عناية الهية وأما المذهب الثالث فيذكر منهم اسما سقراط وافلاطون وارسطاطليس ويرد عليهم بأنهم اتقسوا على بعضهم حتى كفر بعضهم بعضاً تكفيراً وقد تبعم ابن سينا والغارابي من المتفلسفة الاسلاميين ثم يعود بالله من شرهم ويقر بأن « لا منقذ من الضلال هنالك »

(ج) — تعليقات الباطنية — كان الباطنيون يعتقدون ان « الخلافة الظاهرة تولاهها ابو بكر و الخلافة الباطنة اخذها علي وذريته » فضالتهم هي الامام الباطن وليس عندهم حديث غير ذلك لكن الغزالي تباحت معهم وفند شبهاتهم وصرح اخيراً بأن المنقذ من الضلال ليس هنالك

﴿ وصوله الى الطريقة الصوفية ﴾

اختبر جنابه كل هذه المذاهب المختلفة وسبر غورها وفهم تماماً بأنها لا تروي غليلاً فلم يضيع وقتاً ثميناً فيها بل التفت الى طريقة اخرى فيها

وجد (حسب روايته) المعرفة الحقيقية بخلاف هذه الضلالات التي ليست الا
أوهاماً واضغاث احلام

أما الطريقة التي سار فيها وانضم اليها فهي طريقة الصوفية وقد انتفعت
الطريقة كثيراً بانضمامه اليها واصلاحه لها لان الغزالي كان احد الكبار الذين
لا يستفيدون الا وهم يفيدون غيرهم أو كما قال السيد المسيح «أتيت لأخدم
لا لأخدم» وكذلك كان الاستاذ يفيد اكثر مما يستفيد

استفاد نوعاً لأنه وجد عند الصوفية رغبة شديدة لمعرفة الحقيقة وتلك
الحقيقة عندهم هي الله نفسه فجل مسعاهم هو الوصول الى معرفة الله. فعبوديتهم
وعشقهم وزهدهم ووجدهم جميعها منازل سفر في طريق بعيد وكل مرحلة منها
دليل محسوب على تقدم المسافر في طريقه نحو الغرض

﴿ انما لم يصل وصولاً تاماً ﴾

لم يصل تماماً والعيب في ذلك ليس على المرید بل على عدم كمال الطريقة
لكنه زعم انه قد وصل فانه فعلاً تاذ ببعض ازمنة من «المعرفة» و«الوجد»
(لكنها على كل حال زمنية وقتية) نعم لا شك انه جرد افكاره عن العالم
تجريداً مشكوراً ولا ننكر انه استخرج من الطريقة كل ما فيها من الفوائد
الدينية لكنها غير كافية لنيل الخلاص (أي النجاة) كنتيجة لاختلاصه
الكلي . (هـ)

قلنا ان المذكور لم يصل تماماً . نعم اننا لا ننكر عليه حقه من الاكرام
لانه أجل الكتاب المقدس اجلاً مشهوراً وتكلم عنه بصفة كونه منزلاً
من العلي العظيم ولم يعتقد بنسخه مطلقاً وعلاوة على ذلك يتضح من الفصل

الثامن ان الغزالي طالع الانجيل باخلاص للاستفادة ولذلك فيحسن بغيره
 الاقتداء بقدوته . نعم واعطى لسيدنا المسيح مقاماً عظيماً . لا تنكر ذلك انما
 قول ان من يقتدي بالغزالي في البحث والتنقيب عليه ان يداوم البحث وان
 لا يكتفي بنتيجة جزئية

ان الغزالي لم يدرك ماذا كان غرض المسيح من التطوع للموت — لموت
 نيابة عن الجنس البشري — كما انه لم يشعر بأهمية قيامته من الموت ولا يخفى ان
 هاتين النقطتين هما الركنان المهمان في الديانة المسيحية. — «موت المسيح
 وقيامته»، وبعبارة اخرى ان سيدنا المسيح هو رئيس الموت والحياة وفي طاقته
 ان يهب الحياة لمن يؤمن به ويتكل عليه ومن يقبل اليه لا يخرجته خارجاً بل
 يعطي له أولاً غفران خطايه وثانياً الايقان بأمور لا ترى أي الحصول على رجاء
 الحياة الابدية

وربّ تابع يسعى وراء متبوعه فينال اكثر منه وربّ مسلم يقرأ في هذا
 الكتاب فيقبل الى القادي الهادي الى الصواب ومن استهدى فقد اهتدى

عبد القادي القاهراني

رئيس تحرير مؤلفات المطبعة

ومديرها العام

الفصل الاول

(العصر الذهبي في الآداب العربية)

يشبه عطاء التاريخ قم الجبال الشوامخ المتطاولة في الفضاء المظلة فوق السهول والبطاح المرئية للعين على أبعاد شاسعة والمشرقة على مناظر الطبيعة . وكل باحث في تاريخ الاسلام يلتقي باربعة من اولئك الفطاحل العظماء وهم محمد نبي المسلمين نفسه، والبخاري جامع الاحاديث المشهور ، والاشعري اللاهوتي المتفلسف المضاد لمذهب العقليين ، والغزالي المصلح المتصوف ، وقد خلف هذا الاخير آثاراً هامة باقية في تاريخ الاسلام أكثر من أي انسان آخر عدا محمد نبي المسلمين نفسه حتى قال عنه السيوطي «لو كان هناك نبي بعد محمد لكان الغزالي» وفي اعتقادي اننا نعثر في ترجمة حياته وزوايا مؤلفاته على صورة واضحة للاسلام لانه كلما حاول المسلمون التنصل من قيود الاحاديث الثقيلة ونظاماتها الجامدة ورسميتها الظاهرة اتسع امامهم باب الفرج عن طريق التصوف . وليس من يضارع الغزالي ويدانيه بين كل الذين تعمقوا في استكشاف المعاني الروحية لتعاليم القرآن ولا في

دقائق الفرائض الطقسية الاسلامية الكثيرة «لانه استفاد من معاني الانجيل الروحية شيئاً كثيراً سيظهر اثره في هذا المؤلف ان شاء الله
فقد قال عنه السبكي : —

« هو الامام الجليل محمد بن محمد بن احمد الطوسي أبو حامد الغزالي حجة الاسلام ومحجة الدين التي يتوصل بها الى دار السلام جامع اشتهت العلوم والمبرز في المنطوق فيها والمفهوم جرت الائمة قبله بشأو ولم تقع منه بالغاية ولا وقف عند مطلب وراء مطلب لاصحاب البداية والنهاية حتى أخذ من القرناء كل خصم بلغ مبلغ السها وأخذ من نيران البدع كل ما تستطيع أيدي المجالدين مسها. كان ضرخاماً : لا ان الاسود تتضائل بين يديه وتوارى، وبدراً تماماً الا ان هذا لا يشرق الا نهارة، وبشراً من الخلق ولكنه الطود العظيم ، وبعض الخلق ولكن مثل ما بعض الحجر الدر النظيم، جاء والناس الى رد فرية الفلاسفة أجوج من الظلماء، لمصاييح السماء، وأقفر من الجلباء، الى قطرات الماء، فلم يزل يناضل عن الحقيقة بجلاد مقاله، ويحبي حوزته ولا يلطخ بدم المعتادين حد نصاله، حتى أصبح مبدأه وثيق العرى، وانكشفت غياهب الشكوك فلم تكن الا حديثاً مفترى، هذا مع ورع طوى عليه ضميره، وخلوة لم يتخذ فيها غير الطاعة سميره، ونجر يد تراه به وقد توحد في بحر التوحيد، اه
ولثلا يخطر ببال احد ان هذا الاطناب شرقي ومبالغ فيه فيها نحن نورد هنا كلمات الاستاذ دنكن مكدونالد وقد تعمق في درس الغزالي وحياته ومصنفاته أكثر من اي بحاثه آخر في الاسلام قال: —

« يصعب علينا التكهن بما كانت تصل اليه يد الاسلام من الصلابة والعنف والصرامة نولا تقوذ الغزالي فيه فهو قد ألقده من التداعي والانهيار وفتح أمام المسلم الصادق باب حياة مستترة في الله (متبعاً خطوات بولس رسول الله الى الامم بالتمام). وقد صادف في حياته مرارة الاضطهاد كملحد هرطوقي ولكنه اليوم بشار اليه بالبنان كأكبر استاذ للجامعة الاسلامية»

ولسهولة تفهم روح الغزالي وتعاليمه لا محيص لنا من الرجوع الى العصر الذي عاش فيه لاننا لا نفهم روح الشخص الا اذا عرفنا الاوساط (البيئات) التي اكتتفته وما تراجم العطاء الاخيوط فقط ضمن انسجة التاريخ الواسعة والغزالي من تلك الزمرة القليلة التي حملت مشاعل النور في العصور المظلمة

ولد صاحب الترجمة في طوس في خراسان من اعمال بلاد فارس سنة ١٠٥٨ ب.م وقضى نحبه سنة ١١١١ ب.م وعند ولادته كان طغرل بك السلجوقي قد استولى على بغداد وكان هنري الرابع امبراطوراً ونيقولا الثاني بابا رومية وكان النورمنديون قد بدأوا فتوحاتهم في الغرب وكان الاتراك يكتسحون الاناضول في الشرق الادنى وكان ايضاً من بين معاصريه في الغرب البابا هلدبراند وايلار الفيلسوف وبرنارد الراهب وأنسلموس رئيس اساقفة كنتربري

وبطرس الناسك وفي الزمن الذي كتب فيه مؤلفه الشهير كان
جودفري ملكاً (على القدس الشريف)

وكان الغزالي يناضل ويكافح في المسألة الاسلامية وتعطش
القلب البشري لمعرفة الله بعد ظهور رسالة الكندي عن الايمان
المسيحي (التي كتبها في عصر هارون الرشيد نحو مئتي سنة وقبل
ان يستشهد ريموندل^(١) في شمال افريقيا نحو مئتي سنة ايضاً

وكانت حالة العالم الاسلامي وقتئذ قد تبدلت عما كانت عليه
ايام سيادة العرب الفاتحين في خلافة عمر على مدينة البصرة ونظيرتها
الكوفة وامسى خلفاء الدولة العباسية في القرن الحادي عشر مجرد
أشباح لعز دارس أشبه بامبراطرة (اباطرة) الشرق ولم يحتفظوا
بشيء فوق سيادتهم الدينية الا النذر اليسير

وقد كان الخليفة القائم بامر الله عضداً وساعداً لطغرل بك في
كل فتوحاته وغزواته فاغدق عليه من القاب الشرف وآيات التبجيل
والتعظيم وحياء كملك الشرق والغرب وزوجه بابنته (على خلاف

(١) شهيد بلاد تونس وكان اول مبشر بين المسلمين وتطلب قصة حياته من مطبعة
النيل المسيحية او من موزعيها في الجهات

عادات الهاشميين) وفي عهد الخليفة التالي استولى الأتراك السلجوقيون على مدينة القدس الشريف

وقال تولديك (البحاثة الألماني) في مؤلفه «مقتطفات من التاريخ الشرقي» ما نصه :

« كان الإسلام حوالي سنة ١٠٠٠ ب. م في حالة سيئة اذ وهنت الخلافة العباسية وتضائل بطشها فتضعفت قوة العرب وقرقت الجامعة الإسلامية الى مجموعة من الولايات الصغيرة والكبيرة ولم يكن في وسع أقواها وأمنعها وهي الدولة الفاطمية أن تشد ازر المجموعة المتفرقة لاسيما وقد كانت شيعة... وقد جاء هؤلاء الغزاة الرحل (الأتراك) بالخراب والدمار ودكوا صرح مدينة واسعة الاطراف ولم يفعلوا شيئاً نحو ترقية الجنس البشري بل قصروا همهم على تهزيب دين محمد — حمل الأتراك لواء الايمان الإسلامي بكل غيرة وحماس — وقد كان سهل المنال أمام قواهم العقلية — وأمسا حاته الصادقين المتعصبين ضد العالم الخارجي ولم يلبثوا أن أقاموا دولة السلجوقيين القوية وفتحوا اقاليم جديدة للإسلام في الشمال الغربي وبعد سقوط دولة السلجوقيين ظلوا هم الشعب الحاكم المتسلط في كل ولاياتها القديمة ولو لم يوظف الأتراك فطرة الإسلام الحربية لآحزرت الحملات الصليبية نصراً ميبناً »

وقد ولي طغرل بك سلطاناً في مدينة نيسابور الملكية سنة ١٠٣٨

ب. م وقال عنه جبون

« كان أباً لجنوده ورعيته وأتقذ بحسن ادارته وعدل أحكامه بلاد فارس

من ويلات القوضى والاستبداد فأمست تلك الأيدي التي تلطخت بالدماء نصيرة العدل وحامية الاسلام العام. ولم ينفك المتقشفون من الأتراك بل العقلاء منهم على السكنى في مضارب أسلافهم وكانت تلك المستعمرات الحربية من الأوكس الى نهر الفرات في حى امرائها الوطنيين . أما الأتراك المتحضرون فقد ألهتهم المشاغل الكثيرة واستعاضوا عن التقشف والخشونة بالانغماس في الاطياب واللذات وعمدوا الى تقليد بلاد فارس وثيابها ولغتها واخلاقها وكان يرى الناظر القصور الملوكية في نيسابور ويرى أبهة الملك ونخعة السيادة والمجد وقد اعتلى المناصب الحكومية الكبرى الأكفاء من العرب والفرسيين واعتقت الأمة التركية جمعاء دين محمد بكل غيره واخلاص»

وقد اشتهر أول سلاطين السلجوقيين بغيرته للعقائد الاسلامية فكان يقضي وقتاً طويلاً في الصلاة ويشيد مساجد جديدة في كل مدينة يفتحها. وهو الذي ضرب على ايدي المناوئين للخليفة في بغداد وأخضع اهل الموصل وبغداد بقوة بأسه وكثرة سلاحه ولما ان استتب الامر للخليفة واستراح من مناوئة خصومه عقدت بينه وبين السلطان محالفة عمادها زواج اخت طغرل بخليفة الرسول

وفي سنة ١٠٦٣ مات طغرل خلفه ابن اخيه ألب ارسلان وكان اسمه يذكر بعد اسم الخليفة في الادعية العامة عند جميع المسلمين في الشرق الاخرى .

وقد وصف لنا جبون عهد سلطنته بهذه الكلمات
«رست ربوات من الخيول التركية على تخوم يبلغ مداها ٦٠٠
ميل من جبال طوروس الى مدينة ارضروم على البحر الاسود وسفكت
دماء ١٣٦٤٠٠٠ نفس من المسيحيين ضحايا باسم النبي العربي» (اه)
وقد تمثل في ذلك «الاسد الجبار» - وهذا معنى اسمه - صلابة
الحاكم وكرمه الشرقي، وفي عهده عانى المسيحيون أقصى صنوف
الاضطهاد، واستأصل شأفة اعدائه ومناوئيه، ولكن اكرم مشوى
العلماء والاعنياء والكبراء واغلق عليهم من نعمائه بكل سخاء وقد كان
ارسلان محارباً جباراً شديد البطش متصراً للايمان متعطشاً للجهاد
ولسفك الدماء وخوض معامع القتال.

ولما استولى على عاصمة ارمينيا في ٦ يونيو سنة ١٠٦٤ أقفرت من
بنيها ونعق على ربوعها يوم الويل والخراب وقد قيل في هذا الصدد:-
«سالت الدماء البشرية انهاراً وحدثت ملحمة هائلة حتى اكتظت
الشوارع وسدت الطرقات بأشلاء القتلى واكوام المجندين واحرت مياه النهر
من كثرة الدماء التي امتزجت بها وقد سيم الاعنياء من الاهلين العذاب
اشكلاً وأواناً ونهبت الكنائس وسلخت جلود الكهنة وهم احياء وكان
الغزالي في ذلك الوقت في الحول السادس من عمره»

وفي سنة ١٠٨٢ اغتيل ارسلان نخلفه ملك شاه ابنه الاكبر
وأخذ بالتوسع في فتوحات ابيه فيما وراء الاكسوس حتى بخارى
وسمرقند ونقش اسمه على تقود مملكة التتر المتاخمة لبلاد الصين
واندمج اسمه في صلواتها - وقد امتد سلطانه من تخوم الصين الى
جهة الغرب والجنوب حتى جبال جورجيا وضواحي الاستانة ومدينة
القدس الشريف وبساتين اليمن (بجزيرة العرب) . وقد كان ذلك
الملك الراعي عاملاً في الميدان ايام السلم والحرب ولم يستسلم لشهوات
النفس وحب النساء

وكان وزيره الاكبر نظام الملك وهو صاحب الايادي البيضاء
في احياء العلوم والآداب في عهده تقحت (الرزنامة) وشيدت
المدارس والكليات وتنافس العلماء والادباء لنيل الحظوة لدى الملك .
وقد ظل نظام الملك هذا موضع اعجاب الخليفة وحجة الدين والعلوم
مدة ثلاثين عاماً ولكن لما بلغ ذلك السياسي المحنك الثالث والتسعين
من عمره - وهو صاحب الفضل الاكبر على الغزالي كما سيجيء -
عزله مولاه واتهمه اعداؤه واغتالته يد متمصب أثيم . وقد أثبتت
كلماته الاخيرة براءته مما عزي اليه وكانت حياة ملك شاه بعده قصيرة
الامد ضئيلة طلعز والابهة

وكانت اللغة العربية وقتئذ قد سادت في كل مكان وتسربت
مفرداتها الى كل لغات الشرق الادنى . وكان كل جنس يحتك به
العرب « يتعرب » على شاكلة كلهم .

وقد قال شينري : —

«ويمكننا الحكم على مقدار هذا النفوذ بمقارنة لهجة الفردوسي الفارسية
بلهجة السعدي لان الاول نبغ في اوائل القرن الحادي عشر تری لغته
وتراكيبه صافية نقية لا شبة فيها ولكنك ترى في مؤلفات الثاني التي نسقها
بعد هذا العصر بنحو مئتي سنة وخمسين سنة بعض الكلمات العربية متداخلة في
الفارسية مع شي من لغته الاصلية وقد اورد هذا المؤلف كثيراً من الايات العربية
كحلية يزين بها مؤلفاته مفترضاً أن قراءه يعرفون هذه اللغة المقدسة الفصيحة»

وقد امتدت طرق التجارة الى كل النواحي فاتصلت بالهند
والصين في الشرق وكذا ارخيل ملاشيا (جزر الهند الشرقية) وكانت
القوافل تحمل المتاجر من اواسط آسيا وشمال بلاد العرب الى اسواق
الغرب ومراكزه التجارية فكان بين اسبانيا وبلاد فارس حلقة اتصال .

وقال الحريري في اطراء البصرة : —

«هي المكان الذي به تلتقي الفلك والركاب، والحيتان والضباب، والحادي
والملاح، والقائض والفلاح، والناشب والرامح، والسارح والساج، وله آية المد
القائض، والجزر والغائض»

وهي بالحقيقة كانت الميناء والمركز التجاري اكل الاقطار
 الواقعة على ضفاف دجلة والفرات كما كانت مدينة الاسكندرية للغرب
 ولدينا دلائل تؤيد تبادل تجارة ابقار البحر والعاج بين بلاد
 العرب والصين وقد ظهر مؤلف مكتوب باللغة الصينية في القرن
 الثاني عشر عن التجارة مع العرب ونشرت ترجمته حديثاً في مدينة
 لينينغراد عاصمة روسيا. والاعراب من هذا انه قد عثر في
 سكندنافيا^(١) على الوف من قطع النقود الكوفية يرجع تاريخها الى
 القرن الحادي عشر مما يدلنا على ان هذا الصقع النائي في اوروبا كان
 على اتصال مع الشرق الادنى

ويشهد التاريخ ان آداب ذلك العصر كانت مفككة العرى لا رابطة
 بينها وبين الدين اسواً مما هي عليه الآن في العالم الاسلامي . فقام
 فيه طغمة من الكتاب مثل الهراوي وكتبوا الشروح والتفاسير عن
 اعجاز القرآن ولكن لم يعبأ أحد منهم بنحوض المسائل الادبية كعاقرة
 الخور سراً والتهتك في ولائم المنادمة والميل الى الاحاديث المستهجنة.
 ولنا دليل على صدق ما نقول ككثرة ورود الفاظ الخور والنساء
 والاعاني ليس في الادبيات والشعر فقط بل في مجالس أئمة الدين

(١) هي ممالك نروج واسوج والدانمارك

والفلاسفة . وقد وقد قال هيوارت في تعليقه على « كتاب الصوامع »
وهو مجموعة اشعار عن الاديرة في الشرق الادنى : —

« لا ينرب عن بلنا أنه لما عكف المسلمون على الاديرة المسيحية لم يفعلوا
ذلك مسوقين بدوافع دينية تقوية بل رغبة في تحيين القرص لمعاقرة بنت الحان
الامر الذي كان محرماً في المدائن الاسلامية . وقد تغنى الشعراء بتلك الاماكن
المقدسة التي عاقروا فيها بنت الحان وأطفأوا لوعة لذاتهم »

وكان كل من يتصدى للعتب أو الكتابة ضد هذا الفساد العام
يتحمل تبعه أليمة . ولان القوة كلها كانت في ايدي المرائين فلم يكن
للمصلحين شأن يذكر

قيل عن ابن حمدون (١١٠١-١١٦٨) انه لما حمل حملة شعواء
على المساوي التي رآها حوله في بغداد عزل من وظيفته (كاتم اسرار
الحكومة) وأودع السجن حيث قضى نحبه . وكانت العقوبات
صارمة وبت السيقان نظير جرائم السرقة طبقاً لشرائع القرآن من
الامور العادية الجارية حتى كان كل مبتور ومجدوع موضعاً للريب
والشبهات . وقد روي عن الزمخشري انه اصيب في احدى رجليه
بداهمة من الصقيع في الشتاء حتى اضطره الحال الى بترها واستبدالها
برجل خشبية ولكنه كان يحمل معه دائماً شهادة مكتوبة موقفاً عليها

من شهود كثيرين جاء بها أنه فقد ساقه في حادثة أُلْت به وليست عقاباً على جريمة آتاها

ويؤخذ من اقوال البيهقي مؤرخ بغداد أن الغيرة للإيمان كان يصحبها غالباً تهاوت شديد للشريعة الإسلامية المختصة بتحريم المسكرات ولم يكن ادمانها قاصراً على الجنود والضباط بل السلطان مسعود نفسه طالما عاقرها في حفلات مع صحبه وخلانه في الخفاء وهالك مشهد وقع في غازني عاصمة ولاية خراسان :

«جاء من السراوق الى الخديفة بخمسين قدحاً وقنينة من الخمر وبدأوا بإدارة الكؤوس فقال الامير «لن شرب باعتدال وبأقداح متساوية» ولم تلبث أن لعبت برؤوسهم نشوة الخمر وشرع المغنون والشعراء ينشدون . شرب أحد الندماء خمسة أقداح كبيرة - يسع الواحد منها اكثر من نصف لتر - وبعد السادس دارت رأسه وبعد السابع فقد شعوره وبعد الثامن حمله عبيده . اخذ الطيب محمولاً بعد القدح الخامس اما خليل داود فشرب عشرة وسيا بيروز تسعة واخذ كل منهما محمولاً الى داره . امتنع الحاضرون الواحد بعد الآخر حتى بقي السلطان والخواجه عبد الرازق . وبعد ان شرب الخواجه ثمانية عشر قدحاً نهض وقال «لو شرب عبدك شيئاً آخر لأضاع رشده واحترامه لجلالتك»

تمادى مسعود وحده في تناول الاقداح حتى جاء على سبعة وعشرين قدحاً ثم قام وطلب الماء وبسط الصلاة واغتسل وتلا صلاة الظهر المتأخرة

والغروب معاً بكل هدوء وسكينة كأنه لم يندق شيئاً ثم امطى فيه الى القصر»
 قتل مسعود سنة ١٠٤٠ واحتفظ أولاده وأعقابهم بهذا الصقع
 من العالم الاسلامي قرناً من الزمن ولكن باتت غازني مجرد ولاية
 خاضعة للسلطان ملك شاه بعد ان كانت عاصمة ملك واسع
 الأطراف كبير الجاه

وكان القرن الحادي عشر فاتحة عصر جديد لام أوروبا الغربية
 فيه بدأت بتنظيم حكوماتها والاخذ بأسباب المدنية حتى بان تفوزها
 في الاوطان وخارجها ولو ان طبقات الشعوب كانت لم تزل باقية في
 أحط طبقات الوحشية . وقد لاحت بين طبقات الاكليروس
 والاشراف بواد النظام والمدنية والاصلاح الاجتماعي ولكن قال احد
 الكتاب ان ظهور الشعائر الدينية القوية جنباً لجنب مع ضروب
 التعسف والاختلال والميول الوحشية كان من خواص ذلك العصر .
 وكانت تكتسي هذه الشعائر غالباً بثياب الخرافات والتعصب وتأدية
 الواجبات الفرضية وأخصها زيارة القبر المقدس . فكم من ألوف
 غامروا بحياتهم وصحتهم وثروتهم رغبة في الوصول الى المدينة المقدسة
 بنفس العيرة والتضحية اللتين نشاهداهما اليوم (قبل قيام الحرب
 العظمى) في النيورين من حجاج الروس

ولما استولى الترك على آسيا الصغرى وسوريا أوصد باب بيت المقدس وفي سنة ١٠٨٦ (وكان الغزالي وقتئذ قد بلغ الحول الثامن عشر من عمره) ذبح الغزاة ثلاثة آلاف من هؤلاء المسيحيين ومن ذلك العهد أمسى حكمهم سلسلة مظالم وتعسف خلوا من كل مظاهر الرحمة والحنان . فقد روي عنهم بأنهم جروا البطريرك من شعور رأسه وألقوه في سجن مظلم قدر وأهانوا رجال الدين من كل طائفة وساموا الحجاج البؤساء كل صنوف المنلة والاحتقار وقد أثارت هذه المعاملة الشائنة سخط الغرب وأهبت فيه نار الحقد والغيظ فزار بطرس الناسك نفسه مدينة القدس وعاد الى أوروبا لاستنهاض الامم فجدت الحملة الصليبية الاولى التي اشترك في تجريدها البابا اوربان الثاني واندفع الى أواسط أوروبا عن طريق نهر الرين فالدانوب ثلاث مئة الف من الفلاحين نصفهم عزل عراة ولكن لم يصل الى شواطئ آسيا الا ثلث هذا العدد الخفير وهناك لاقوا حتفهم على بكرة أيهم ولم يوقف لهم الا على اكدامس من العظام البالية فلم يبقوا في بلادهم ولم يصلوا الى أغراضهم ثم جردت حملة اخرى منظمة ضمت تحت لوائها زهرة شبان أوروبا تحت قيادة جودفري وقيل انها استعرضت في سهول بثرنية

فبلغ مجموعها نحو مئة الف فارس كاملي العدد والسلاح ونحو ست مئة
 الف من المشاة . وربما كانت هذه الارقام مبالغاً فيها أو ان صفوفها
 قد نقصت بفعل الاوبئة والمجاعات ولكنها في أقل من ثلاث سنوات
 وصلت الى بغيتها العظمى . وفي سنة ١٠٩٧ حاصرت مدينة نيقية
 واستولت عليها ثم تقدمت الحملة الظافرة نحو انطاكية وضربت
 حولها نطاقاً من الحصار بعد سبعة أشهر كلها تعب ونصب . وفي
 سنة ١٠٩٩ وقفت على ابواب اورشليم فسلمت المدينة المقدسة بعد
 حصار دام اربعين يوماً . وهنا انتقم الافرنج بلا رحمة ولا شفقة
 للآلام الكثيرة والمظالم الرائعة التي حلت بدينهم وأبناء جنسهم
 فأحرقوا اليهود في مجامعهم وقتلوا نحو سبعين الفا من المسلمين بحد
 السيف وأعملوا معاول النهب والتخريب والمذابح ثلاثة أيام متوالية
 في المدينة كلها حتى انتشرت الاوبئة من جراء تعفن اشلاء القتلى
 وأخذ جودفري وخلقائوه في توسيع نطاق فتوحاتهم حتى لم
 يبق في حوزة المسلمين من مدائن سوريا سوى حلب ودمشق وحماة
 وحمص وعم الكمد والحزن والخجل أتباع النبي العربي في كل مكان
 وتاقت نفوسهم ان يحوا هذا العار الذي لصق بدينهم

ويقول ميور في تاريخه ^(١) في سنة ٤٩٢ هجرية :-

ساد الذعر في كل أنحاء البلاد من جراء الاستيلاء على بيت المقدس
ومعاملة سكانها بالقسوة والعسف فجال الرسل في كل مكان منادين بهذه
المأساة المحزنة ومشعلين نيران الانتقام ومحرضين الناس على الجهاد لانتزاع
قبة الصخرة والمسجد الأقصى و(مهيأ انبياء بني اسرائيل) من ايدي الكفرة
ومهما كان مقدار نجاح هذه الدعوة في البلدان الاخرى فانها لم تلق رواجاً
في الشرق وقد كان وقتئذ منغمساً في مشاغله واضطراباته ولم يكن ليعبأ
كثيراً بالاماكن المقدسة لسيادة الدولة الفاطمية فيه . وفي خلال ذلك كانت
جموع المنفيين تلجأ الى بغداد وهناك ناصروا سكانها واستصرخوا الامة
لانارة حرب ضد الافرنج فلم تلق صرخاتهم اذناً صاغية لا من السلطان ولا
من الخليفة . وقد احتشد الثوار مرتين في صلاة الجمعة في المسجد الاكبر
وتعالت أصواتهم بالصخب والهياج وحطموا منبر الخليفة وعرشه ونادوا بالويل
والثبور ولكن اقتصر جهادهم عند هذا الحد ولم يجهز الجيش»

وقد كانت الاحقاد الدينية سائدة في تلك الايام بين المسلمين
أنفسهم فاليوم مثلاً ترى المذاهب الاربعة في وفاق يعبدون الله معاً
ويعيشون معاً في سلام كجيران ولكن في ذلك العصر كانت المنازعات
على اشدها بين المعاهد المناظرة لبعضها وقامت المناقشات والمجادلات
حتى اتسعت شقة الخلاف وبلغت الكشاحة والبغضاء مبلغاً عظيماً

(١) تاريخ سقوط الخلافة للسير ولیم ميور المستشرق الشهير

من الشدة بين المذاهب حتى سطر ماركوهند المؤرخ الفارسي حقيقة
 يبين فيها ما وصلت اليه الحفائظ والاحقاد من الشدة قبيل انتهاء
 الخلافة فانه لما وقف مغول جنكيز خان أمام مدينة الري ألفوها
 منقسمة الى حزبين متنافسين هما الشافعيون والحنفيون فدخل الاولون
 مع المغول في مخارات سرية وارتضوا ان يسلموهم المدينة ليلاً على
 شرط ان يذبح المغول أتباع الحزب الآخر فقبل المغول هذه المقترحات
 غير محجمين عن سفك الدماء ولما دخلوا المدينة ذبحوا أتباع مذهب
 أبي حنيفة بلا رحمة ولا شفقة .

وفي مثل هذا الوسط . وسط البغضاء والاحقاد والحروب
 وسفك الدماء قضى الغزالي اخريات ايامه فنلتمس له العذر اذا لحظنا
 فيه شيئاً من التعب والضعينة لان اتجاه الميول نحو الحروب تطمس
 الحكم البشري وتجعل محالاً ان يرى الناس فضيلة في الغزاة الفاتحين
 ولا يغرب عن اذهاننا ان الغزالي احتك بالمسيحيين الشرقيين
 منذ حداثة^(١) وكانت المسيحية قد استوطنت في بلاد فارس قبل
 الفتح الاسلامي وقويت الكنيسة النسطورية على احتمال صدمات

(١) احتكاك المسيحيين بالاسلام في عهد الغزالي امر مشهود له . انظر سيرة حياة يوحنا
 الدمشقي (النصور) وايضاً رسالة السكندي للفهورة

رائعة في الوقت الذي نهارت فيه الديانة الفارسية^(١) ولم يكن دخول العرب في نظر المسيحيين سوى استبدال سادة بآخرين وظل النسطوريون في حماية الخلفاء ولم يكونوا قد تدهوروا الى مثل حالتهم التعسة التي هم عليها الآن بل ثابروا على ادارة البعثات الاجنبية وكانوا في حكم الدولة العباسية من اكبر عوامل المدنية في الشرق فسمح لهم باعادة كنائسهم لا ان يشيدوا كنائس جديدة وحرم عليهم حمل الاسلحة وركوب الخيل الا في الاحوال الاضطرارية وحتى في هذه الحالة كانوا يترجلون عند مقابلة المسلم . وكانوا دائماً عرضة لضريبة الرأس العادية . ومع ذلك كله كان النسطوريون اقوى الهيئات الغير الاسلامية اiban حكم الخلفاء في بغداد (٧٥٠-١٢٥٨) وتسامت مدنيتهم فوق مدنية سادتهم فكانوا يعينون في الوظائف الحكومية كاطباء وكتبة وكاتمي اسرار حتى عظم نفوذهم وقويت شوكتهم ونالوا حرية في المسائل الدينية وانتخبوا بطاركتهم الخ .

والعلوم العربية التي انتقلت الى الاندلس وكانت من اكبر العوامل في علوم ومعارف القرون الوسطى انما الفضل فيها للنسطوريين أهل بغداد فهم الذين سلموا لسادتهم العرب العلوم اليونانية الموروثة

(١) كانت عبادة أرمزد ومؤسساها زرادشت

عن الترجمات السريانية ولذلك ترى الخلفاء يعاملونهم كرؤساء الهيئات
المسيحية ويعطون للبطريرك النسطوري في بعض الاحيان سلطة
مدنية على المسيحيين قاطبة

وفي اوائل القرن الحادي عشر ذكر البيروني - وهو كاتب
مسلم من حيفا - النسطوريين كأعرق الهيئات المسيحية الخاضعة
للخليفة في المدينة فقال بأنه يوجد ثلاث طوائف من المسيحيين هم
المالكيون والنسطوريون واليعاقبة «وأكثر هؤلاء عدداً هم المالكيون
والنسطوريون لان اليونان والبلاد المجاورة لها أهلة بالمالكيين واغلب
سكان سوريا والعراق وبين النهرين وخراسان من النسطوريين» .
قضى الغزالي العقدين الاولين من عمره في خراسان فهل عرف
المسيحية من اطلاعه على الانجيل؟ نحن نعلم بان الترجمات العربية ان
لم تقل الفارسية كانت موجودة في ذلك العصر ومؤلفات الغزالي طافحة
بالشواهد عن المسيح وتعاليمه وليس ذلك فقط بل هناك عبارات دقيقة
يصح ان يقال عنها اقتباسات حرفية بدليل قوله كما سيجيء «اني
رأيت في انجيل عيسى الخ» (رسالة ايها الولد وجه ١٠)
ومن المحتمل جداً ان يكون الغزالي قد حصل على ترجمات

للكتاب المقدس باللغة العربية فقد اشار الدكتور كلجور^(١) الى وجود نسخ خطية عربية من الانجيل يرجع تاريخها الى القرن التاسع وترجمات من العهد القديم وأجزاء من العهد الجديد نسخت في الفيوم قبل سنة ٩٤٢ ب.م—وتوجد ترجمات لبعض اسفار الكتاب المقدس من السريانية والقبطية يرجع تاريخها الى القرن العاشر وكذا ترجمات جديدة لاسفار موسى الخمسة

اما النسخ الخطية باللغتين العربية والسريانية فوفيرة العدد ومنها نسخة البشارة الاربع التي حفظت بعض وريقاتها حتى اليوم في المتحف البريطاني والتي جاء بها تشندروف من احد الاديرة في سوريا وفي اوائل القرن الحادي عشر قام احد علماء العرب بترجمة كتاب تاتيان واسمه Diatessaron اي اتفاق البشيرين التي ساعدت الكنيسة المسيحية على تفهم الحقائق الاولية الخاصة بمخلصنا. ثم أعدت ايضاً في اواسط ذلك القرن ترجمة للمزامير لاستعمالها في الخدمات الكنائسية لليونان الباويين وهذه نقلت عن الترجمة اليونانية وأخذت اسم المحل الذي طبعت فيه اولاً فصارت معروفة بمزامير حلب. فمسألة فحص النزالي للعهد الجديد سواء كان في سفراته او أثناء

(١) رئيس قلم الترجمة لجمعية التوراة

اقامته في خراسان لا تزال من المسائل الهامة التي امامنا في هذا الموضوع
 يروى ان اليهود نقلوا نواميسهم الى الفارسية حوالي سنة ٧٢٨
 ب م فن الصعب جداً تبرئة مسيحي فارسي من هذه التبعة وقد
 اتسع الوقت لمطارتهم فالفوا الرسائل العلمية بالعربية والفارسية
 وترجموا مؤلفات ارسطو ولكنهم قد اهلوا ابراز كتابهم المقدس
 للمسلمين غير ان الكندي وامثاله ممن اختفت اسماؤهم ومؤلفاتهم
 لم يجبنوا عن التفوه بشهادتهم في مجالس الخلفاء فقال ويتلي : -

«لم تشمل الكنيسة في بسط بعض تفوذها على الاسلام حولها مها
 تقاعد المسيحيون عن السعي لاكتساب دخلاء الى دينهم (قياماً بالفرض
 المسيحي الواجب على كل مؤمن) لكن صبغة التقدم الاسلامي في دمشق
 وبغداد كانت مسيحية»

ولا يخفى ان المسيحية في ذلك العصر لم تكن حسب دين المسيح
 في طهارته الكاملة ونماذج محبته وتسامحه، فقد حالت الشبهات
 والبغضاء المتبادلة دون تفاهم وتواد الباحثين وراء معرفة الله من
 الغيورين بين المسيحيين والمسلمين فكان المسلم مخوفاً مهاباً والمسيحي
 مردولاً محتقراً وكان أتباع المسيح اعداء الله في اعين المسلمين الذين
 جعلوا الحق للقوة في تلك الايام والعياذ بالله

وشرائع ذلك العصر الدينية تفصح لنا عن معاملة المسيحيين الذين كانوا في عرف المسلمين كفرة لا تحميهم الاضرائب الرأس (الجزية) التي كانوا يدفعونها والتي خولتهم بعض الحقوق كرهايا . وبين الشرائع التي منها النواوي أشهر المتشرعين في منهد الشافعي والذي علم ني دمشق سنة ١٢٦٨ ما يأتي : -

«على حياة الضرائب معاملة الكفرة الذين فرضت عليهم ضريبة الرأس بالامتهان والاحتقار فيبقى الجابي جالساً والكافر واقفاً أمامه حاسر الرأس محدودب الظهر . وعلى الكافر ان يضع بنفسه الدرهم في الميزان والجابي يمك بلحيته ويصفعه على خديه . ولا يجوز للكفرة ان يمتلكوا دوراً أعلى من جيرانهم المسلمين ولا مساوية لها وهذا القانون لا يسري على الكفرة الذين يقطنون في حي خاص بهم . وممنوع على الكافرين من رعايا السلطان ركوب الخيل ولا يسمح لهم الا بالحمار أو البغل مها كانت قيمته . وعليهم استعمال ikaf المهاز الخشبية . ومحظور عليهم استعمال المهاز الحديدية أو السرج (البراذع) . وعلى الكافر ايضاً ان يركن الى جانب الطريق ريثما يمر المسلم ولا يجوز معاملته (الكافر) كأنسان ذي حيثية ولا يعطى له المكان الاول في المجتمعات . ويجب تمييزه برداء ملون ومنطقة فوق ثيابه واذا دخل الكافر داراً للاستحمام بها بعض المسلمين أو خلع ثيابه بحضورهم في أي مكان آخر وجب ان يعلق في عنقه طوقاً من الحديد أو الرصاص أو أي علامة أخرى تدل على النل والعبودية . ومحظور عليه ان يكون عثرة للمسلمين في

إسماعهم تعاليمه الفاسدة أو التكلم بصوت عال عن مسيحه أو معاقرة الخنور أو
اكل لحم الخنزير . ولا يسمح للكفرة بقرع أجراس كنائسهم أو مجامعهم ولا
التباهي في حفلات طقوسهم الدينية» . وتفسير آية الجزية : « يجلس الآخذ
ويقوم الكافر ويحني ظهره ويضع الجزية في الميزان ويقبض الآخذ لحيته
ويضرب لهزمتيه» (الخطيب ج ١ وجه ٤٩٦ والكشاف ج ٢ وجه ٣٠)
ويقول الامتاذ مرجوليوث (بجامعة أكسفورد) ^(١) :-

« لا يمكننا التزام جادة الافصاح في تاريخ الهيئات المسيحية تحت الحكم
الاسلامي لانه لم تسنح الفرصة لافراد تلك الهيئات بسرد أحوالهم على نمط
يأمنون به العشار ولم يفسح المسلمون مجالاً لسردها لقلّة اكرانهم ولكننا
نجرؤ على القول بوجه عام بأن المسيحيين كانوا في نظر ساداتهم المسلمين معثرة
ومبعثاً للحقد والغیظ كما كانت النساء في نظر حكام اليونان والرومان قديماً .
ولأنهم كانوا عزلاً من السلاح كان نجاحهم يأتي دائماً من طريق الصدف .
ومع ان هذه الحالة السيئة كانت شاملة لرعايا كل حكومة مستبدة تحت حاكم
غير مسئول لكن كان الاهلون الغير المسلمين تحت رحمة الزعانف والاسياد
على حد سواء وكان المسيحيون في أوقات الملمات والشدائد أشبه بالتيوس التي
كان ينجرها بنو اسرائيل كفارة عن خطاياهم وأزمة الشدائد هذه كانت
شائعة الحلول حتى في أحسن البلاد حكماً»

وقد سددت على اساليب معاملة المسيحيين وحالتهم الاديية في
ذلك العصر سجع كثيفة ويحسن بنا ان نرخي عليها الستار أيضاً

(١) في كتابه «تطور الاسلام»

ولكننا نستشف من بعض فصول الغزالي في كتابه «أحياء علوم الدين» أحوال رائعة كما يصفها مرجوليوت في قوله :-

« كان عالماً بالمسلمين بعض الشهوات (السدومية) الخبيثة التي ينجل القلم من ذكر اسمها وهي أشبه بتلك التي ضرب بها اليونانيون قديماً وكانوا يحاولون نيل أغراضهم الشهوانية السيئة من الصبية المسيحيين . وقد روى لنا المؤرخ ياقوت رواية عن راهب شاب من اوسا (أي مدينة العرقة) راق منظره في عين احدهم اسمه سعد الناسخ وقد تضايق الرهبان من زيارات ولحظات هذا الشخص حتى اضطروا أخيراً الى قطع دابره . وأخيراً وجد قتيلاً وراء جدران الدير فقال المسلمون بأن الرهبان اغتالوا حياته واقترح الحاكم ان يعدم ويحرق ذلك الراهب الشاب الذي حلت بسببه هذه الكارثة ويجلد الرهبان زملاؤه بالسياط ولكنهم نلوا عفواً من هذه العقوبة بدفع مئة الف درهم . (أهكذا يجازون الذين يحافظون على العفة والرجولة ؟)

وكانت سوق الآداب كاسدة في القرن الحادي عشر ليس بين المسلمين فقط بل بين المسيحيين انفسهم . وقد قال احد مؤرخي الكنيسة الرومانية بان ذلك العصر كان حليدياً خلواً من كل صلاح وصلباً مملوءاً بكل شر دائم وقال

«ويظهر ان المسيح كان في سبات عميق لما غمرت الامواج السفينة والادهي انه في سبات الرب لم يكن هناك تلاميذ يوقظونه بصرخاتهم وأصوات استغاثتهم لانهم كانوا انفسهم مستغرقين في نوم عميق»

ولقد غالى منتقدو البابوية في اذاعة ردائل وسخائم الباباوات في ذلك القرن والقرن السابق ولكن الكنيسة نفسها بشهادة كتابها كانت غارقة في لج عميق من النجاسة وحب الشهوات والفجور فلما جاء اوتو الاول امبراطور المانيا الى رومية ادخل فيها الاصلاحات الادبية بقوة الحسام ولكن يقول ملتر في مؤلفه تاريخ كنيسة المسيح :

« كان من نتائج الانظمة التي وضعها اوتو ان استبدل الباباوات سخائم الفجور والدعارة برذائل الاطماع السياسية والرياء . وهكذا استعادوا تدريجاً الفطرسية والتجبر والاتفاخ، تلك الامور التي كانوا قد اضععوها من افراطهم في المفاسد والشرور، ولكن لم يحدث كل هذا الا في أواخر القرن الحادي عشر »

وكانت الجهود التبشيرية في ذلك العصر قاصرة على هنغاريا وبعض اجزاء الدانمارك وبولندا وبروسيا حتى قال آدم من برمين الذي كتب حوالي سنة ١٠٨٠ « انظر الى امة الدانيمارك المتوحشة اذ صارت منذ مدة طويلة تردد في تسبيحاتها هلولويا . انظر الى ذلك الشعب الذي كان يقطع الطريق بحراً وقد اكتفوا الآن بأثمار بلادهم . انظر الى ذلك الاقليم المخيف الذي كان موصلد الابواب بسبب عبادة الاوثان وأهله الآن يقبلون عن طيبة خاطر الكارزين بالكلمة »

وقد ظل البروسيوت من عبدة الاوثان طول ذلك العصر
ويروى ان ثمانية عشر رسلاً أرسلوا للعمل في بلادهم فذبحوا بحد
السيف وهم آخر الام الاوربية التي احنت اعناقها لنير المسيح
غير ان امجد رجال ذلك العصر الذين نبغوا في الغرب هو
الاسقف انسلموس وقد ولد تقريباً في عصر الغزالي وقضى نحبه
سنة ١١٠٩ أما حياته فكانت من أوجه كثيرة مشابهة لمعاصره فكلاهما
لاهوتي وكلاهما صوفي دائب لايجاد راحة لنفسه في اعتزال العالم
وغروره وغوايته . وكلاهما مدافع عن الايمان ومناوئ للكفر
والفلسفة وقد كان لكتاباتها وتعاليمها نفوذ فعال في العقول فالغزالي
سعى الى احياء الحياة الدينية في الاسلام بواسطة الكتاب المشهور
«احياء علوم الدين» أما انسلموس فقد سعى في احياء الحياة الدينية في
الديانة المسيحية بواسطة كتابه اللاهوتي الفلسفي المشهور «لماذا تجسد
الكلمة؟» وكلاهما دحض المزاعم الفلسفية بالسعي لتأييد الايمان
ولا مندوحة لنا عن القول في هذا الصدد ان مؤلف انسلموس
(لماذا تجسد الكلمة) يستعمل الآن بالترجمة العربية بين المرسلين للعالم
الاسلامي وقد وضعت «اعترافات» الغزالي في كتابه المنقذ من

الضلال بين ايدي القراء من الانكليز كشهادة على اخلاصه وخشوعه
الذي كاد يصل به الى المسيحية

وقد عاش انسلموس والغزالي وكتبا تحت مؤثرات عميقة عن
العالم الآتي ورهبة يوم الدينونة ومصير الاشرار وقد كانت هذه كلها
من مميزات ذلك العصر

ولسهولة فهم العصر الذي عاش فيه الغزالي علينا ان نذكر بأنه
كان من العصور النهيية وهو الذي نشطت فيه العلوم والمعارف
تحت حكم الخلفاء العباسيين في بغداد وسلاطين السلجوقيين وكان
الحكام في ذلك العصر يحزلون العطاء لنوابغ الادباء والعلماء ويشيدون
المدارس ويعضدون التربية والتهذيب على قواعد دينية وكانت الآداب
العربية غنية بوفرة الكتاب والادباء في النصف الاخير من القرن
الحادي عشر في كل فرع من فروع العلوم الاسلامية

وبين معاصري الغزالي ممن ذاع صيتهم في عالم الآداب أبو الدرداء
الشاعر (المتوفى سنة ١١١٣) وابن الخياط الذي ولد في دمشق سنة ١٠٥٨
وتوفي في بلاد فارس سنة ١١٢٥ والغازي (ولد سنة ١٠٤٩) وهو
الذي ألف المراثي والمدائح في الكلية النظامية وكان زميل الغزالي
وتوفي في خراسان، والطراباسي (ولد سنة ١٠٨٠) وهو شاب معاصر

ولكن أشهر شعراء ذلك العصر هو الحريري المعروف بمقاماته التي
 سطعت بنورها على أخلاق وآداب ذلك العهد (وما هو نورها؟)
 وبين رجال الجامعة النظامية الخطيب اللغوي الشهير الذي (ولد
 سنة ١٠٣٠) وابن العربي الذي ولد في اشبيل (بالاندلس) سنة ١٠٧٦
 وجاء بغداد للارتشاف من تعاليم الغزالي . وأشهر علماء الشافعية ممن
 عاصروا الغزالي هو الرياني وكان استاذاً في نيسابور وكتب مجلده
 الشهير عن الفقه المسمى «بحر العلوم» وقد اغتيل هذا العالم سنة ١١٠٨
 عقب القاء إحدى محاضراته بيد ائيم متعصب من شيعة الفدائيين
 السفاحين (الحشاشين) الذين كانوا وقتئذ معتصمين بقلمة الأموت في
 الجبال السورية الشمالية

ونذكر بين رفقته الغزالي في الدراسة الحراسي (١٠٥٨-١١١٠)
 وقد تلقى علومه في نيسابور على يد امام الحرمين ثم انتقل الى بغداد
 حيث قضى بقية حياته في تعليم علم الكلام في الجامعة النظامية .
 ولا ننسى أيضاً البغوي الذي كتب تفسيره عن القرآن وبعض
 المؤلفات الفقهية الاخرى (سنة ١١٢٢) والراغب الاصفهاني الذي
 توفي سنة ١١٠٨ وكتب قاموس القرآن مرتباً حسب الحروف
 لهجائية ويعرف بمفردات ألفاظ القرآن وفيه اقتباسات من الاحاديث

والشعراء . وقد كتب ايضاً رسائل عن الآداب التي كان الغزالي دائماً
يحملها معه وتفسير القرآن

ولا يفوتنا ان نذكر بين معاصري الغزالي الاولين علي بن
عثمان الجلابي الهجويري مؤلف أقدم الرسائل الفارسية عن التصوف
وقد ولد في غازني من اعمال أفغانستان وتوفي سنة ١٠٦٢ لما كان الغزالي
في الرابعة عشرة من عمره . وقد جاب الهجويري كل بقاع الدولة
الاسلامية وسبق له ان كتب في مؤلفه الشهير « كشف المحجوب »
الشيء الكثير من تعاليم الغزالي مما يدل على ان هذا الاخير كان في
تعارف مع المؤلف

ونذكر أيضاً بين مشاهير هذا العصر الميداني من نيسابور
المتوفي سنة ١١٣٤ وقد كتب مؤلفاً ضخماً عن الامثال العربية .
والزنجشري الذي ولد سنة ١٠٧٤ وكتب تفسيره الشهير عن القرآن
وابن طومارت الفيلسوف المغربي الطائر الصيت الذي حضر
محاضرات الغزالي في النظامية . والشهرستاني الذي كتب مؤلفه
المشهور (واسمه « الملل والنحل ») عن الاديان والطوائف المختلفة -
ولا يزال كتابه هذا حجة لليوم بين جميع المسلمين

وقصارى الكلام ان ذلك العصر كانت من الاعصر النهية

للعلوم والآداب الإسلامية ومن دواعي الفخر ان الغزالي - بحكم
المسيحيين والمسلمين على السواء - تفوق على كل معاصريه وبرز
عليهم في العلوم والآداب ان لم يكن في الاسلوب والفصاحة ففي
مرى مؤلفاته وصفتها وفي تفوذ حياته التي لم يدانه فيها أحد لانه كان
أكثر مؤلفي عصره اهتماماً بالكتب المسيحية وما فيها من العلوم
والآداب والروحيات التي ظهرت تأثيراتها في أقواله وأفعاله وكتابه
وها نحن الآن نسطر للقارئ الكريم ترجمة حياته وماهية فائته
والله ملجأنا وبه نستعين

الفصل الثاني

ولادته وتربيته

ولد الغزالي وتربى في خراسان من أعمال بلاد فارس وهناك أيضاً كانت أخريات أيامه وكانت بلاد فارس كما يقول هيوارت مهبط القوة العلمية وذكاء الآريين^(١) ومستودع العقول المتفتنة المبتكرة من هنود وأوربيين وفيها أُنعت قرائح أرباب الفنون والفلسفة والعلماء من عصر الدولة العباسية فصاعداً مما كان كبير الأثر في العلوم والمعارف العربية في كل رقاع الخلافة الإسلامية ومنبعاً لا كثر المؤلفات الهامة

وهذا الذكاء الآري هو الذي يعلل نفوذ الغزالي وطول باعه في الآراء الإسلامية وانتصاب هذا النفوذ في عصرنا الذي يواجه فيه الإسلام عوامل تمزق من شماله وتفتت في عضده . وفي عصر الغزالي كان النفوذ الفارسي في أشده سائداً في كل شيء وكان صرير الأقدام العربية قد صمت وانقطع وسادت الصبغة الفارسية في عوالم الشعر والفقهاء والعلوم . واعتلى المناصب الإدارية والقانونية أناس من غير

(١) كان الآريون سكان بلاد فارس الشرقية وكانت لغتهم السنسكريتية .

العرب غير ان اللغة الرسمية كانت لغة القرآن وظلت اللغة العلمية الوحيدة في كل ولايات الخلافة الاسلامية وكان كل الاجناس من فرس وسوريين ومغاربة قد أُذيت وامتزجت في هذه البوتقة العظيمة (في لغة القرآن)

كان الغزالي فارسي المولد آري الافكار والآراء سامي الدين (أي من ذرية سام ابن نوح)^(١) ولم يلبث ان صار شائعاً في الوطنية بفضل جولاته وتربيته فان اقامته في كل مراكز الاسلام العظمي قد مهدت له سبيل الاحتكاك برجال كل مدرسة وأرباب كل فكر وأتباع كل دين ونظرية فلسفية وهذا يفصح لنا عن مقدرته العلمية وسعة اطلاعه وغزارة مباحثه لان اققه (دائرة نظره) امتد من بلاد افغانستان الى الاندلس ومن كردستان الى جنوب البادية العربية . أما ما حدث في أوروبا (أي خارج «دار السلام») فبسطة الحملات الصليبية أمام الاعين

وكان علماء العالم الاسلامي على صلة مع بعضهم بواسطة المكاتبات فلدينا ما يثبت ان الغزالي وصلته مكاتيب من الاندلس ومراكش ومصر وسوريا وفلسطين. وكان السلاطين يستفتونه في

(١) سميت اللغات العربية والعبرية الخ لغات سامية نسبة الى سام

مسائل الفقه والفلسفة علم الكلام لاصدار فتواه في الاجابة عليها .
 وكل هذا أدى الى معرفة الاوطان الاخرى كما ظهر في مؤلفاته
 وقد كانت خراسان موطن الغزالي اقليماً بهيج الرواء تخرقه
 الينابيع العذبة والمروج الخضراء النضرة شمسه لامعة بهية حتى سمي
 «أرض الشمس» وهو أحد الاقسام الاربعة لمملكة الساسانيين
 القديمة وكانت قد سميت طبقاً لنقط البوصلة الاصلية وقد أطلق هذا
 الاسم بعد الفتح العربي على إقليم معين وكذا شمل كل القسم الشرقي
 من بلاد فارس وحتى اليوم قلما يمكن تعيين تخوم هذا الاقليم وتبلغ
 مساحته نحو ١٥٠٠٠٠٠ ميلاً مربعاً وعدد سكانه في الوقت الحاضر
 لا يربو على ٨٠٠٠٠٠ نسمة ولكنه كان بلا شك أكثر من ذلك
 كثيراً في عصر الغزالي

وأرض خراسان جبلية في الجهة الشمالية والجنوبية الغربية
 وكثيرة التلال في الجهة الشرقية ولكن بين سلسلة الجبال تمتد بقاع
 شاسعة من الاراضي البور القفراء واكبر هذه القفار الملحية هي
 «السهل الكبير» وهي صحراء خراسان الملحية الكبرى . وفي كل
 الاقليم لا سيما قرب طوس قامت منازل مستمرة بين السهول
 الجافة والودية الخضراء وحاولت كل منها التغلب على الاخرى

ولكن الرمال كانت قد تشربت بثربة بعض المدن والقرى وقلما تجد هناك أنهرًا اللهم الا مجاري صغيرة منقطعة تتيه في الصحراء الملحية الكبرى ثم ترسب الاملاح التي تحتها هذه النهرات في المستنقعات وتأتي عليها حرارة الشمس المحرقة فتجفها حتى يحين ثانية موسم الفيضانات في الشتاء. وتكرار هذه العملية أجيالاً متوالية تشربت البقاع التي امتدت عليها المستنقعات بالاملاح وقد أجمع السياح وعلماء المناخ على وجود دلائل اليومسة والجفاف بتلك البلاد وفيها كثير من خرائب المدن والقرى وكلها تشهد على كثرة سكانها واعتدال مناخها وتوفر اروائها في الاعصر الاخالية وليس من العدل ان تنسب انحطاط بلاد فارس الى جوائح الحروب وسوء ادارة العهد الاسلامي فقط.

وقد قال الاستاذ الزورث هنجتون في مؤلفه «بعمل مقارنة بين الاقاليم الاربعة خراسان واذريجان وكرمان وسجستان نصل الى شيء من المعرفة بخراسان قد عانت من ويلات الحروب اكثر من اي اقليم آخر في بلاد فارس ولكن قسمها الشمالي حيث تتساقط الامطار بغزارة وحيث وقعت اكثر المعارك والوقائع الحربية لا يزال الى اليوم اخصب البقاع واغناها في بلاد فارس. نعم به كثير من

الخرائب والبقايا ولكنها خلو من المعالم المؤثرة البارزة في البقاع الجنوبية . واما القسم الشمالي من هذا الاقليم وهو اكثر جفافاً من غيره فملوء بالخرائب القديمة وقد عانى الأمرين من ضروب اقفاره من سكانه . واذر ييجان الذي عانى كثيراً من الحروب اكثر الاقاليم بعد خراسان ولكنه اليوم اكثر البقاع الفارسية سكاناً وخصوبة ورفاهية ووفرة المياه النسبية في ربوعه تبعث الامل في حسن مصيره . وكذا اقليم سجستان قد عانى كثيراً من الحروب ولكنه أقل من الاقليمين السابقين غير انه قد احاطت به نوب اقفرت من اراضيه وقلت من عدد سكانه الى نسبة كبرى وجفاف تربته يجعل استفاقة من هذا الانحطاط في حكم المستحيل تقريباً . واما كرمان فلكونه واقعاً وراء صحاريه وجباله فلم يعان من الحروب الا النذر اليسير بالنسبة للاقاليم الثلاثة الاخرى ولكن مدنه المخربة ومعالم فقره في عدد سكانه تحمل على اليأس في مصيره مثل اقليم سجستان . واذا كانت الحروب وسوء الادارة هما علة انحطاط بلاد فارس أفليس عجيباً ان يكون الاقليمان اللذان عانيا الحروب وقاميا سوء الادارة اكثر رفاهية واوفر سكاناً الآن واللذان عانيا أقل منهما في الحروب

ولم يصابا بسوء الادارة يقفران في عدد السكان بدرجة مخيفة وقد لا يرجى اصلاح لهما ؟

وسطح اقليم خراسان اليوم مركب من هضاب مرتفعة وصحاري ملحية واودية مثرة وفيرة الارواء تثبت الارز والقطن والزعفران وخصوصاً البطيخ والفواكه الاخرى بكثرة ومن حاصلاتها ايضاً المن والصمغ والحلتيت التي تصدرها لبلاد الهند وكذا الفيروز ايضاً . واهم مصنوعات السيوف والفخار والسجاجيد والبضائع الصوفية والقطنية وقد حلت مدينة «مشهد» العاصمة الحالية لولاية خراسان محل المدينة القديمة «طوس» التي لا تزال خرائبها باقية الى اليوم على مسافة خمسة عشر ميلاً في الجهة الشمالية الغربية ولدينا اشارات عن مسقط رأس الغزالي يرجع تاريخها الى القرن العاشر فقد قال مسعر مهلهل (حوالي سنة ٩٤١ ب.م) «طوس عبارة عن اتحاد مكون من اربع اثنان منها كبيرة واما الاخرتان فدونهما أهمية ومساحتها تبلغ نحو ميل مربع وفيها آثار جميلة يرجع تاريخها الى العهد الاسلامي كدار حامد بن قحطبا وقبر علي بن موسى وقبر الرشيد^(١) في ضواحي

(١) المقدم الفرید لابن عبد ربہ مجلد ٣ وجہ ٤٤ سطر ٣٤ طبع المطبعة الازهرية

المدينة» وقال الأضطخريُّ (حوالي سنة ٩٥١ ب.م) عن طوس أنها ولاية (متصرفية) ملحقة بولاية نيسابور مكونة من أربع مدن كبرى غير ان اوفى تاريخ ووصف لحالة مدينة طوس الحالية هو ما كتبه الاستاذ وايم جاكسون في مؤلفه «من الاستانة الى موطن عمر الخيام» إذ قال بأن اسم هذه المدينة قديم العهد جداً ومعاصر لاسطورة المحارب «طوسا» الذي حارب طوران وان اسكندر الاكبر قد صر بها في مطاردته لبسوس قاتل داريوس وكذا امتازت مدينة طوس مع نيسابور بوجود كرسي الاسقف النسطوري المسيحي فيها ولما افتتح العرب بلاد فارس سقطت طوس في ايدي الغزاة وصارت مركزاً اسلامياً هاماً لا سيما وقد كانت موطن الشاعر الشهير الفردوسي الذي ولد حوالي سنة ٩٣٥ ب.م وتوفي سنة ١٠٢٥ ب.م

وهاك ما قاله الاستاذ جاكسون في وصف خرائب المدينة

الحالية: —

« كانت الاسوار المتهدمة يوماً ما عريضة البناء عبارة عن استحکامات عالية ولكنها قد انبسطت بمرور الاجيال عليها مع ان آثار أبراجها لا تزال مرئية حتى اليوم وشكلها الحالي يبين محيط المدينة ولا بد أنها كانت مربعة الاضلاع تبعاً لنقط البوصلة وقد مثل لنا المنظر (كما شهدناه) آثار

الخراب التي تسببها يد الانسان وقوة الطبيعة الابدية التي تقوم من كبوتها
وتفتح أكلها كالزهر نعم ان غارات جيوش المغول والزلازل قد اجتاحت
هذه المدينة العامرة وجعلت عامرها خراباً يباباً ولكن ترابها لا يزال حاوياً
لحبات الازهار والمحبوب تجدد فيها الحياة وسط الموات وبقاع واسعة من
حقول الشعير والبرسيم تنثر خضرتها ممتدة على كل جوانب المدينة وبجانبها
قفار جرداء وأراض قلاء تنبئ بتاريخ الخراب الذي ابتابها في الأعصر
الحالية « ثم يقول الاستاذ جاكسون « ويتضح لنا ايضاً ان خرائب مدينة
طوس الحالية وبابي رودبار وريضان كانت جزءاً من حي طبران وهو القسم
الهام من المدينة في عصر الفردوسي أيام كانت المدينة تشغل مساحة واسعة
ذات مراكز عديدة أهلة بالسكان كما يؤخذ من أقوال الشرقيين من علماء
تقوم البلدان في القرن العاشر أو أبان الفترة التي عاش فيها ذلك الشاعر
الطائر الصيت . وفي حي طبران هذا دفن الغزالي ولا بد ان يكون قد اتخذ
موطناً في اواخر حياته »

وقد كانت المنازعات الدينية مائة لفضاء طوس لكثرة عدد
المسيحيين فيها وكذا الشيعيين من المسلمين فان بعضاً من كتابهم
وعلمائهم المشهورين مثل ابو جعفر محمد ولد في مدينة طوس هذه وابن
أبي حاتم وهو اشهر وأول تقادة عندهم في علم الحديث توفي في طوس
سنة ٩٣٩ . غير ان هذه المدينة لم تحظ بعلو الصيت وعظيم الشهرة
رغماً عن كثرة علمائها وعلو كتبهم كما يؤخذ من هذه الرواية المأخوذة

عن ابن هبارية فقد طلب إليه أحد اعداء نظام الملك أن ينظم هجاء
في حق هذا المليك فقال «كيف اتهمك على انسان انا مدين له بكل ما
في داري؟» ولكن اذ ضغط عليه نمق في هذه السطور ما معناه:—
«لا غرابة ان يسود نظام الملك وان يحالفه الحظ فان الحظ

كولب يرفع المياه من البئر ولا تديره الا الثيران»

ولما علم الوزير بهذا الهجاء لحظ أن الشاعر انما اراد التاميح الى
اصله فقط وكان قد جاء من طوس خراسان ويقول المثل السائر
عندهم «كل رجال طوس ثيران» (وربما يقال الآن انهم حمير)

وقال ايضاً شينري: «اشتهر اهل خراسان بالبخل والتقتير
ولا عجب ان فاق سكان امهات مدنهم في بخلهم كل شعوب المعمور»
وقد روى السعدي في كتابه «جولستان—الراز» ان تاجراً من كبار
تجارهم في مرو لم يكن لبسح لابنه بأكل الجبن بل كان يأمره ان
يحك رغيفه في غطاء الزجاج الموضوع عليها

واثباتاً لبلادة الخراسانيين في الوقت الحاضر روى الماجور
سكس رواية عن ثلاثة من الفارسيين التقوا ببعضهم وأخذ كل منهم
يطنب في أقليمه فقال الكرمانى «من اثمار كرمان نوع من الفاكهة
ذو سبعة الوان» وقال الشيرازي «تنبع مياه روكناباد من الصخور»

وأما الخراساني المسكين فقال «من خراسان نبت كل الجمعي الذين هم
على شاكلي»

ومن هذه الاسباب يتضح لنا جلياً ان الغزالي مدين لعوامل
الوسط الذي نبت فيه وكذا لتوقد قريحته وفرط ذكائه وهو نفسه لم
يبتدع منهج الصوفية بل نسج على المنوال الذي خلفه اسلافه في
هذا الموضوع . ورؤوس الموضوعات في «كشف المحجوب» هي
بعينها الموجودة في كتب الغزالي عن التصوف

ويؤخذ من أقوال مرتضى أن اسم الغزالي الكامل كان «أبا
حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي» وولد في طوس سنة ٤٥٠
للهجرة (سنة ١٠٥٧ ب . م) ويروى أن آخرين قبله امتازوا بلقب
الأُسرة ثلاث مرات متكررة

وقد اختلف الكتاب في اسمه فقال بعضهم بتشديد الزاي
(الغزالي) وقال آخرون بتخفيفها (الغزالي) ويظن الاستاذ مكدونالك
ان اسمه «الغزالي» (بتشديد الزاي) وأدلى بأدلته في مقال خاص .
وهذه التهجئة تتفق مع ما جاء في قاموس ابن خلكان (سنة ١٢٨٢ ب . م)
ولكن يلوح لنا طبقاً لأقوال السمعاني وهو أشهر الثقات - ان هذا
الاسم مشتق من «غزاة» وهي قرية قريبة من طوس وليس مصطلحاً

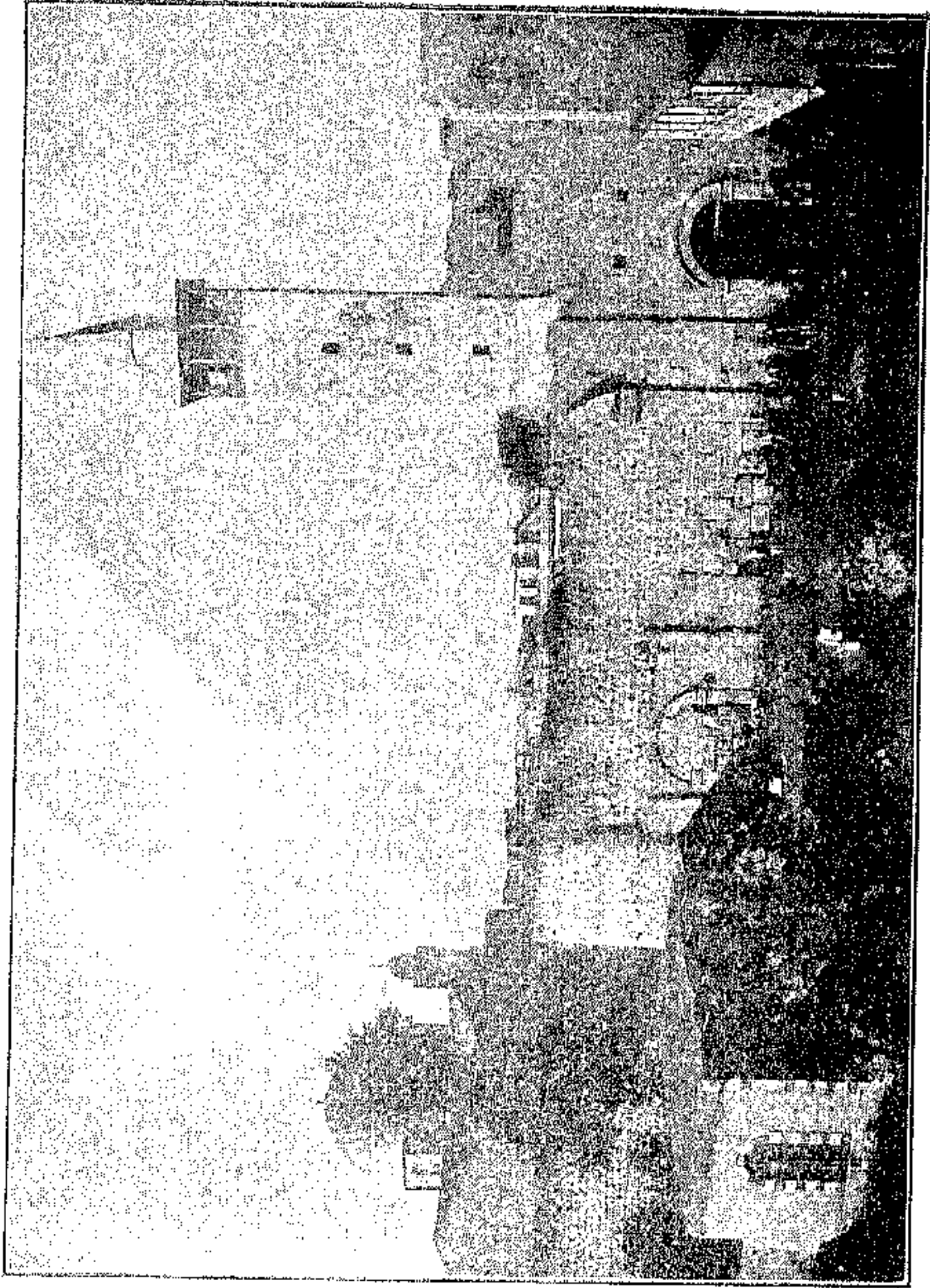
عليه بين علماء الألقاب . وأبو سعد عبد الكريم السمعاني هذا ولد بعد وفاة الغزالي بسنتين وكتب كتاباً شهيراً عن الألقاب يقع في ثمانية مجلدات وقد كان بارعاً في الأسماء والألقاب ويمكننا الأخذ برأيه في تسمية هذا الإمام الشهير الذي كان من أبناء وطنه . وعلماء الأزهر في مدينة القاهرة يأخذون بهذا الرأي ويكتبونه (الغزالي)

ويقول بعضهم إنه كان اثنان من العلماء في هذه الأسرة الواحدة أحدهما الغزالي الأكبر الذي أقيمت الأذكار عند قبره قبلاً في مدافن طوس وهو عم والد الغزالي والآخر كان ابناً لهذا ويلوح لنا أن هذه الرواية مأخوذة عن الغزالي نفسه فإنه عند موت أبيه أودع ولديه محمد واحمد الى عهدة صديق صوفي يركن اليه ليتولى تربيتهما وتثقيفهما ويخال لنا انه نفسه لم يكن متشعباً برغبات صادقة في التعليم واعتزم أن يكون لولديه قسط أوفر منه ولذلك نقد صديقه هذا القدر اللازم من المال وبرهن بعدئذ على أمانته ومثلة حرصه في تعليمهما وتربيتهما حتى فقد ما لديه من المال وبعد ذلك أوعز اليهما ان يلتحقا بمدرسة - حسب العادة الاسلامية - حيث يهيا لها الطعام والايواء اللازمين . وقد روى الغزالي هذه الرواية في أواخر حياته ثم أردف

فقال «كنا طلبة لغير الله وأما الله سبحانه فلم يرض أن نطلب إلا إياه»
(انظر ص ٩ من سفر أعمال الرسل)

وهذا الشاهد يلقي نوراً ساطعاً على العوامل التي دفعته للتبحر
في العلوم والبحث وعلى مقدار ذكائه واجتهاده ففي بادئ الأمر كان
جاداً وراء الصيت والثروة بواسطة تفوره في العلوم أكثر من
التقوى والصالح

أما عن بيت الغزالي في طوس وحياة أسرته فلم نعلم شيئاً ومما
لا شك فيه أن اللقب «أبو حامد» قد أعطي له مؤخراً وربما كان له
ولد بهذا الاسم مات في طفولته . والذي نعلمه أنه تزوج قبل بلوغه
سن العشرين وعاش له ثلاث بنات وقيل عن أخيه الأصغر الذي
توفي بعد موته بخمس عشرة سنة (١١٢٦) ودفن في قزوين هذه
الكلمات : خلف الغزالي كاستاذ في المدرسة النظامية وكان صوفياً مثل
أخيه ونشر مذهبه وآراءه بفصاحة كبرى وقلم سيال . وقيل عنه أنه
كان جميل الطلعة وقد كان ذا ولع بالمناداة العلنية والتبشير الجهرى
بما يراه حتى أهمل دروسه القضائية وقد كتب خلاصة لمؤلفات أخيه
الشهيرة ومقالاً مشهوراً عن التصوف سماه «منهاج الالباب» أعلن
فيه مزايا الفقر ودافع فيه عن ارتداء الدراويش لنوع معين من الثياب



باب توما بدمشق الشام

ومن مؤلفاته أيضاً كتاب دافع فيه عن الموسيقى سماه «بوارق الالماع» وهذا حسبه المسلمون المستحفظون سخيلاً مع ان الصوفيين كانوا يستعملون الموسيقى كباعت من بواعث حالة الهيام الشديد^(١)

وأما عن أم الغزالي فلم نعلم عنها شيئاً سوى انها عاشت بعد زوجها ورأت عيناها شهرة ولديها في بغداد وقد صحبتها الى هناك على ما يظهر . ومن الاقاويل المأثورة رواية يؤخذ منها ان ابا حامد وهو في ذروة مجده وعظيم شهرته في بغداد لم يكن أخوه احمد ليؤدي له الاحترام اللائق بل كان يأتي أعمالاً يحقر بها أخاه في أعين الشعب (راجع ترجمة الغزالي في آخر كتاب مشكاة الانوار المطبوع في مصر سنة ١٣٢٢هـ)

ولا بد ان يكون الغزالي قد بدأ في تلقي علومه وهو صغير في السن وصادف نجاحاً عظيماً في طوس حتى انتقل الى مركز علمي أكبر (جورجان) قبل بلوغه العشرين من العمر على مسافة مئة ميل وهي رحلة شاقة في ذلك الوقت

(١) ما زال أكثر الصوفيين يستعملون الآلات الموسيقية في اذكارهم كالدفوف (البنادير) والباز والكاسات النحاسية وبعض القطع الحديدية ذات الصوت الرنان كالصنج والغاب (الناي) وذلك بين القادرين والبرهاميين والسعديين والروسيين والبييين والسلميين وغيرهم

وفي ترجمة الغزالي التي كتبها هو عن نفسه نرى فكرته
الإنجيلية عن نمو الطفل في الحكمة والقامة (راجع آخر مشكاة
الانوار المتقدم ذكره)

ولا بد ان يكون الغزالي ممن تعودوا الصحو باكراً منذ حداثة
فقد كتب في مؤلفه «البداية» وجهه ه فقال :-

«فاذا استيقظت من النوم فاجتهد أن تستيقظ قبل طلوع الفجر وليكن
أول ما يجري على قلبك ولسانك ذكر الله تعالى فقل عند ذلك الحمد لله
الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة
والسلطان لله والعزة والقدرة لله رب العالمين أصبحنا على فطرة الاسلام وعلى
كلمة الاخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ملة أبينا ابراهيم
حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين اللهم انا نسألك أن تبعثنا في هذا اليوم
الى كل خير وأعوذ بك أن اجترح فيه سوءاً او أجره الى مسلم (?) اللهم بك
أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت واليك النشور نسألك خير هذا
اليوم وخير ما فيه ونعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما فيه فاذا لبست
ثيابك فاتوبه امثال اوامر الله تعالى في ستر عورتك واحذر ان يكون
قصدك من لباسك مرااة الخلق فتخسر»

وفي المؤلف نفسه وجه ١٩ و ٢٠ قد شدد على الصحو باكراً

بقوله :-

«واعلم ان الليل والنهار أربع وعشرون ساعة فلا يكون نومك بالليل

والنهار أكثر من ثمان ساعات فيكفيك ان عشت مثلاً ستين سنة أن تضيع منها عشرين سنة وهو ثلث عمرك وأعد عند النوم سواكك وطهورك واعزم على قيام الليل أو على القيام قبل الصبح وركعتان في جوف الليل كنز من كنوز البر فأكثر من كنوزك ليوم فقرك فلن تغني عنك كنوز الدنيا إذا مت» (وهذه النصيحة خلاصة من بشارة متى ص ٦)

ومن المحتمل جداً ان يكون الغزالي قد بدأ في تعلم القراءة قبل بلوغه الحول السابع من العمر لاننا نرى ان دروسه في طوس وبعثد في جورجان لم تتضمن التعليم الديني فقط بل حوت معرفة كاملة باللغتين الفارسية والعربية - وسنتكم في ما بعد عن علومه الدينية وهو نفسه قال : ان العلوم الفلسفية التي تلقنها تحوي «الرياضيات والمنطق والطبيعة والعقليات والسياسة والفلسفة الادبية» ومع انه لم يذكر في كتابه المنقذ من الضلال شيئاً عن دروسه الاولى لكن ما يقوله عن الرياضيات يلقي نوراً فياضاً على مقدار شكوكه ابان حداثته . فقد قال :-

«ثم اني ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة وعلمت يقيناً انه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على مشي ذلك العلم حتى يساوي أعلمهم في أصل العلم ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وخائلة فاذا ذلك يمكن أن يكون ما يدعيه من

فساده حقاً ولم أر أحداً من علماء الاسلام صرف همه وعنايته الى ذلك ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم حيث اشتغلوا بالرد عليهم إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد لا يظن الاغترار بها بغافل عامي فضلاً عن يدعي حقائق العلوم . فعلت ان رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمي في عمية فشمرت عن ساعد الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة باستاذ ومعلم وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التدريس والتصنيف في العلوم الشرعية وأنا ممنو بالتدريس والافادة لثلاثمائة نفر من الطلبة ببغداد فأطلعني الله سبحانه بمجرد المطالعة في هذه الاوقات المختلصة على متهمي علومهم في أقل من سنتين ثم لم أزل أواظب على التفكير فيه بعد فهمه قريباً من سنة اعاوده وأتهدد غوائله وأغواره حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس وتحقيق وتخييل اطلاقاً لم أشك فيه » (المتقد من الضلال وجه ١٠ و ٩)

ولم يتقرب في الرياضيات فقط بل في الفلك أيضاً والعلوم الاخرى وكلها مناقضة لحقائق الشرع ولا بد أن يكون الغزالي قد استشعر هذا كله بدليل قوله :

« الآفة الثانية نشأت من صديق للاسلام جاهل ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بانكار كل علم منسوب اليهم — أي الى الرياضيين — فانكر جميع علومهم وأدعى جهلهم فيها حتى انكر قولهم في الكسوف والخسوف وزعم ان ما قالوه على خلاف الشرع فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان

القاطع لم يشك في برهانه لكن اعتقد ان البرهان مبني على الجهل وانكار البرهان القاطع فازداد للفلسفة حياءً وللإسلام بغضاً . ولقد عظم على الدين جناية من ظن ان الاسلام ينصر بانكار هذه العلوم فليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والاثبات ولا في هذه العلوم تعرض للامور الدينية . وقوله صلى الله عليه وسلم : ان الشمس والقمر آياتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا الى ذكر الله والى الصلاة . ليس في هذا ما يوجب انكار علم الحساب المعروف لمسير الشمس والقمر واجتماعها أو مقابلتها على وجه مخصوص « (المتقن من الضلال وجه ١٣ و ١٤)

ولا يغرب عن بالنا بهذه المناسبة أن عمر الخيام الشاعر الفلكي هو الذي كان يقود الكثيرين الى الحاده ومروقه في ذلك العصر كما سترون

وكان على الطالب المجتهد بعد معرفته بقواعد اللغة العربية واستظهار القرآن أن يبدأ بدراسته للقرآن على أسلوب واف ولا بد أن مدرسي كتب الغزالي قد دققوا وشددوا كما شدد هو على أهمية تلاوة الكتاب المبين تلاوة صحيحة خالية من كل لحن . وقد جاء الغزالي في احدي نقثاته في «الاحياء» بهذه الملاحظات :-

« أما من ختم في الاسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة احزاب فقد حزب الصحابة رضي الله عنهم القرآن احزاباً فروي ان عثمان كان يفتح ليلة الجمعة

بالبقرة الى المائدة وليلة السبت بالانعام الى هود وليلة الاحد بيوسف الى
 مريم وليلة الاثنين بطة الى طسم موسى وفرعون وليلة الثلاثاء بالعنكبوت
 الى ص وليلة الاربعاء بتنزيل الى الرحمن ويختم ليلة الخميس . وابن مسعود
 كان يقسمه اقساماً لا على هذا الترتيب وقيل احزاب القرآن سبعة فالحزب
 الاول ثلاث سور والحزب الثاني خمس سور والحزب الثالث سبع سور
 والحزب الرابع تسع سور والحزب الخامس احدى عشر سورة والسادس
 ثلاث عشرة سورة والسابع المفصل من ق الى آخره فهكذا حزبه الصحابة
 رضي الله عنهم وكانوا يقرأونه كذلك وفيه خبر عن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم وهذا قبل ان تعمل الاحماس والاعشار والاجزاء فما سوى هذا محدث
 (وبعد ملاحظات على الكتابة والترتيل واستحباب البكاء في القراءة ومراعاة
 حق الآيات وطريقة الابتداء والجهر بالقراءة قال من بعد البند العاشر) :
 تحسين القراءة وترتيبها بترديد الصوت من غير تعطيط مفروط يغير النظم فذلك
 سنة . قال صلى الله عليه وسلم زينوا القرآن باصواتكم وقل عليه السلام ما أذن
 الله لشيء إذنه لحسن الصوت بالقرآن وقال صلى الله عليه وسلم من منا لم يتغن
 بالقرآن فليل أراد به الاستغناء وقيل أراد به الترنم وترديد الاطمان به وهو
 أقرب عند أهل اللغة . وروي أنه (ص) كان ليلة ينتظر عائشة (رضه) فأبطأت
 عليه فقال (ص) ما حبسك ؟ قالت يا رسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما
 سمعت أحسن صوتاً منه فقام (ص) حتى استمع اليه طويلاً ثم رجع فقال (ص)
 هذا سالم مولى ابي حذيفة . الحمد لله الذي جعل في أمي مثله . واستمع (ص)
 ايضاً ذات ليلة الى عبد الله ابن مسعود ومعه ابو بكر وعمر رضي الله عنهما

فوقه واطويلاً ثم قل (ص) من اراد ان يقرأ القرآن غضاً طرياً كما انزل فليقرأه
على قراءة ابن ام عبد . وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود اقرأ عليّ فقال
يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم اني أحب أن
أسمعه من غيري فكان يقرأ وعينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تفيضان .
وامتنع صلى الله عليه وسلم الى قراءة أبي موسى فقال لقد اوتي هذا مزامير آل
داود فبلغ ذلك ابا موسى فقال يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك
نخبيراً» (الاحياء ج ١ وجه ١٩٦ - وجه ١٩٩)

وانا نعتقد بان يوسف النساج استاذه الاول وكان صوفياً وصار
امام الحرمين شدد على هذه الملاحظات عينها ولا ننسى بان الغزالي
تربى في وسط تشبع بروح التصوف

وبعد درس القرآن كان يعكف الطالب على درس الحديث ثم
الفقه واما منا من محتويات المؤلفات الشرعية في هذا الباب التي كتبت
قبل عصر الغزالي والتي كتبها هو بنفسه ما يلفت انظارنا الى المواد
الهامة التي كانت غاية القوم في مدارس طوس وجورجان فكانت
الدرس الاول عن الطهارة باستعمال الوضوء والغسل والمسواك وأحوال
الجنابة التي كانت تقتضي الغسل مع الوضوء الكامل ثم أمراض
النساء ومدة الحمل . ويلى هذا الجزء الثاني من الكتاب عن الصلاة
ومواقيتها وأحوالها ومقتضياتها ومن ضمنها الاشياء الاربعة التي

تختلف فيها صلاة المرأة عن صلاة الرجل . ثم الزكاة والصوم والحج
وأحكام الشراء والبيع والدين والوراثة والوصاية . ثم الطلاق والزواج
وهو موضوع واسع النطاق وقد استوعبته كتب الفقه (الشريعة)
الإسلامية ولم تترك فيه شاردة ولا واردة إلا وأحصتها . ويلى هذا
كله أحكام الجرائم واستعمال الشدة والجهاد الديني ونحر الكفارة يوم
العيد الكبير . والفصول الثلاثة الأخيرة في كتب الفقه تعالج عادة
الأقسام والشهادة وتحرير العبيد (انظر محتويات كتاب الغزالي
المعروف «بالوجيز»)

وكان الغزالي منذ أيام شبابه من أتباع المذهب الشافعي وهو
أحد المذاهب الأربعة الرئيسية في الإسلام وقد مات هذا الإمام
الشافعي سنة ٢٠٤ للهجرة ودفن في الجنوب الشرقي من مدينة
القاهرة في الصحراء تحت سفح الجبل المقطم وانتشرت حول ضريحه
المساكن والمقابر حتى صار الحي المحيط به يعرف باسمه إلى اليوم وكان
الغزالي قد زار قبره الذي لا يزال مزاراً حتى اليوم . وقد اختار هذا
الإمام التوسط بين نصوص الأحاديث الشديدة التحفظ وبين حرية
المنطق في الشريعة الإسلامية وقال عنه مكدونالد «لا شك بأن
الشافعي كان من أكبر الشخصيات في تاريخ الفقه الإسلامي وربما لم

يكن لديه تأصل وفطنة الامام أبي حنيفة ولكن كان له عقل راجح وطبع هادئ وبصيرة ثاقبة تدرك المقدمات والنتائج مما أيده اثبات النحو الذي نحاه ولقد جاء بعده من حاولوا هدم بنيانه فلم ينالوه بشيء وثبتت الاحكام الفقهية والانظمة الشرعية التي وضعها . ويبلغ الآن أتباع المذهب الشافعي نحو ٦٠ مليوناً نصفهم تقريباً في جزائر الهند والبقية في مصر وسوريا وحضرموت والهند الجنوبية وملاشيا (أي قرب سنغافورة) . والغزالي الشافعي المذهب هو بالطبع صاحب المقام الرفيع بين أتباع هذا المذهب

ويروى عن الغزالي واقعة هامة لها علاقة بدروسه التي كان يتلقاها عن استاذه الامام أبي النصر الاسماعيلي فكان قد أخذ عن هذا الاستاذ بعض المذكرات ولكنه أهمل استظهار ما كتبه . ويظهر أن هذا كان من صفاته حسب قول مكدونالد لأن اقتباساته مهملة في أغلب الاحايين . ومن التهم التي أقامها ضده مناوئوه بعدئذ اتهامه بافساد الحديث والتحوير فيه - وهذه هي الواقعة : « أثناء رجوعه من جورجيا الى طوس سطا عليه اللصوص في الطريق وعروه من ثيابه وأخذوا منه الجراب الحاوي لمذكراته فلم يطق صبراً على ذلك وركض وراءهم وأمسك بهم غير آبه بتهديم اياه بالموت

وطلب اليهم أن يردوا له المذكرات لأن لا فائدة لهم منها - وكان عند الغزالي شيء من حب المزاح أثار فيه الآن مجرد الفكر بأن هؤلاء اللصوص سيدرسون الفقه - فسأله زعيم عصاة اللصوص عن ماهية هذه المذكرات فأجاب الغزالي بمتهى البساطة قائلاً «هي أوراق مكتوبة في هذا الجراب سافرت لكي اسمعها واكتبها فأحصل منها العلوم» فضحك الزعيم وقال «كيف تقول أنك تحصل العلوم وها نحن قد سلبتك إياها فجردناك من العلوم وأصبحت بلا معرفة؟ وأخيراً أعطها له . ويقول الغزالي بأن هذا الانسان أرسله الله إليه ليعلمه وجوب استظهار مذكراته وكان من جراء هذه الحادثة أن رجع الغزالي الى طوس وقضى ثلاث سنوات في استظهار مذكراته لكي يقي نفسه من سطوات اللصوص في المستقبل»

(ترجمة الغزالي في أول كتابه إحياء علوم الدين وجه ٢)

وبعد قليل ترك الغزالي طوس لمتابعة دروسه في نيسابور تحت أشهر اساتذة ذلك العصر في ذلك المركز العلمي الهام . (وقد كانت نيسابور على مسافة تسعة واربعين ميلاً غربي طوس واستولى عليها العرب سنة ٣١ للهجرة) . ويقول عنها ياقوت في قاموسه الجغرافي

انها اجمل المدائن التي زارها وفيها كتب الهمداني مقاماته الاربع مئة
وانتصر على منافسه العلمي

وبين مشاهير الرجال الذين لهم علاقة بهذه المدينة عمر الخيام
الشاعر الفارسي واحمد الثعالبي شارح القرآن والميداني مؤلف مجموعة
الامثال العربية المشهورة

وكان اسم المدينة قديماً (او الاقليم) ابراشهر ولها بعض الاهمية
الدينية في عصر الساسانيين وقد كان بجوارها احد هياكل النار
الثلاثة (المقدسة عندهم) وكان في نيسابور في عهد الاسلام عنصر
عربي كبير وصارت بعدئذ عاصمة خراسان ونالت قسطاً وافراً من
الرفاهية والتقدم تحت حكم امراء بيت طاهر المستقلين (٧٢٠-٨٧٣
- ب. م). ويقول عنها الاصطخري انها مدينة حصينة مربعة
وام صادراتها البضائع القطنية والحرير النخام. ولما بدأ نجم الدولة
العباسية بالافول عانت هذه المدينة الامرين من غزوات التركان الذين
اجتاحوا الاقليم كله بغزواتهم وفي سنة ١١٥٣ دمرها الغزاة على بكرة
ايها ولكنها استعادت قوتها لان موقعها - كما يقول ياقوت -
سلطها على كل متاجر القوافل مع الشرق. ثم استولى عليها المغول
بعد ذلك سنة ١٢٢١ ودمروها وبعد قرن كامل من هذا التاريخ زارها

ابن بطوطة فوجدها عامرة زاهرة بها اربع كليات وعدد عديد من
 طلبة العلم وكانت تصدر لبلاد الهند البضائع الحريرية . وقد اشتهرت
 هذه المدينة ايضاً بفواكهها وكرمها وبساتينها حتى اطلق عليها اسم
 «دمشق الصغرى» (رحلة ابن بطوطة مجلد اول وجهه ٢٩٨ سطر ١٤)
 ولدينا وصف لنيذ لا كبر اساتذة الغزالي مذ كان في نيسابور
 - وهو ابو المعالي عبد الملك الجويني امام الحرمين . وقد ولد هذا في
 بلدة بشتان كان القريبة من نيسابور في اليوم الثاني عشر من شهر
 فبراير سنة ١٠٢٧ وكان من اشهر واكبر علماء الشريعة الاسلامية
 في عصره . وعند موت أبيه ابي محمد عبد الله بن يوسف الذي كان
 استاذاً في المدينة الاخيرة خلفه وهو في العشرين من عمره فقط .
 ولكي يتم دروسه ويؤدي فريضة الحج سافر الى بغداد ومنها الى
 مكة والمدينة وهناك احترف التعليم مدة اربع سنوات ولئنك سمى
 امام الحرمين . ولما آب الى نيسابور أسس له نظام الملك مدرسة كان
 يدرّس فيها حتى عاجلته المنية في العشرين من شهر اغسطس سنة ١٠٨٥
 اثناء زيارته لقريته الاصلية وكان قد ذهب اليها للاستشفاء من داء ألم به
 وعلاوة على واجباته المدرسية كان يقوم بوظيفة الوعظ والارشاد
 فكان يعقد اجتماعات كل يوم جمعة ليلقي فيها العظات ويشرف على

المباحثات في بعض الشؤون الفقهية ولم يقتصر على هاتين الوظيفتين بل اضاف اليها اخرى هي ادارة الاوقاف ومراقبتها . وظل يباشر هذه الوظائف الثلاث نحو ثلاثين سنة لا ينازعه فيها منازع ولما مات كان الاسف عليه شديداً والبكاء عظيماً فكسر منبر الجامع الذي كان يلقي منه عظاته وحطم تلامذته البالغ عددهم ٤٠١ تلميذاً اقلامهم ومحارهم وانقطعوا عن الدراسة سنة كاملة» ومن المؤكد ان الغزالي جلس عند قدمي هذا الامتاز في نيسابور وبغداد . ولا بد ان يكون قد اشترك في الحداد عليه عند موته . ولا يزال كتاب ذلك الامام الخطي المعروف «بنهاية المطلوب» محفوظاً اثرًا ثمينًا لفضله في دار الكتب الملكية بالقاهرة

وكان الغزالي في نيسابور من أعز تلامذة هذا الامام وتلقى على يديه علوماً واسعة فتبحر في علوم التوحيد والفلسفة والمنطق وقد كان معلماً وتلميذاً في آن واحد لانه يروى عنه انه كان يقرأ للتلامذة زملائه ويعلمهم حتى ضعف جسمه وانحطت قوته من فرط التعب ولكنه لم يتنح عن دروسه بسبب اعتلال صحته وقال عنه الامام مرة هو واثنان من زملائه «الغزالي كبحر زاخر ، والقيمي كاسد مفترس» والخوافي كنار آكلة» ومرة اخرى قال عن اولئك الثلاثة «اذا احتدم

بينهم الجدل فيفوز الخوافي بقوة براهينه ، والغزالي بشدة حملاته ،
والقيمي بصراحة اقواله « وقال أحدهم ايضاً عن الغزالي في ذلك
الوقت عينه « يبدو ظاهرياً على الشاب المعروف بالغزالي العجب
والغرور ولكن هذه الدلائل تخفي تحتها ملامة العقل وقوة الاخلاق»

وقال مكدونالد عنه في هذا الدور من حياته : —

«لست على يقين فيما اذا كانت الغزالي قد اتقاد وهو في نيسابور الى
شكوكه التي تكلم عنها في «المنقذ» أم لا ولا بد ان تكون قد تملكته منه قبل
سنة ٤٨٤ هجرية وهي نتيجة تطورات كثيرة اعترت نفسه . ولكن يحتمل
ان يكون قد ظل معتصماً بالايمان القديم اثناء جلوسه تحت قدمي استاذاه امام
المرمين ذلك الصوفي الغيور»

وسنرى في الفصل التالي النزعات التي استولت على نفسه ابان
شكوكه وكيف ألقى منها مخرجاً حميداً بعد ان تأمل في حياة المسيح
كثيراً

الفصل الثالث

تعليمه - واهتداؤه - واعتزاله

تغيرت حياة الغزالي بموت امام الحرمين سنة ٤٨٧ هـ فخرج من نيسابور قاصداً معسكر نظام الملك حيث سعى جهده ليظهر على خصومه ولكي ينال اوسمة العلم . كان ذلك المعسكر محط رحال السلاطين السلجوقيين منسقا على احسن نسق مفصلاً بميادين وشوارع كأنه مدينة شادتها قوة السحر على سهول قاحلة وحوى مجموعة أنيقة لالوان الخيام والمساكن المختلفة

اما نظام الملك المشار اليه فقد كتب عن نفسه فذلك تاريخية في اللغة الفارسية نترجم منها ما يأتي :-

« لقد كان الامام موفق النيسابوري من أحكم أهل زمانه بخراسان زائد الحشمة . عالي الرتبة - كرم الله نفسه - وقد بلغ عمره الخامسة بعد الثمانين وساد الاعتقاد ان من درس عليه القرآن أو تلقن من فيه الاحاديث نال الشرف والسعادة (والفأل عند التفاؤل والشؤم عند التشاؤم)

ولهذا أرسلني أبي من طوس الى نيسابور مع عبد الصمد القاضي الشرعي حتى افوز بالدرس على يد المعلم الشريف . وكان دائماً يرعاني باللطف والمعروف وكنت أحبه وأوقره الى ان صرفت بخدمته أربع سنوات . وفي اول ذهابي

رأيت تلميذين من عمري وصلا قبيل حضوري وهما . حاكم عمر الخيام وابن صباح السبيء الحظ مؤسس قبيلة السفاحين (الحشاشين) وكلاهما كان ذا فطنة وذكا. وكنا اصدقاء . فكنا عند انتهاء الامام من الدرس نتقابل معاً ونعيد ما سمعناه وكان عمر الخيام من نيسابور أما ابو الحسن علي صباح فكان رجلاً صعب المراس لا عقيدة له وقد حدثني هذا يوماً مع الخيام قال حيث أن تلامذة الامام ينالون حظاً فان لم نثله جميعنا سيناله احدنا فماذا يكون عهدنا المتبادل ؟ أجبتنا كما تريد فقال لتعهد ان من ينال هذا الحظ يتقاسمه مع الآخري بالتساوي ولا يجعل لنفسه أفضلية فقلنا كما تريد وتعهدنا جميعنا فمرت السنون وتقلت من خراسان الى وراء نهر اكسوس والى غازني وكابول (عاصمة الافغان الآن) وعند عودتي توظفت وارتقيت الى درجة وزير في عهد السلطان ألب ارسلان»

خدم نظام الملك بعد تعلمه في نيسابور ألب ارسلان خليفة السلطاب طغرل بك وكانت اعباء مملكة السلجوقيين على كتفه ما ينوف على العشرين سنة وعند موت ألب ارسلان سنة ٤٦٥ خلفه مالك شاه ومن ذلك الوقت الى يوم ذبحه في العاشر من شهر رمضان كان نظام الملك اكبر رجل في الامبراطورية وحاكمها الحقيقي وكان محباً للعلوم واسبس مدارس في مدن مختلفة وفي سنة ٤٨٤ طار اسم الغزالي في الآفاق واشتهر في الاقطار فولاه نظام الملك تدريس



قبة الصخرة بمدينة القدس الشريف

مدرسته ببغداد التي كانت اذ ذاك عاصمة العالم الاسلامي بالشرق
وقد صور لنا الحاخام بنيامين المولود بطوليدو صورة شقيقة
لمدينة بغداد عند زيارته لها بعد موت الغزالي سنة ١١٦٠ قال : —

« يبلغ محيط مدينة بغداد ثلاثة أميال وأرضها غنية بالتخيل وبالحدائق
الفيحاء فلا تجاربها في جمالها بقعة اخرى فيها بين النهرين يؤمها التجار من
كل الاصقاع ويقطنها علماء كثيرون وسحرة قادرين وساحة قصر الخليفة
ثلاثة أميال به بستان فيه من كل فاكهة زوجان ومن كل انواع الحيوان
يجري فيها الماء من نهر (دجلة) وكما رغب الخليفة في التنزه كان المدام والطيور
والاسماك واللحوم تحت أمره وأمر مشيريه الذين كان يدعوهم لمشاركته»

ثم أشار الى ما كان يحدث داخل أسوار القصور الملوكية فقال :
« كل آل بيت الخليفة معتادون على تقبيل أبوابه وكل له قصر داخل
قصر الخليفة وكلهم مكبلون بسلاسل حديدية وعلى كل بيت ضابط يحرسه
لكيلا يثوروا ضد مليكهم . وذلك سببه أنهم هاجوا وعينوا ملكاً آخر
فلمنع حدوث مثل هذا الأمر قرر أن يسلسل كل اقرباء الخليفة غير أنهم
يسكنون كلهم داخل اسوار قصره وكلهم معتبرون ويمتلكون مدناً وقرى
يجمع وكلاؤهم أجورها فيشربون ويأكلون ويتنعمون

وقصر الخليفة يحتوي على مدن كبرى بها أعمدة من الفضة والذهب
وكنوز من الجواهر الكريمة ولا يترك الخليفة داره إلا مرة في السنة في شهر
رمضان فيؤم المدينة الوفود المحتشدة لمشاهدة محياه فيمتطي فرسه الماكي

بإلبسه السلطانية وهي مزركشة بالذهب والفضة وعلى رأسه عمامة مرصعة بأحجار ثمينة وعلى هذه العمامة حجاب أسود خفيف علامة التواضع كأنه يقول أيها الإنسان كل هذه العظمة الدنيوية ستنتقلب إلى ظلام دامس عند الموت ويتبعه عدد كبير من أشرف المسلمين كلهم بإلبس غالية ممتطين الخيل منهم أمراء بلاد العرب وماضي وفارس وحتى بلاد التبت وهي تبعد مسافة مفر ثلاثة أشهر ويتحرك هذا الموكب من القصر السلطاني إلى الجامع عند باب بصرى وهو الجامع الكبير وكل الذين في الموكب ملابسهم حريرية أرجوانية سواء من الرجال أو النساء والشوارع خاصة بجماعات الراقصين والمغنين في طريق الخليفة ويصرخون أمامه مبارك أنت ياسيدنا ومليكننا ويقبلون ثوبه ويستمر الموكب إلى صحن الجامع حيث يعلو الخليفة منبراً من خشب ويخطب لهم فيقوم علماء المسلمين ويدعون له ويمتدحون تقواه وطيبه أخلاقه فيجيب الجمع آمين عند ذلك ينطق الخليفة بالبركة ويذبح جلاً يحضر لهذا الغرض وهذه هي تقدمتهم التي توزع بين الأشراف وهؤلاء يقدمون منها لأصحابهم الذين يشغفون جداً ليدوقوا لهما مذبحاً بيد خليفة ثم يترك الجامع ويرجع منصرفاً إلى قصره على شاطئ نهر دجلة ويسير أزاءه أشرف المسلمين في قوارب حتى يعا قصره ولا يعود من الطريق التي أتى منها وشاطئ النهر عليه حراسة شديدة طول السنة حتى لا يمشی احد من فوق موضع سيره ولا يخرج الخليفة من قصره ثانية قبل مرور السنة .

هو رجل صالح محسن وشيد ابنية على الشاطئ الثاني من النهر وهذه الابنية تحتوي على بيوت كبيرة وشوارع منظمة وملاجئ للرضى الذين

يؤخذون الى هنالك للاستشفاء ويوجد هناك نحو ٦٠ عيادة طبية وكل مريض يطلب اعانة يطعم من حساب الخليفة الى يوم شفائه ويوجد بناء كبير يدعى بالمارستان يحجز فيه كل فاقدى الشعور وخصوصاً في فصل الصيف ويقيدون بسلاسل حديدية حتى يعود اليهم رشدهم فيسمح لهم بالعود الى بيوتهم « اه
وقد ذكر بديع الزمان الهمداني عن بذخ موائد بغداد فقال :
« فأفضى بنا السير الى دار :

تركت والحسن تأخذه تنقي منه وتنتخب
فانتت منه طرائفه واستزادت بعض ما تهب
قد فرش بساطها ، وبسطت أتماطها ، ومد سماطها ، و (الى) قوم قد
أخذوا الوقت بين آس مخضود ، وورد منضود ، وذن مقصود ، ونأي وعود ،
خصرنا اليهم وصاروا الينا ، ثم عكفنا على خوان ملئت حياضه ، ونورت رياضه ،
واصطفت جفانه ، واختلفت الوانه ، فمن حالك بازائه ناصع ، ومن قان تلقائه
فانع ، « (ثم قال) « كنت ببغداد عام مجاعة ، فملت الى جماعة ، قد ضمهم
سمط الثريا ، أطلب منهم شيئاً ، وفيهم فتى ذو لثغة بلسانه ، فاج أسنانه ،
فقال : ما خطبك ؟ قلت : حالان لا يصلح صاحبهما ، فقير كده الجوع ،
وغريب لا يمكنه الرجوع ، فقال الغلام : اي التمتين تقدم سدها ، قلت :
الجوع فقد بلغ مني مبلغاً ، قل : فما تقول في رغيف ، على خوان نظيف ،
وبقل قطيف ، الى خل ثقيف ، ولون لطيف ، الى خردل حريف ، وشواء
حنيف ، الى ملح خفيف ، يقدمه اليك الآن من لا يملك بوعده ، ولا يعذبك
بصبر ، ثم يملك بعد ذلك باقداح ذهبية ، من راح عنبية ، أذاك أحب اليك

أم أوساط محشوة ، وأكواب مملوة ، وانتقال معددة ، وفرش منضدة ، وأوار
مجودة ، ومطرب مجيد ، له من الغزال عين وجيد ، « (مقامات بديع الزمان
وجه ٥١ سطر ٦ - وجه ٥٢ سطر ٣ ووجه ٩٠ سطر ٣ - وجه ٩١ سطر ٥)

ومما تقدم يتضح لنا كيف تنعم الغزالي على مائة نظام الملك أو
غيره من اصحاب الثراء وان الجوع لم يدخل اسوار بغداد

أما المدرسة النظامية التي كان الغزالي من كبار مدرسيها في
قترتين من حياته فقد كانت مبنية على الشاطئ الشرقي لنهر «دجلة»
بقرب معبر المراكب وبجوار الميناء والسوق . وكان تأسيسها سنة
١٠٦٥ م وغرضها تعليم شرائع الشافعية وكانت مدرسة اخرى بقربها
ايضاً تسمى بالبهاية ومستشفى المارستان

وقد صلى السائح ابن جبير بالمدرسة النظامية في أول يوم جمعة
بعد وصوله الى بغداد سنة ٥٧١ (١١٨٥ م) ووصفها بأنها افضل من
الثلاثين مدرسة التي كانت متفرقة بشرق بغداد وذكر ايضاً
ان ربيع الاوقاف التابعة للمدرسة كانت كافية لرواتب المدرسين
وللصرف على البناء ولأعالة بعض التلامذة الفقراء

وكان سوق النظامية من اكبر أحياء ذلك القسم وقد كتب
حمد الله المؤرخ الفارسي بعد ابن بطوطة باثنتي عشرة سنة ويصفها

بانها «ام المدارس» بغداد مما يبرهن انها باقية حافظاة مركزها الى
 اواسط القرن الرابع عشر مع انها قد اصبحت أثراً بعد عين وحيث
 ان نيوبر المؤرخ لم يذكر في تاريخه عن خرائب مدينة بغداد شيئاً
 عن النظامية نستنتج انه لم يبق لها أثر من أواسط القرن الماضي وهذا
 هو المكان الذي ابتداء الغزالي فيه بالعمل فأقام على الوعظ والتدريس
 والتعليم والفتيا والتصنيف حتى ضربت به الامثال وشدت اليه الرحال
 وفي اثناء نجاحه الباهر حدث له تقهقر فجائي كأنه ابتلاه مرض فضعفت
 صحته وفقدت شهيته و اشار عليه الاطباء ان الداء ناتج عن اجهاد عقلي
 فترك بغداد في ذي القعدة سنة ٤٧٧ بعد ان استناب أخاه احمد في
 التدريس وترك كل ما يملك سوى ما يكفيه وعائلته من القوت ولم
 يحز اعتزاله الفجائي من عمله القبول لدى العلماء وحسبوه خسارة على
 الاسلام وزعم بعضهم انه هرب خوفاً من الحكومة او هرباً من
 المسؤولية غير انه اسهب عن السبب في كتابه المنقذ من الضلال الذي
 يذكر فيه اختباره الديني من صباه الى بلوغه سن الخمسين قال : -

« اعلموا احسن الله إرشادكم ، وألان للحق قيادكم ، ان اختلاف الخلق
 في الادب والمثل ثم اختلاف الامة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين
 الطرق بحر عميق غرق فيه الاكثرون ، وما نجا منه إلا الاقلون ، وكل

فريق يزعم انه الناجي و (كل حزب بما لديهم فرحون) وهو النبي وعدنا به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق حيث قل: «ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة الناجية منهم واحدة» . فقد كاد ما وعد أن يكون ولم أزل في عنقوان شباني منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن وقد أناف السن على الخمسين اقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الخدور ، واتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، واتحصن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أمرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع لا أغادر باطنياً إلا وأحب ان أطلع على بطائنه ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن اعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكاملاً إلا وأجتهد في الاطلاع على ضاية كلامه ومجادلته ، الخ ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً إلا وأرصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً متعطلاً الا واتجسس وراءه للتنبيه لأسباب جرائمه . في تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش الى ادراك حقائق الامور دأبي وديدي من أول أمري ، وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله تعالى ، وضعها في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصروصبيات اليهود لا نشوء لهم إلا على اليهود وصبيان الاسلام لا نشوء لهم إلا على الاسلام وسمعت الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال (كل مولود يولد على فطرة الاسلام

فابواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه (فتتحرك بذاتي الى طالب حقيقة الاطرة
الاصلية وحقيقة العقائد المعارضة بتقليد الوالدين والاستاذين والتمييز بين هذه
التقليدات وأوائلها تلقينات وفي تمييز الحق منها على الباطل »

ثم يظهر ما خامرهُ من الشك كما هو ظاهر في قوله : -

« فاذا اوردت تلك الحالة تيقنت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا
أصل لها أو لعل تلك الحالة ما يدعيها الصوفية انها حالتهم إذ يزعمون انهم
يشاهدون في أحوالهم التي اذا غاصوا في أنفسهم وخابوا عن حواسهم أحوالاً
لا توافق هذه المعقولات ولعل تلك الحالة هي الموت إذ قل رسول الله صلى
الله عليه وسلم (الناس نيام فاذا ماتوا اتبهاوا) فلعل الحياة الدنيا ندم بالاضافة
الى الآخرة فاذا مات ظهرت له الاشياء على خلاف ما شاهدت الآ نويقال له
عند ذلك (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) فلما خطرت لي هذه
الخواطر اتقدجت في النفس فحاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر إذ لم يمكن دفعه
إلا بالدليل ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الاولية فاذا لم تكن
مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل فاعضل هذا الداء ودام قريباً من شهرين أنا
فيها على مذهب السفطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال » (المنتقد من
الضلال وجه ٢ و٦)

ولا يدهشنا جنوح الغزالي الى مذهب السفطة فقد انشئت
مدارس الدهريين قبل ذلك بخمسين سنة ببغداد وبالبصرة وكانوا
يجمعون كل يوم جمعة وكان بعضهم عقليين وبعضهم ماديين ولم يكن

الفلاسفة فقط بين زمريتهم بل كان الشعراء في مقدمتهم ومنهم أبو
العلاء المعري المولود سنة ٩٧٣ ويقال ان هذا الشاعر الاعمى كتب
قرآناً تقليدياً لقرآن محمد ولما اعترض بعضهم ان الكتاب مع بلاغته
ليس له تأثير القرآن اجاب «ليتلى من منابر المساجد اربعة قرون (مثل
القرآن) وبعد ذلك تسرون به» (كأن التأثير في التكرار)
نعم ان اشعاره مشكوك فيها من المسامين الآن لانها تم عن
عدم الاعتقاد لا بالله ولا بمحمد وهو في ذلك يضاهي عمر الخيام
القائل :-

قل لمن يسعى وراء العاجلة ولمن يرجو نوال الآجلة
هتما بالترهات الباطلة ليس في المعدوم مأمول ولا

كأن داني الاقنى فيه انتفاع

ثم باب لم أجده مفتاحه وكتاب لا أعني اصحاحه
وقصارى المرء صوت بحه في (انا) او (انت) يهذي جدلا

و(انا) او (انت) رهن بضياع

قل لمن يهوى بميدان الجدال ان يضل العقل في لغز الاجل
حبذا لو في تلافيف الخصل ضل ككفاك بنيه اضلما

من دياجي فرع هيفاء القوام

قد صنعت اليوم عرساً عجباً لزواج يزدهيني طرباً
 مؤثراً تطليق عقلي المجدبا لاحتضان الكأس صبياً مفرماً

بعروس ريقها ييري السقام

انا مها رمت تكييف الابد والفنا حمقاً بوزن او بعد
 انعت الروح بتعريف وحد لم انل اعماق شيء غير ما

خضت من اعماق ابريق وجام

هالني ان لا اري ممن عرا منهج الموت المخوف المنكرا
 عائداً يروي لنا ما ابصرا في طريق مظلم لن يعلا

ما حواه غير رواد الحمام

غير اني لا اري الجسم سوى نزل افضى اليه فتوى
 ملك ازمع للموت نوى ثم ارداه غشوم دها

ولضيف آخر اخلى المقام

انني ارسلت روجي آنفاً في دياجي الغيب كما اكشفا
 غامضاً من عالم الخلد اختفى فانشى روجي ونبا انسا

انا فردوس صفا نار انتقام

(رباعيات عمر الخيام ترجمة الاستاذ محمد السباعي

طبع دار احياء الكتب العربية بمصر)

فكان الاسلام في القرن الحادي عشر الهجري كما كانت المسيحية
في القرن التاسع عشر الميلادي وكان قد اشتد النزاع بين العلم والدين،
فدرسة العقليين المعتزلة كان لها نفوذ كبير بينما نجد التقليديين (السنين)
ممتازين بتشبههم بفروض دياتهم اكثر من شهرتهم بتقواهم
كالفريسيين في وقت المسيح

وليس لنا الا ان نلقي نظرة على ما سطره الهمذاني في مقاماته
فندرك مقدار احترام التقليديين (السنين) لشعائر العبادة في تلك
الايام قال :-

« حدثنا عيسى بن هشام قل كنت باصفهان اعتمزم المسير الى الري ،
فخلاتها حول النبي . اتوقع القافلة كل لحظة ، وارتقب الراحلة كل صبيحة . فلما
حم ما توقعته ، نودي للصلاة نداء سمعته . وتعين فرض الاجابة ، فانسلت من
بين الصحابة . اغتم الجماعة ادركها ، وأخشي فوت القافلة اتركها . لكنني
استعنت ببركات الصلاة على وعشاء السفر فصرت الى اول الصفوف ، ومثلت
للقوف . وتقدم الامام الى المحراب ، فقرأ فاتحة الكتاب . بقراءة حمزة ، مدة
وهمة وبني الغم المقيم المقعد في فوت القافلة ، والبعد عن الراحلة . واتبع الفاتحة
الواقعة وانا أتصلي بنار الصبر واتصلب ، واتقلى على حجر الغيظ واتقلب . وليس

إلا السكوت والصبر، أو الكلام والقبر. لما عرفت من خشونة القوم في ذلك المقام، أن لو قطعت الصلاة دون السلام. فوقفت بقدم الضرورة، على تلك الصورة، إلى انتهاء السورة. وقد قنطت من القافلة، وأيست من الرحل والراحلة. ثم حتى قومه للركوع، بنوع من الخشوع، وضرب من الخضوع. لم اعوده من قبل ثم رفع رأسه ويدد، قل سمع الله لمن حمده. وقام، حتى ما شككت انه قد قام. ثم ضرب يمينه، وأكب لجبينه، ثم انكب لوجهه. ورفعت رأسي انتهز فرصة، فلم أرب بين الصفوف فرجة. فمدت إلى السجود، حتى كبر للعود، وقام للمرة الثانية، فقرأ الفاتحة والقارعة. قراءة استوفى بها عمر الساعة، واستنزف أرواح الجماعة. فلما فرغ من ركعتيه، واقبل على التشهد بلحييه، ومال إلى التحية بأخذه. وقلت قد سهل الله المخرج، وقرب النرج. قام رجل وقل من كان منكم يجب الصحابة والجماعة، فليعزني سمعه ساعة. الخ. الخ. (مقامات بديع الزمان الهمزاني وجه ٣٦ و ٣٧) فهذا كان تأثير الفروض الدينية

ولم يجد الغزالي مساعدة لازالة شكوكه من جهة هؤلاء العلماء بل لم يجدها مسلم من جهتهم إلى يومنا هذا، ويذكر الاستاذ مكدونالد السبب في قوله :-

«سلم للعلماء بمقدماتهم فيمكنهم اقامة الحجة اما اذا رفضت تلك المقدمات فانهم لا يجدون نقطة للاتفاق» ولقد وضع علمهم الاشعري لحاجة المعتزلة وقد نجحت طريقته في ذلك فقط ولم تعده. فيمكنهم

اقامة الدليل على الهراطقة والملحدين ويبرهنون على ضعفهم وتناقضهم
ولكنهم لا يستطيعون شيئاً امام السفطة . لقد سعوا جهدهم لمقارعة
الفلاسفة بحجبتهم ولكنهم فشلوا اذا اعوزهم العلم والتجأوا الى «الادلة
النقلية» وهي ملجأهم الوحيد

ومع انه درس كل أساليب تلك الايام وفندها لم يجد نوراً في
الفلسفة ، فالدين ليس للعقل فقط بل للقلب ايضاً. ان الفلسفة لا تقنع
الا المخيلة ولكنها تترك الباطن في ظلام دامس . ثم فحص اقوال
التعليميين المناقضين للاسماعيليين ولكنه صنف كتباً ضد آرائهم فبعد
ان فحص كل طريق لم يبق لديه سوى التصوف وكان ذلك عوداً منه
الى التعاليم الاولى التي تلقنها بطوس ونيسابور والى عادات واساليب
بلادها التي مكثت قروناً في التصوف . وقال الغزالي عن ذلك ما معناه .
لما اردت ان انخرط في سلك القوم واشرب من شرابهم نظرت الى
نفسي فرأيت كثرة حجبتها ولم يكن لي شيخ اذ ذاك فدخلت الخلوة
واشتغلت بالرياضة والمجاهدة اربعين يوماً فانقدح لي من العلم ما تأكد
عندي اصنى وارق مما كنت اعرفه فنظرت فيه فاذا فيه قوة فقهية
فرجعت الى الخلوة واشتغلت بالرياضة والمجاهدة اربعين يوماً فانقدح
لي علم آخر ارق واصنى مما حصل عندي اولاً فقرحت به ثم نظرت

فيه فاذا فيه قوة نظرية فرجعت الى الخلوة ثالثاً اربعين يوماً فاتقدح لي علم آخر هو ارق واصفى فنظرت فيه فاذا فيه قوة ممزوجة بين علم الظاهر وعلم الباطن ولم أُلحق بأهل العلوم الدنية فعلمت ان الكتابة على المحو ليست كالكتابة مع الصفاء الاول والطهارة الاولى ولم اتميز عن النظار الا ببعض امور (انظر خلاصة هذا في المنقذ من الضلال وجه ٣٠ سطر ١٦ - وجه ٣١ سطر ٩)

فمن يقرأ هذا ويشك في اخلاصه التام في لغته عن الله وعن الحق في الاسلام وكتب المسيحية ايضاً؟ ويتم حكايته في المنقذ بقوله :-

«اقبلت بهمتي على طريق الصوفية وعلمت ان طريقهم انما تم بعلم وعمل وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتزهد عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة فعلمت يقيناً انهم ارباب احوال لا اصحاب اقوال وان ما يمكن تحصيله بطريقة العلم فقد حصلته ولم يبق إلا ما لا سبيل اليه بالسماع والتعليم بل بالنوق والسلوك .

وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستها في والمسالك التي سلكتها التفتيش عن صنف العلوم الشرعية والعقلية ايمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر فهذه الفصول الثلاثة عن الايمان كانت رسخت في نفسي لا بدليل معين مجرد بل باسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت المصر تفاصيلها

وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف
النفس عن الهوى وإن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجاني
عن دار الغرور والانهابة إلى دار الخلود والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى وإن
ذلك لا يتم إلا بالأعراض عن الجاه والمال والهرب عن الشواغل والعلائق .
ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا متنغمس في العلائق وقد أحدثت بي من الجوانب
ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس والتعليم فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير
مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير
خالصة لوجه الله تعالى بل باعها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت
أني على شفا جرف هار واني قد اشفيت على نار إن لم اشتغل بتلافي الأحوال
فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختبار اصم المزم على الخروج من
بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً واحل العزم يوماً وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه
أخرى لا يصنولي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليه جند الشهوة
حملة فينثرها عشية فصارت شهوات الدنيا تجاذبني سلاسلها إلى المقام ومناادي
الإيمان ينادي الرحيل الرحيل فلم يبق من العمل إلا القليل وبين يديك السفر
الطويل وجميع ما أنت فيه من العمل والعلم رياء وتخييل فإن لم تستعد الآن
للآخرة فمتى تستعد وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع فبعد ذلك
تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار . ثم يعود الشيطان ويقول
هذه حالة عارضة وإياك تطاوعها فانها سريعة الزوال فإن اذعنت لها وتركت
هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالي من التكدير والتغيب والأمر
بالمسلم الصافي عن منازعة الخصوم ربما ألفت اليك تسك ولا يتيسر لك المعارفة .

فلم أزل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعماية وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار إذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس فكنت اجاهد نفسي ان ادرس يوماً واحداً تطيباً لقلوب المختلفين اليّ فكان لا ينطق لساني بكلمة ولا استطيعها البتة . ثم أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب بطل معه قوة الهضم وقرم الطعام والشراب فكان لا ينسأغ لي شربة ولا ينهضم لي لقمة وتعدى اليّ ضعف اتقوى حتى قطع الاطباء طمعهم من العلاج وقلوا هذا امر نزل بالقلب ومنه سرى الى المزاج فلا سبيل اليه بالعلاج الا بأن يتروح السر عن الهم الملم ثم لما أحسست بعجزتي وسقطت بالكفاية اختياري التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على قلبي الاعراض عن الجاه والمال والاهل والولد «

ومما يدل على ان اهتدائه ليس كما يفهم من معنى الكلمة المسيحية ما يأتي من كلامه عن تفننه في الحيل كغيره من العلماء الاعلام الخ :-

«وأظهرت عزم الخروج الى مكة وانا اوري في نفسي سفر الشام حذراً من ان يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمي في المقام بالشام فتلصقت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم ان لا اعودها ابداً واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة إذ لم يكن فيهم من يجوز ان يكون الاعراض عما كنت فيه سبباً دينياً اذ ظنوا ان ذلك هو المنصب الأعلى في الدين وكان

ذلك مبلغهم من العلم ثم ارتبك الناس في الاستنباطات وظن من بعد عن العراق ان ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة وأما من قرب من الولاة فكان يشاهد المحارم في التعلق بي والانكباب عليّ واعراضهم عنهم وعن الالتفات الى قولهم فيقولون هذا أمر ساوي وليس له سبب الا عين أصابت أهل الاسلام وزمرة العلم فقارقت بغداد وفرغت ما كان معي من المال ولم اذخر الا قدر الكفاف وقوت الاطفال ترخصاً بان مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفاً على المسلمين فلم ادر في العالم ما لا يأخذه العالم لغيباله أصلح منه ثم دخلت الشام وقتت به قريباً من سنتين لا تشغل لي الا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الاخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلت من علم الصوفية فكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار أغلق بابها على نفسي «
(المنتقد من الضلال وجه ٢٧ الى وجه ٣٠)

ليس من الغرابة ان يترك الغزالي الوسط العالي الذي كان فيه ويتجول سائحاً فقد كانت العادة في عصره ليس لرجال الدين فقط بل لغيرهم ان ينشدوا الراحة من عناء الاعمال في الاسفار والتجول اما أهل الدين فقالوا انهم يمثلون بالمسيح الذي دعي هكذا لانه كان سائحاً (راجع كتاب الدرة الفاخرة وجه ٤٣ سطر ١٣) والعالميون تسربلوا بلباس الزهد والتنسك رغبة منهم في مشاهدة البلدان المختلفة

ولسهولة المواصلات بالبريد والقوافل كان ذلك الزمن أكثر
الازمنة اسفاراً فلم يكن طالب العلم ليكتفي ما لم ير العالم الاسلامي
فالتبريزي (١٠٣٠-١١٠٠ ب.م) أحد معاصري الغزالي وكان أيضاً
مدرساً بالمدرسة النظامية كان كلما رغب في سفرة وضع كتبه في كيس
ومشى على قدميه من فارس الى الشام حتى ان العرق خرج من ظهره
وصبغ المخطوطات التي كانت عنده والتي حفظت بعدئذ في احدى
مكاتب بغداد لعرضها على الزوار . وان الشاعر الفارسي السعدي
الذي ترك يتيماً في حدائه فذهب الى بغداد ليتلقن العلم بالمدرسة
النظامية حج الى مكة عدة مرات وكان له رغبة في عمل الخير يسقي
ماء في اسواق بيت المقدس ومدن سوريا فأسره الفرنسيون والزموه
بالشغل مع اليهود في تنظيف خنادق طرابلس بسوريا الى ان اقتداه
حلي وازوجه من ابنته وهو يذكر زيارته الى كاشيجار من اعمال
تركستان والحبشة وآسيا الصغرى وساح ايضاً في الهند ماراً
بأفغانستان في طريقه . وامامنا الآن مثال عن درويش مجالي لكنه
«مُرَّاء» ما جن بمقامات الهمداني وهذا الدرويش قال: نخرجت اسيح،
كأني المسيح، (حاشا لله) فجلت خراسان، الخراب منها وال عمران،

الى كرمان وسجستان ، وجيلان ، الى طبرستان ، والى عمان ، الخ»
(مقامات بديع الزمان)

غير ان سائحاً اميناً كالغزالي لم تكن الحياة سهلة عليه فكانت
مصاعب الاسفار ومتاعب الوحدة لا تبلغ شيئاً من تذلل السائل
وعار الطريق وقد وصف الحريري كل ذلك في احدى مقاماته
فقال :-

«نهضت من مدينة السلام ، لحجة الاسلام ، فلما قضيت بعون الله التفت ،
وخلطت بين السمين والغث ، صادف موسم الخريف ، معدعان الصيف ،
فاستظهرت للضرورة ، بما بقي حر الظهيرة ، فيما انا تحت طراف ، مع رفقة
ظراف ، وقد هي وطيس الحصباء ، وأعشى المهجير عين الحرباء ، اذ هجم
علينا شيخ متسع ، يتلوه فتي مترعرع ، فسلم الشيخ تسليم أديب أريب ،
وحاور محاوره قريب لا غريب ، فأعجبنا بما نثر من سمطه ، وعجبنا من
انبساطه قبل بسطه ، وقلنا له ما أنت ؟ وكيف ولجت ، وما استأذنت ، فقال
أما أنا فعاف ، وطالب اسعاف ، وسر ضري غير خاف ، والنظر الي شنيع لي
كاف ، واما الانسياب ، الذي علق به الارتياب ، فما هو بعجاب ، اذ ما على
الكرماء من حجاب ، فسألناه أنى اهتدى الينا ، وبم استدل علينا ، فقال ان
للكرام شراً تم به تفحاته ، وترشد الى روضه فوحاته ، فاستدلت بتأرج
عرفكم ، على تبلج عرفكم ، وبشرني تضرع رندكم ، بحسن المنقلب من عندكم ،
فاستخبرناه حينئذ عن لباته ، لتكفل باعائه ، فقال ان لي مأرباً ، وثفتاي

مطلباً ، فقلنا له كلا المرامين سيقضى ، وكلا كما سوف يرضى ، ولكن
الكبر الكبير ، فقال اجل ومن دعا السبع الغبر ، ثم وثب للمقال ، كالمنشط
من العقال ، وانشد :

اني امرؤ ابداع بي	بعد الوجي والتعب
وشقتي شاسعة	يقصر عنها خبي
وما معي خردلة	مطبوعة من ذهب
فخيالي منسدة	وحيرتي تلعب بي
ان ارتحلت راجلا	خفت دواعي العطب
وان تخلفت عن الر	فقه ضاع مذهبي
فزفرتي في سعد	وعبرتي في صعب

الى ان قال :

فليت اني لم اكن	ارضعت ثدي الادب
فقد دهاني شؤمه	وعفني فيه ابي

فقلنا له اما انت فقد صرحت ابياتك بماقتك ، وعطب ناقتك ، ومنطقتك
ما يوصلك الى بلادك ، فما ماربة والدك ، الى آخر ما طلب ولده من الضمام

وهذا الذي ذكره الحريري انما هو ضرب واحد من ضروب
احتياجات السائحين الكثيرة في طلب العلم والادب فضلاً عن حاجات
السائحين المتصوفين الزاهدين المفتشين عن الحق كالغزالي - فليتهم
وصلوا الى حق الفداء الالهي

الفصل الرابع

رحلاته وأخريات أيامه وموته

ان تاريخ الغزالي مخطوط بالامور المربكة حتى لاولئك الكتاب الذين سطوروا مؤرخاتهم بعد موته بقرن واحد. فهناك بعض الغموض في تاريخ سفراته وترتيبها الزمني بل وخلاف في اسماء الاماكن التي جابها ونحن نعلم ان تاريخ اهتدائه (بعد شكوكه) هو سنة ٤٨٨ للهجرة (١٠٩٥ ب.م) حيث كان في الثامنة والثلاثين من عمره وقد نفي بعد ذلك بامد قصير وقد قيل انه عاد بعد ذلك سنة ٤٩٨ للهجرة (١١٠٤ ب.م) وقضى عامين في سوريا وفلسطين معزلاً. واما التواريخ الاخرى فليست مؤكدة واذا اخذنا باقوال اوثق المصادر خصوصاً كتابه «المنقذ من الضلال» فليس امامنا الا ان نورد هنا بقية القصة التي جئنا على بعض منها في الفصل السابق. قال الغزالي :-

«ثم دخلت الشام واقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي الا الخلوة والعزلة والرياضة والمجاهدة اشتغالياً بتزكية النفس وتهذيب الاخلاق وبتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلت من علم الصوفية فكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق اصعد منارة المسجد طول النهار واغلق بابها على نفسي ثم رحلت منها الى بيت المقدس ادخل كل يوم الصخرة واطلق بابها على نفسي.

ثم تحركت في داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة . . . فسرت الى الحجاز ثم جذبتني الهمم ودعوات الاطفال الى الوطن فعادته بعد ان كنت ابعد الخلق من الرجوع اليه وآثرت العزلة ايضاً حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعيشة تغير في وجه المراد وتشوش صفوة الخلوة وكان لا يصفو الحال الا في اوقات متفرقة لكن مع ذلك لا اقطع الطمع منها فتدفعني عنها العوائق واعدوا اليها ودمت على ذلك مقدار عشر سنين وانكشف لي في اثناء هذه الخلوات امور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي اذكره لينتفع به اني علمت يقيناً ان الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وان سيرتهم احسن السير وطريقتهم اصوب الطرق واخلاقهم ازكى الاخلاق بل لو جمعوا عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرتهم واخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا اليه سبيلاً فان جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به» (كتاب المنقذ من الضلال وجه ٣٠ و٣١)

ويؤخذ من هذه الاقوال ان حجة الى القدس والخليل والمدينة ومكة انما كان جزءاً من رحلته الكبرى وهي الطريق الاصلي لكل مسافر من بغداد الى مهد الاسلام ولذلك نرجح عدم صحة الرواية التي يقولها البعض من انه بقي عشر سنوات في دمشق واذا اخذنا باقوال

الاسناوي كانت الخلاصة كما يأتي : بدأ في رحلته الى الحجاز سنة ١٠٩٥ ب.م وعند رجوعه من الحج عرج على دمشق واقام هناك ردهاً من الزمن في مأذنة الجامع الاعظم (الاموي) واخذ بتصنيف بعض مؤلفاته التي منها «الاحياء» على ما يقولون، وبعد زيارة بيت المقدس والقاهرة والاسكندرية عاد الى وطنه في طوس

وقد قيل في أحد المصادر العربية انه لما ترك الغزالي دمشق كان يرافقه تلميذ يدعى ابو طاهر ابراهيم وكان تلميذاً للامام الاعظم في نيسابور وبعد ذلك عاد الى جرجان مسقط رأسه حيث استشهد هناك سنة ٥١٣ هجرية وقد ذكر له ايضاً اسماء تلاميذ كثيرين في دمشق ولكن الثقات يابون الموافقة على ذلك

وقد زار الغزالي في بيت المقدس المسجد الاقصى وقبة الصخرة وقد جاء في سورة الاسراء ان محمداً أُسري به من مكة الى القدس الشريف : «سبحان الذي اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا» ولكن ابنة عمه لم تصادق عليه حسب رواية كتبهم

وهنا رأى الغزالي اثناء الزيارة آثار قديمي محمد في الصخر وهو ضاعد الى السماء (كما يظنون) والامكنة التي صلى فيها ابراهيم وايليا

والحجر المستدير الذي اخترقه محمد في الصخرة وهو صاعد الى سماء
تصوراته والمكان الذي انتصب عليه واللسان الذي تكلم به وآثار
اصبع الملك جبريل الذي كان يسنده اثناء الصعود!! ويشير المسلمون
اليوم الى المكان الذي عذب فيه سليمان الجن والى مكان آخر قريب
من السور الشرقي حيث جلس سليمان على عرشه وهو ميت وحيث
ظلت الجثة رابضة هناك لتخضع الشياطين حتى اكلتها الديدان وسقط
الجسد الخ وهذا كله موجود في الحديث الاسلامي ولا بد ان يكون
قد اثار الشكوك في نفس الغزالي . وقد وصف احد الرحالة الحديثين
بعض الخرافات القصصية الاسلامية الخاصة بالاماكن التي حول هذا
المسجد بقوله :

« يقولون عن الاروقة الصغيرة في اعلى الدرجات انها الموازين التي تقام
يوم الدين . واسم «قبة السلسلة» مأخوذ من الاعتقاد بوجود سلسلة ذهبية
معلقة عند كرسي قضاء داود يمسكها الشهود وتسقط منها حلقة اذا كذبوا
في اقوالهم — وهناك مكان في السور الخارجي يقال ان منه يتدلى سلك في
يوم الدينونة يربط طرفه الآخر بجبل الزيتون ويجلس المسيح على السور ومحمد
على الجبل ويعبر هذا السلك جميع الناس ولكن لا يتخطاه الا الصالحون واما
الطالحون فيهبون الى الوادي الممتد من تحت ويوجد في المسجد الاقصى
عمودان متقاربان وفي الفراغ الواقع بينهما يرى الناظر قطعة من الحديد

المسيوك ويقولون ان هنا ايضاً معبراً آخر فكل من جاز هذا المر وعبر هذا الضيق وصل آمناً الى السماء»

ولدينا الآن وصف لبيت المقدس كتبه كاتب مسلم في اواخر القرن العاشر ووصف لآخر كتبه في منتصف القرن الحادي عشر وقد قدر هذا سكان المدينة بعشرين الف نسمة وقال ان الحجاج من المسلمين والمسيحيين واليهود كانوا يفدون اليها افواجاً للتبرك بماكنها المقدسة . والكاتبان يمتدحان نظافة المدينة وحسن موقعها الجغرافي واثقان المصارف الطبيعية فيها ومع هذا كله فان تاريخ بيت المقدس في ذلك العصر انما كان سلسلة تخریب وترميم للاماكن المقدسة للمسيحيين والمسلمين على السواء ففي سنة ١٠١٠ ب.م دمرت كنيسة القيامة المسيحية على يد السلطان المختل العقل الحاكم باصر الله وعقب ذلك سلسلة اضطهادات وقعت على الحجاج حتى قام بطرس الناسك محتجاً وبدأت من ذلك العصر الحروب الصليبية التي ترتعد لذكراها الفرائص

وليس لدينا بيان واف لتاريخ الفترة التي قضاها الغزالي في بيت المقدس وكيف قضى ايامه هناك . غير اننا نعلم انه في ذلك العصر كانت سوريا كلها فارقة في لجج الحروب الصليبية والاضطرابات

الآخري وانا نظن ان الغزالي درس الحالة هناك بغايه الاهتمام ولا بد ان يكون ذلك البطل المسلم الغيور قد هزته الحوادث القادمة التي كانت اشباحها ظاهرة في الارض المقدسة ابان زيارته لها . وانا نعلم ايضاً انه قضى تلك الفترة كتصوف وعكف الى الصلوات والاصوام ولا يخفى ان الصلوات مكانة رفيعة في حياة كل مسلم غيور . فعلاوة على الصلوات الخمس كانت هناك صلاة الليل التي يجب ان تؤدي حسب شهادة الغزالي نفسه بين منتصف الليل ومطلع الفجر حتى قيل ان المسلم الغيور الذي يؤدي فرائضه يكرر قراءة الفاتحة سبعين مرة على الاقل في اليوم وعلاوة على هذه الصلوات توجد صلوات اخرى تسمى وترأ كانت تؤدي بعد صلاة الليل (والضحى) وهي التي تؤدي قبيل الظهر وصلاة الليل التي تؤدي بين صلاة العشاء الاخيرة ومنتصف الليل وعلاوة على تأدية هذه الصلوات المذكورة آنفاً كان الغزالي يأمر اولئك الذين يرومون الوصول الى درجة الكمال بان يعكفوا على ممارسات اضافية اخرى تسمى «الورد» وقد اشار الى هذه الممارسات الصوفية في كتاب (احياء علوم الدين ج ١ وجه ٢٣٠ - وجه ٢٤٨) وعلى هذا فكل مسلم غيور يأتمر بهنه الاوامر

لا يجد وقتاً ليحصل فيه المعاش. فمن اين يعيش؟ هل يسرق ام يصوم.
الدهر ويعرى ام يعيش حالة على الغير؟؟؟

وعلاوة على هذه الممارسات المفصلة في الاحياء اضيف اربعة
أخر وهي الصوم والزكاة وعبادة المرضى وحضور الجنائز وفوق هذه
كلها نوع مخصوص من العبادة يعرف «بالذكر» وهي عبادة خاصة
بالاولياء واتباعهم من المتصوفين

وقد وصف الغزالي اسلوب ونتائج هذه الممارسة في عبارة لخصها
عنه مكدونالد بقوله :-

«يفرغ العابد قلبه ويجلس منعزلاً في احدى الزوايا محمداً واجباته
الدينية الى الحد الضروري فقط ولا يشغل نفسه بتلاوة القرآن ولا تفهم معانيه
ولا كتب الاحاديث الدينية ولا أي شيء آخر من هذا النوع ولا يتصور
في مخيلته شيئاً غير الله سبحانه وتعالى ثم يقول وهو جالس في عزلة باستمرار
«الله الله» (أو ما يرادفه من اسماء الله تعالى) مفكراً فيه طول الوقت حتى
يصل الى درجة يتقف فيها لسانه عن الكلام ويخيل اليه ان الكامة تنساب
من لسانه انسياً ثم يداوم على ذلك حتى يفقد لسانه كل حركة ويبقى قلبه
عالقاً بهذه الفكرة ثم يستمر حتى تنتزع هذه الكامة بحروفها وشكاه من قلبه
ولا تبقى الا الفكرة متصلة بقلبه اتصالاً وقد كان كل شيء معلقاً على ارادته
واختياره ولكن احكام رحمة الله لا تقف في سبيل ارادته أو اختياره فانه

الآن قد وضع نفسه امام نسمات هذه الرحمة ولم يبق عليه الا ان ينتظر ما سيعمله له الله كما فعل مع انبيائه وقديسيه واذا اتبع الخطة المشار اليها آتياً يثق تمام الثقة بان نور الحق سيضيء على قلبه ويكون في بادىء الامر غير مستديم كلمحات البرق فيروح ويحبيء ويلبث احياناً ويختفي اخرى وفي حالة استقرار ذلك النور قد يطول امده أو يقصر»

هذه هي تعاليم الغزالي عن حياة العبادة الحقيقية وانا نعتقد انه مارسها فعلاً اثناء اقامته بدمشق وبيت المقدس خلال السنوات التي عقت حياتته في المنفى ويمكن تلخيص كل ذلك انه داوم على تكرار اسماء الله الحسنى وصلى بلا انقطاع في العرف الاسلامي ولا نعلم كم متسعاً من الوقت في النهار يبق بعد ذلك لمباشرة التأليف والتعليم (والله بكل شيء عليم)؟؟؟

ويقال انه كتب رسالته القدسية اثناء وجوده في بيت المقدس ولا بد ان تاريخ زيارته لها كان بعد سنة ٤٩٢ ب م بقليل لانه في تلك السنة استولى الصليبيون على المدينة (ونحن كسيحيين لا نحبذ الحروب لان ديننا دين سلام وكل من يتسبب فيها لا يكون عمله من الله)

وقد كان من الامور الطبيعية ان يؤدي شخص كالغزالي واجب

الطاعة والاجلال امام قبر ابراهيم النبي يسميه المسلمون خليل الله
والاسلام يدعى في القرآن ملة ابراهيم ولا يخفى ان التقاليد تضع مغارة
المكفيلة في الطرف الشرقي من حبرون الحالية على حافة الوادي فيزعمون
ان المسجد القائم الآن هناك يضم بين جدرانها قبر الخليل وحبرون
هذه تبعد عن بيت المقدس سبعة عشر ميلاً الى الجنوب الغربي
وكانت مغارة المكفيلة قبل القرن الثاني عشر جاذبة لانظار الزائرين
والحجاج فقد قال بنيامين توديل: يوجد في حبرون مكان فسيح
للعيان يسمى النبي ابراهيم وكان قبلاً مجمعاً يهودياً وقد اقام الوطنيون
هناك ستة قبور يقولون عنها للاجانب انها قبور الآباء الاولين
وزوجاتهم ويتقاضون منهم اجراً نظير زيارتهم واذا اعطى احد اليهود
اجراً اضافياً الى حارس المغارة يفتح باب من الحديد يرجع عهده الى
عصر الآباء الاولين وينزل الزائر على نور شمعة ثم يعبر مغارتين
فارغتين ويرى في الثالثة ستة قبور منقوش عليها بالاحرف العبرية
اسماء الآباء الاولين الثلاثة وزوجاتهم والمغارة مملوءة بصناديق من
الخشب حاوية لعظام بشرية قد جيء بها هناك لتقدّيس المكان في
نظر الزائرين . وفي طرف مغارة المكفيلة توجد دار ابراهيم وامامها
نافورة من المياه»

ويحتوي مسجد حبرون المقام على مقبرة ابراهيم في الوقت الحاضر على منبر مربع الزوايا يبلغ طوله سبعون ياردة وعرضه خمس وثلاثون غير ان قليلاً من المسيحيين رأوا منظر تلك المقبرة لانه غير مصرح لغير المسامين بالاقتراب الى المداخل بعد الدرج السابع في السور الشرقي

وقد قال احد السياح حديثاً عن سداجة الناس في فلسطين:—

« يقولون انه يوجد في الحائط ثقب موصل للمغارة فيكتب اليهود الخطابات الى ابراهيم ويضعونها في الثقب معبرين له عن سوء معاملة المسلمين لهم ولكن الاولاد الاشقياء من اولاد المسلمين يعدون ان الثقب ليس عميقاً فيجمعون هذه الخطابات ويحرقونها قبل ان يكون ابراهيم قد رآها !! »

وحبرون هذه من اقدم مدن العالم ورويت عنها الروايات المختلفة حتى قيل عنها في عصر الغزالي انها مكان خلق آدم وموته ومقتل هايل والمكان الذي اقام فيه ابراهيم ويحتمل ان يكون الغزالي قد توجه الى مكة بعد ان زار حبرون ولا نعلم ان كانت رحلته براً او بحراً وعلى اية حال كانت محفوفة بالمخاطر في ذلك العهد ومن المحتمل ان يكون الغزالي قد سار في طريق القوافل التي هي طريق حجاج دمشق في يومنا هذا وكان من اللائق

ان يزور الغزالي مكة اولاً ثم يعرج على المدينة وهو راجع . وهو يوصي بنفسه باتباع هذه الخطة في فرائض الحج وقد كانت مكة في ايام حج الغزالي تحت حكم الشريف ابوهاشم (سنة ١٠٦٣ - ١٠٩٤ ب.م) وبعد ذلك بنصف قرن استولى الكرماتيون على المدينة بعد خصام طويل وهم اكثر الطوائف الاسلامية تعصباً فقتلوا الوفاً من الحجاج بحد السيف وحملوا الحجر الاسود الى البحرين في الخليج الفارسي وظنوا انهم بابعاد هذا الاثر المقدس يطلون الحج ولكن راش سهمهم في سنة ٩٥٠ هـ اعيد الحجر بفدية عظيمة ولكثرة المنازعات بين خلفاء بغداد ومصر وكل امر حماية الاماكن المقدسة الى آل الشريف وكان ابوهاشم هذا خادماً لذاته فاهتم بالحصول على الرشاوي اكثر من اهتمامه بالدين كما تؤيد ذلك شهادات المؤرخين من العرب في سنة ١٠٧٥ هـ باع هذا الامتياز الى الفاطميين وفي سنة ١٠٧٩ باعه الى خلفاء بغداد فاغاظ هذا العمل سلطان بغداد حتى حمله ذلك على ارسال عصابات من التركمان ضد مكة سنة ١٠٩١ هـ

ويدل تاريخ ذلك العالم على ان الحج الى هذه المدينة المقدسة كان محفوفاً بالاخطار نظراً لسطو قطاع الطرق من البدو على المسافرين

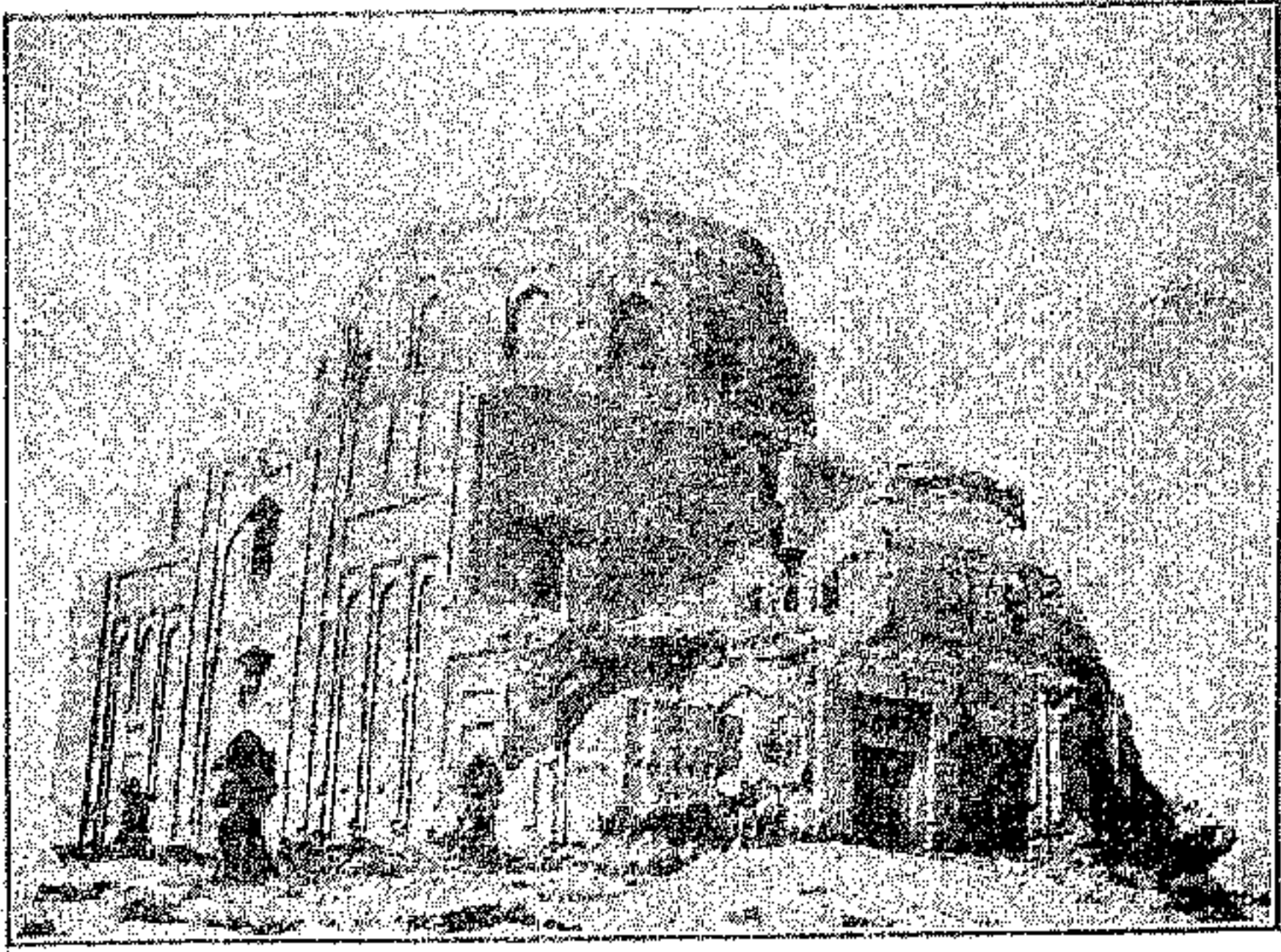
واللارتباكات الداخلية في مكة نفسها وهذه كلها كانت تدبر أحياناً
بدمائس ابو هاشم نفسه كما حدث سنة ١٩٩٤ (فويل للحجاج
المساكين من الزعماء المرتشين !!)

وقبيل زيارة الغزالي لمكة كانت مباني المدينة وبيت الله قد
اصلحت وزينت واعيد بناء المقامات الاربعة سنة ١٠٧٤ وقد كان
مقام الشافعي امام مذهب الغزالي فوق بئر زمزم وما زال البناء الذي
شيد سنة ١٠٧٢ قائماً الى اليوم وأما منبر الرخام الابيض الموجود
هناك فقد بعث به سلطان مصر سنة ٩٦٩ ب. م ولا يزال مستعملاً
الى اليوم ويحتمل جداً ان يكون الغزالي صعد هذه الدرجات عينها
وخطب الحجاج . وفي سنة ١٠٣٠ ب. م طنى ميل جارف على مكة
كاد يدمر الكعبة ولم تنته التصليحات حتى سنة ١٠٤٠

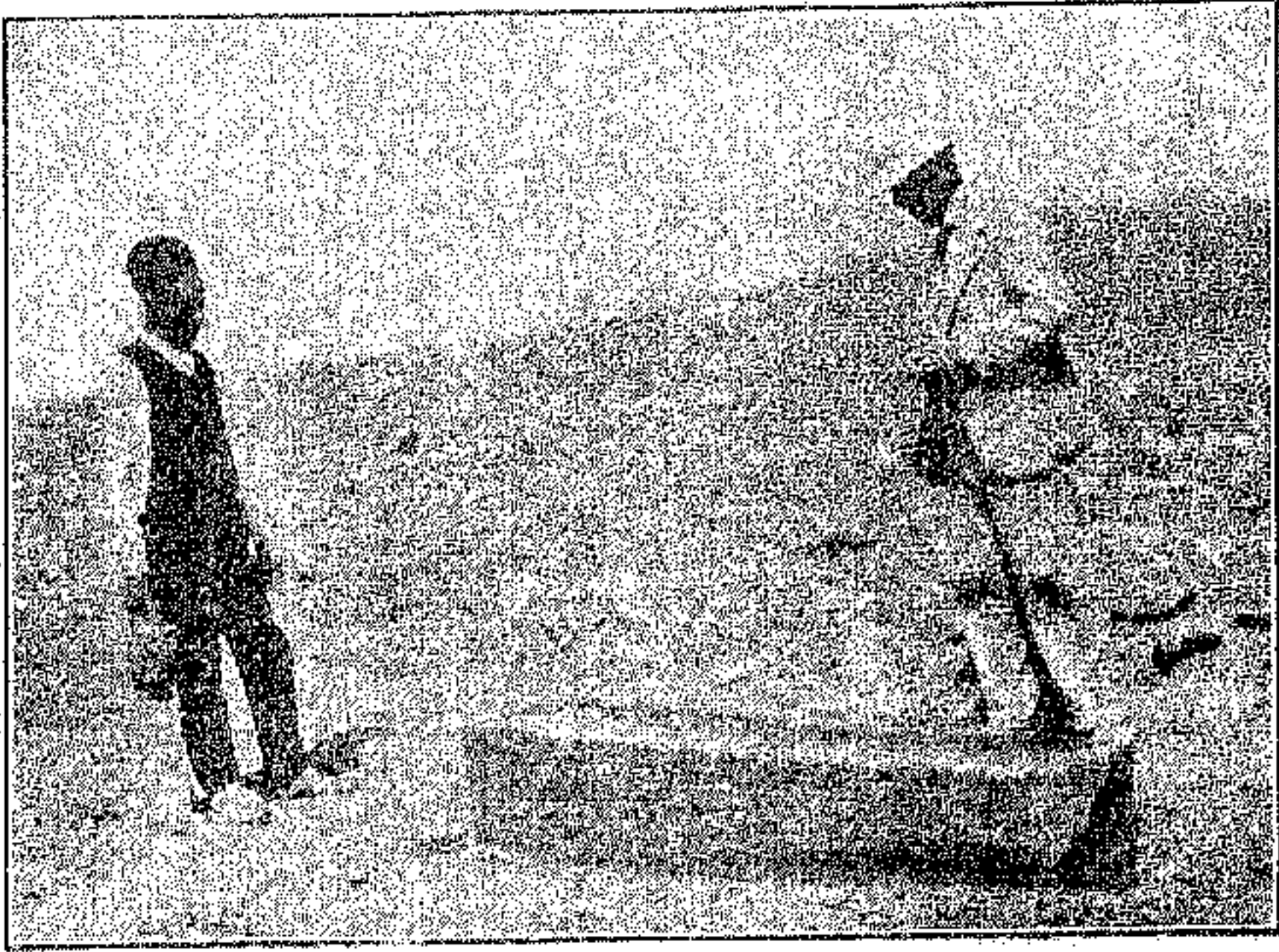
ونستطيع القول ان زيارة الغزالي لمكة والمدينة قد أخرجته
من حياة العزلة الشديدة لانه اعترم بعد ذلك على زيارة الاندلس
وسلطان العرب الأكبر يوسف بن تاشفين الذي كان يصدر الفتاوي
بالنيابة عنه ولكن أخبار موت السلطان قد ارجعته عن هذا العزم
كما يؤخذ من بعض المصادر وان قال آخرون انه استدعي ليعلم ثانية
في نيسابور

وأما تفصيلات حياته خلال السنوات العشر التي قضاها في الاسفار فتضاربة فيقول عبد الغافر وهو صديق حميم للغزالي انه زار مكة مرة ثانية ثم عاد الى سوريا وأخذ ينتقل من مسجد الى آخر مدة عشر سنوات ويخال لنا ان عبد الغافر هذا روى عن اوثق المصادر عن حياة الغزالي بعد تأليفه « المنقذ من الضلال » وكما قال عنه لا بد ان يكون قد استقاه من معلومات شخصية وهذا بعض ما قال عنه « زار الغزالي مكة ثم رجع الى سوريا وبقي هناك يجول من مكان الى آخر مدة عشر سنوات وفي خلال هذه المدة صنف بعض مؤلفاته منها الاحياء والكتب المختصرة منه مثل الاربعين والرسائل وعلاوة على ذلك كان يجاهد لنموه الروحي بواسطة الممارسات الصوفية الدينية . ثم عاد بعد ذلك الى وطنه وقضى هناك زمناً في حياة العزلة منصرفاً الى التأملات ولكنه اصبح رويداً رويداً معلماً ومرشداً في الحياة الروحية . وبفضل مؤثرات وزير سنجار بن ملك شاه ارتضى الغزالي ان يعاود التعليم في المدرسة النظامية الميمونة في نيسابور »

ولدينا اشارة الى زيارة الغزالي لمدينة القاهرة مركز العلوم والفنون الاسلامية في الغرب كما كانت بغداد في الشرق . ومن الغريب اننا لا نجد أية اشارة في كل مصنفاته الى هذه الزيارة ومن المحتمل ان علماء الازهر في ذلك الوقت لم يحسنوا لقاءه مع شهرة صيته في كل العالم الاسلامي ومع وجود تلامذة له في بغداد ونيسابور



جامع طوس انخرّب ولعله بني في القرن الرابع للهجرة



قبر الغزالي المزعوم

ممن كانوا أصلاً من مصر وشمال أفريقيا (ظناً منهم انه لا علم الا في
الازهر ولا عالم الا من الازهر وان كل من تعلم في غير الازهر
لا يكون عالماً حقاً) وقد كانت القاهرة في وقت زيارة الغزالي لها
مركز المدينة العربية وكانت مزدانة بكل امجاد الدولة الفاطمية في
وسطها كانت قصور الخلفاء الانيقة بابوابها الثلاثة العظيمة وهي باب
الفتوح وباب النصر وباب زويلة المؤدية الى المدينة والتي تستدعي
اعجاب الناظرين الى يومنا هذا . وفي سنة ١٠٨٨ أعيد بناء اسوار
المدينة وهذه الابواب الثلاثة العظيمة وكان في أعلى كل باب من هذه
الابواب رواقان يستعمهما سلاطين مصر واشياعهم لرؤية المناظر
المختلفة وخصوصاً ذهاب واياب الكسوة الشريفة

واما حياة المدينة العقلية والدينية فكانت محصورة في الجامع
الازهر الذي انشئ سنة ١٠١٢ ب . م ولم تكن مدينة القاهرة عاصمة
القطر التجارية كما هي اليوم ولكنها كانت قاعدة لمجلس عال ومركزاً
للحركات الحربية وللعلوم العربية

وأما الاسكندرية التي عاش فيها الغزالي ردهاً من الزمن قبل
رجوعه الى سوريا فلم يكن لها شأن يذكر من الوجهة العلمية ولم

تكن الاميناء تجارياً يمر منها الناس الى مصر (القاهرة) أو يركبون
منها البحر الى سوريا

ولكن لمدينة الاسكندرية شأن رفيع في الأخبار الاسلامية
فيقول عنها المسلمون انها مستودع قبر النبي دانيال وقبر الاسكندر
الاكبر الذي ذكرت روايته في القرآن . وهي تضم ايضاً رفات
ولين من اولياء الله وهما محمد ابوصيري مؤلف القصيدة الشعرية
المعروفة باسم «البردة» والمرسي ابو العباس الاندلسي . وهناك ايضاً
حديث آخر مغزاه انه بعد سقوط مكة في ايدي الكفار تخلفها
الاسكندرية في كراماتها (ولكن لم يقولوا لنا هل يحج الناس اليها
عندئذ أم لا)

سافر الغزالي من اسكندرية الى دمشق ثم الى نيسابور ومنها
الى بغداد أو ربما من دمشق مباشرة الى بغداد حيث أخذ هناك يعلم
علوم كتابه «الاحياء» . ويقول السبكي ان الناس كانوا يلتفون حوله
لسمعه وكانوا يكتبون خطبه ثم يقرأونها عليه قبل نشرها
أما عن اختباراته الروحية في رحلاته وفي السنوات التي تلتها
فستكلم عنها في ما يلي

والذي نعلمه انه بعد ان انتقل من بغداد عاد الى طوس مسقط

رأسه وهناك انصرف الى الدرس والتأمل ومن الغريب انه في هذه الرحلة من حياته شغف شغفاً شديداً بدرس الاحاديث وخصوصاً بمجموعتي البخاري ومسلم وقد اجمع الكتاب على هذا الامر وكان في الوقت نفسه موكلاً الى عهده مدرسة «اوخانك» وهي أشبه بدير يؤمه المتصوفون وقد قضى كل لحظة من لحظات حياته في الدرس والتنقيب حتى وافته المنية في الخامسة والخمسين من عمره حسب التقويم القمري

ولا شك ان الصعاب والمتاعب التي لاقاها في رحلته قد انهكت قواه فان شخصاً مثل الغزالي تبوأ مقام الزعامة في الامور الدينية كان عليه ان يبذل جهداً في مجادلة خصمائه ومقاومة حاسديه وواحد نعيمهم كما يقول عبد الغافر وربما كان هذا الامر كما يزعم مكدونالك سبباً في انتقاله من نيسابور وقد أشار أحد اصدقائه الى المقاومات التي صادفها بقوله :-

«صادف الغزالي كثيراً من المقاومات والهجمات والنائم ولكنها لم تؤثر عليه ولم يربأ بالرد على مناوئيه . وقد زرته مراراً كثيرة فاذا به قد تغير من حالة الحقد القديمة واحتقاره لجميع الناس واصبح خلواً من هذه الوصمات فخلته في بادئ الامر يتصنع ما ليس فيه ولكني لم ألبث ان ادركت تماماً ان

الرجل قد تغير عن حالته الاولى . ولما انا فاقول لكم . أحبوا اعداءكم .
باركوا لاعنيكم . احسنوا الى مبغضكم وصلوا لاجل الذين يسيئون اليكم
ويطردونكم، (متى ٥: ٤٤) فالغزالي تأثر من موعظة المسيح على الجبل

توفي الغزالي في يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الثاني سنة ٥٠٥ هـ .

هجرية (الموافق ١٨ ديسمبر سنة ١١١١) وقد ذكر أخوه احمد هذا

التفصيل عن وفاته في كتاب (الثبات عند المات)

غير ان كاتب سيرته لم يرق في نظرهم هذا الاقتضاب . ومن
أغرب الروايات التي ذكرت عن موت الغزالي ما جاء عن أخيه

الاصغر في كتب الصوفيين الفارسية

وانا لمدينون للقس دونالدسن المرسل في بلاد العجم على صور

خرائب طوس وقبر الغزالي . وأما المسجد فقديم العهد جداً وربما

يرجع تاريخه الى عصر الغزالي ويحتمل ان يكون القبر المبين في

الصورة ليس قبر الغزالي الصوفي بل قبر غزالي آخر مشهور لانه

جاء في السبكي (المجلد الثالث صفحة ٣٦) انه كان انسان آخر اسمه

احمد بن محمد ابو حامد الغزالي الاكبر والاقدم وان الناس كانوا

يرتابون في وجوده ولكن بعد البحث والتحري وجد اسمه وارداً

في مؤلفات كثيرة منها كتاب الانساب لابن السمعاني ويقول ايضاً .

إن هذا الانسان عاش ايضاً في خراسان واشتهر بعلمه ومؤلفاته في الامور الدينية ودفن في طوس حيث كان قبره معروفاً ولهذا السبب اطلق عليه الناس اسم الغزالي الاكبر وكانوا يزورون قبره للتبرك ويطلبون استجابة دعواتهم منه وهو يظن ايضاً ان هذا الغزالي هو إما عم أو جده الغزالي صاحب هذه الترجمة . ومن كلام السبكي هذا نستدل ان اسم «الغزالي» لم يطلق عليه لان أباه كان ينزل الصوف بل هو لقب عائلة قديمة عريقة في هذا اللقب

ومن المعلومات التي رواها القس دونالدسن ما يأتي :

«لا تزال اسوار مدينة طوس القديمة باقية حتى اليوم وطولها نحو فرسخ وهناك بقايا الطوابي وبقايا ابوابها القديمة في تسعة أماكن وكان عرض حائط السور نحو خمس ياردات . ولا يزال قبر الغزالي باقياً حتى اليوم في المقبرة الكبرى الواقعة في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة ومع ان الجزء الاكبر منها قد تحول الآن الى اراض زراعية غير ان الجزء المرتفع فيها باقٍ مقبرة حتى اليوم . ويظهر من صورة قبر الغزالي ان حجراً كبيراً خلع من القبر يبلغ طوله نحو ياردتين وعرضه ثلث ياردة وعلوه ثلث ياردة وقد حاول بعضهم ايضاً قطع الجزء المكتوب عليه اسم احمد الغزالي والقطع ظاهرة آثاره في الصورة . اما المسجد القديم فلا تزال اطلاله باقية في الطريق الذي يمتد في

المدينة من الجهة الجنوبية . وعلوه نحو ١٨ ياردة وفي داخله مربع علوه خمس ياردات ثم مشن علوه ٨ ياردات (انظر الرسم)

ويوجد تجاه الباب الجنوبي الغربي قنطرة قديمة لا تزال تستعملها القوافل القادمة من مشهد الى طوس وهذه القنطرة ثمانية أقواس عرض كل منها اربع ياردات ونصف واسم المجرى القائمة عليه «كشف رود»

واما قلعة المدينة نفسها فمحاطة بخندق وسور داخله فناء واسع ويستطيع المرء الآن ان يسير حول السور ويقترب نحو القلعة من مؤخرتها . ويزرع القوم الآن في فناء القلعة أحسن انواع البطيخ الذي تأكله بلاد فارس . وقد وجدنا داخل السور بين اكوام الطوب بعض اواني الفخار الأثرية الجميلة «

وقد كتب لنا القس دونالدسن رقيماً مؤرخاً في ١٧ يناير سنة ١٩١٧ من مدينة مشهد جاء فيه : «زرت في هذا الاسبوع مدينة طوس مرة اخرى واخذت ابحث قبر الغزالي وقد تبين لي كما كتبت لكم سابقاً ان الحجر قد انبرى وقطع منه جزء . واستطيع ان اجزم لك الآن بان القبر الذي ارسلت لك رسماً هو قبر ابو حامد بن محمد بن محمد الغزالي لاننا نقرأ في احدى زوايا الحجر التي حاول بعضهم قطعها قديماً هذه الكلمات : «غزالي» و «بوحا» وكل من يبحث هذا الحجر يكاد يقول ان الاسم غير مقروء إلا حرف «الالف» لان الحجر قد انبرى تماماً . والكلمة التي قرأها مرشدي الذي رافقني أولاً «احمد» ليست صريحة ولا يمكننا الجزم بصحتها «

وقد رأيت أن كلمة الغزالي المكتوبة على الحجر مكتوبة بالتشديد ولكن
العلامة ليست شدة في الحقيقة لأنها مرسومة هكذا v بدلاً من (W) «

وهذا البحث يؤيد لنا أمرين أولهما أن ذلك القبر المهمل المقطوع حجره
في طوس هو قبر الغزالي الصوفي بعينه وثانياً أن اسمه مشدد غير أننا من
قبيل الاحترام لآراء الثقات من المسلمين وما جرى عليه العرف كتبناه في
هذه الترجمة «الغزالي» فقط

الفصل الخامس

مؤلفاته

يعرف الشيء الكثير عن الغزالي من مؤلفاته أكثر مما يعرف عنه مما كتبه عنه غيره. فإن الحقائق القليلة التي ذكرها المؤرخون عن حياة الغزالي لم تكن مبنية على أساس ثابت بل تنازع فيها الكتابون والباحثون حتى ان اسمه لم يخل من المنازعة كما مر بنا لاختلاف الرواة في تهجئة الاسم. ولكن الامام نفسه قد ترك بعده خزائن هائلة مملوءة من مؤلفاته الجليلة حتى ان كثيراً منها لم يزل محفوظاً بخط يده الى الآن ولم ينشر بين الجمهور مطلقاً. ولقد ذكر المؤرخون الاسلاميون تسعة وتسعين مؤلفاً للغزالي. و ذكر «رد كلان» في فهرسته عن كتاب تاريخ آداب العربية تسعة وستين مؤلفاً موجودة كلها للآن تشتمل على علم التوحيد والعلوم الاخرية والفلسفة ومحاضرات علماء الصوفية والآداب والنشريع (الفقه) الاسلامي. وقد وضع كثيرون اسم الامام الغزالي فوق همامات كتاب الاسلام اجمعين كما قال اسماعيل بن محمد الحضرمي

ولدينا آيات يينات تنطق بسمو مقام الغزالي بين جميع المؤلفين

المسلمين حتى في أيام حياته، وهذه الآيات نراها واضحة في إحدى متروكاته الثمينة المذكورة في الرسم، ويوجد في دار الآثار العربية بالقاهرة مقلمة للغزالي مصنوعة من نحاس وعليها غشاء من فضة أهداها الموسيو كاتيكاس لدار الآثار وعليها نقوش كتابية دالة على أنها مقلمة الغزالي التي كان يستعملها في تأليف مؤلفاته في حياته ومما هو جدير بالذكر أن هذه المقلمة أقدم تحفة من نوعها في دار الآثار كما أنها هي الرمز الوحيد الدال على ما كانت عليه كتابات الخطوط المنسوخة في زمن صاحب الترجمة - وقد قيل أيضاً أن هذه المقلمة صنعت وقدمت هدية إلى مكتبة الإمام الغزالي بعد وفاته إلا أن هذا القول مردود وغير معقول لمخالفته للعادة في ذلك العهد ولأن كلمة «المرحوم» ليست موجودة في النقش على المقلمة وهذا برهان على أن أهداء المقلمة لمكتبته بعد وفاته لا نصيب له من الصحة بالمرّة. فإن قال معترض أنه ليس من المعقول أهداء مقلمة نحاسية مفضضة إلى فيلسوف صوفي عاش عيشة التقشف والورع والزهد قلنا ردّاً عليه أن هذه المقلمة لم تصنع بناء على طلب الإمام الغزالي نفسه بل صنعت بطلب ومعرفة تلاميذه رغبة منهم في إرضائه وإكرامه لعنايته بهم فقبل التكريم، الذي لا ياباه إلا اللثيم، ولا يدهشنا عدم التلق

في الكتابة المنقوشة على المقلمة لان الغزالي نفسه كان يكتب مثلها بلا تعلق ولا يحمل كما هو ظاهر في مؤلفات اخرى ظهرت في ذلك العهد. وقد اوردنا جدولاً كاملاً تقريباً في ملحق خاص فيه مؤلفات الامام الغزالي وما ترجم منها الى اللغات الاخرى وخصوصاً الى اللغة العبرانية واللغة اللاتينية واللغة الفرنسية واللغة الالمانية واللغة الانكليزية. وقبل البدء في التكلم عن اهم ما كتبه الغزالي سنذكر في ما يلي خلاصة من جدول مؤلفاته يلذ سماعها وقراءتها وهي من مؤلفاته كتاب «جواهر القرآن» وهو يحتوي على ملاحظات على بعض آيات من القرآن لها قيمة خاصة واهمية خاصة. وكتاب «العقيدة» وهو عبارة عن نصوص العقيدة الاسلامية وقد نشره بوكوك في مؤلفه "The Specimen" وكتاب «الدرة الفاخرة» وهو يبحث في الدينونة الاخيرة ونهاية العالم ويوم الموقف العظيم وقد ترجمه ونشره المسيو «لام جوينيه» واما آراؤه الصوفية وكتابه فيها فقد استدل عليها من العلوم الدينية والادبية كما هو ظاهر من كتابه «احياء علوم الدين» الذي جمع فأوعى. وكتابه «ميزان الاعمال» قد ترجمه الى اللغة العبرانية «ابراهيم بن حسداي البرسلوني» ونشره «جولدثال». واما كتابه المسمى «كيمياء السعادة» فهو من المؤلفات.

المحبوبة التي اساسها الصوفية وكتب اولاً باللغة الفارسية وترجمه
H. A. Homes في سنة ١٨٧٣ الى الانكليزية مرتين ثم ترجمه اخيراً
المستر «كلود فيلد»

ومن مؤلفاته كتاب «ايها الولد» وهو عبارة عن بحث ادبي
نجم وقد ترجم الى اللغة الالمانية ونشره المستر «هامر بورخستال»
ومن مؤلفاته عن مبادئ التشريع كتاب «مذهب الشافعية» الذي
نال اعلى مكانة في كل العالم الاسلامي

واما كتبه «البيسط» و «الوسيط» و «الوجيز» فما هي الا
مختصرات لكتابه الخاص بالفقه على المذهب الشافعي . وله في علم
الفلسفة كتاب «تهافت الفلاسفة» وهو طعن في اولئك الذين يتبعون
الفلسفة اليونانية وقد نشره المسيو «دي بوز» - واما كتابه «مقاصد
الفلاسفة» فهو عبارة عن مقدمة لكتاب تهافت الفلاسفة وقد نشره
الموسيو «جيري» ويوجد له ترجمة لاتينية وضعها «جنديسالفي»
طبعت في فينيقية سنة ١٥٠٦ - ومن مؤلفاته ايضاً كتاب «المنقذ
من الضلال» وقد كتبه الامام الغزالي بعد ابتداء حياته كاستاذ في
نيسابور للمرة الثانية وهذا الكتاب عبارة عن شرح فلسفته او «خطته»
وقد ترجمه ونشره «شمولدرس» في كتابه المسمى «نبذة عن اصحاب

الفلسفة بين العرب» وقد وضعت له ترجمة ثانية ادخل فيها تحسين عظيم وقد نشرها المسيو «باريه دي مينار» في الجورنال الاسيوي عن سنة ١٨٧٧ وقد ظهرت حديثاً في عالم المطبوعات الانكليزية في كتاب عنوانه «اعترافات الغزالي» وهو من اقصر ما كتبه الغزالي مبنى الا انه من اشهر مؤلفاته ويمكن وضعه في صف كتاب «الاعترافات» الذي ألفه القديس «اوغسطينوس» او كتاب «النعمة المحيطة با كبر الخاطئين» الذي ألفه القديس يوحنا بنيان» — وللغزالي عدة مؤلفات بشكل رسائل او نبذ قصيرة فمن اقصر ما كتبه مؤلفه المسمى «الادب في الدين» وهو بحث قصير عن مبادئ التأديب والتأديب وكان قد وضعه خصيصاً لتلاميذه وهو يبحث عن ماهية النوابع من التلاميذ والاساتذة وآداب الأكل والشرب والزواج والحياة الدينية . وله مؤلف قصير ذكر قبلاً وهو رسالة «ايها الولد» يبحث في تعريف العقيدة والعمل (الايان والاعمال) ويبين الفرق بينها . وفي مقدمة هذا الكتاب شطر من الغرابة يمكن استدل منه على رقة الغزالي وترقيه في قوله او على الاقل يجعل القارئ يتساءل عما اذا كان الغزالي يشير في ذلك الشطر الى احدى رسائل الانجيل

المقدس، وإذا كان الأمر كذلك فما هي هذه الرسالة يا ترى؟^(١) قال
الغزالي في ذلك الشرط: —

«والإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان، وعمل بالاركان، ودليل
الأعمال أكثر من أن يحصى وإن كان العبد يبلغ الجنة بفضل الله وكرمه
لكن بعد أن يستعد بطاعته وعبادته لأن رحمة الله قريبة من المحسنين . ولو
قيل أيضاً يبلغ بمجرد الإيمان. قلنا نعم ولكن متى يبلغ؟ وكيف من عقبه كثرة
ينتقلها إلى أن يصل؟ أول تلك العقبات عقبه الإيمان وأنه هل يسلم من سلب
الإيمان أم لا وإذا وصل يكون خائباً مفلساً . وقال الحسن البصري يقول الله
تعالى لعباده يوم القيامة ادخلوا يا عبادي الجنة برحمتي واقتسموها بينكم»
(إيها الولد وجه ٦)

وفي مؤلفه كتاب «كيمياء السعادة» يوجد فصل بديع عنوانه

(١) هي رسالة يعقوب ٢: ١٤٠ — ٢٦ «ما المنفعة يا اخوتي ان قال احد ان له ايماناً
ولكن ليس له أعمال . هل يقدر الإيمان ان يخلصه . ان كان أخ وأخت عريانين
ومتازين للقوت اليومي . فقال لهما أحدكم امضيا بسلام استدفئا واشبعا ولكن لم تعطوهما
حطبات الجسد فما المنفعة . هكذا الإيمان أيضاً ان لم يكن له أعمال ميت في ذاته . لكن
يقول قائل أنت لك إيمان وأنا لي أعمال . أرني إيمانك بدون أعمالك وأنا أريك بأعمالي
إيماني . أنت تؤمن ان الله واحد . حسناً تفعل . والشياطين يؤمنون ويقشعرون . ولكن
هل تريد ان تعلم أيها الانسان الباطل ان الإيمان بدون أعمال ميت . ألم يبرر ابراهيم ابونا
بالأعمال اذ قدم اسحق ابنه على المذبح . فنرى ان الإيمان عمل مع أعماله وبالأعمال اكمل
الإيمان . وتم الكتاب القائل فآمن ابراهيم بالله فحسب له برأ ودعي خليل الله . ترون اذاً
انه بالأعمال يبرر الانسان لا بالإيمان وحده . كذلك راحب الزانية أيضاً أما تبررت بالأعمال
اذ قبلت الرسل واخرجتهم في طريق آخر . لانه كما ان الجسد بدون روح ميت هكذا
الإيمان أيضاً بدون أعمال ميت»

«معرفة النفس» وجهه ه منه فان ما اورده في ذلك الفصل عن النفس الانسانية وما يضعه امامها اعداؤها من السياجات والعراقيل يذكرنا كثيراً بما قاله يوحنا بنيان في كتابه «الحرب المقدسة» - وان اقصر ما كتبه الغزالي على ما اعلم هو مؤلفه «القواعد العشر» وقد طبع مرات عديدة وهو يشتمل على عشر قواعد عن العقيدة والسلوك وهو لا يزيد عن خطاب عادي، ومن امثاله مؤلفه «رسالة الطير» واشهر بحث للغزالي عن السلوك والآداب هو في مؤلفه «نظام الاعمال» ويمكن ان يقارن بسفر اللاويين او بالفصول الاولى من سفر امثال سليمان الحكيم في مقدمة ذلك الكتاب يثبت الغزالي بلاهة اولئك الذين يقعدون عن استجلاب السعادة لارواحهم الغير الفانية وهلاك الذين لا يؤمنون بالعالم الآتي فان السبيل الحقيقي للسعادة هو معرفة الحق وفعله - وان النفس هي اداة وقواها العديدة مرتبطة ببعضها لا غنى للواحدة منها عن الاخرى لان طريق الصديق يجمع بين العقيدة الصحيحة والعمل الصحيح - ويبحث الغزالي ايضاً عن احتمال تغيير الاخلاق من التقشف في الدين ويذكر الفضائل التي تحصل والروايل التي تبثل في هذا الطريق المؤدي الى المولى عز وجل وإلى السعادة الحقيقية - ولكن يؤكد اهمية الحياة مع قصرها والاهمية

القصوى للخلود. ولو ان التعليم العقلي الذي يحتوي عليه مؤلفه هذا هو تعليم نبيل جداً الا انه مع كل هذا مبني بتمامه (بكل اسف) على مبدأ الخلاص بواسطة الاعمال، وليس هناك ثمة احتمال انقلاب في الاخلاق بواسطة تغيير يحدث في القلوب^(١) ولا دليل على الوصول الى الحياة المطلوبة بواسطة التغلب على التجربة بقوة لا يمتلكها احد من جميع بني الانسان في كافة الاماكن والازمان

ومؤلفه الذي طبقت شهرته اخافقين هو ذلك الكتاب الباهر «احياء علوم الدين» فانه دائرة معارف حقيقية في علوم وآداب الاسلام ويبحث بحثاً وافياً في جميع الآراء الاسلامية وقد طبع هذا الكتاب مرات كثيرة وكتبت له تفاسير اشهرها ما وضعه «محمد... مرتضى» في عشرة اجزاء كبيرة— اما المؤلف نفسه فهو يحتوي على اربع اجزاء كل جزء منها عشرة كتب في مجموعها عبارة عن ألف صفحة مطبوعة طبعاً متقناً— ومع ان كثيرين يقرأون المؤلف الاصيل «كتاب الاحياء» كما كتبه الغزالي الا ان الحال قد استدعى وجود عدة مختصرات لهذا الكتاب. واحد تلك المختصرات هو كتاب «موعظة

(١) أما الديانة المسيحية فهي مبنية على تغيير القلب وتليها الى الله وتنقيتها (راجع أعمال ٢٦:٢٣ ويوثيل ١٢:٢ و ١٣ ومتى ٨:٥ و ٣٥:١٢ و ١٨:١٥ ومر ١٢:١٢ و رومية ٢:٢٩ و ٨:١٠— ١٠ وأف ٦:٦ و عب ٤:١٢ و ١ بط ٤:٣ و مزموذ ٨:٦٢ الخ

المؤمنين» الذي وضعه محمد جمال الدين الدمشقي وهو يدرس بصفة كونه كتاباً علمياً إسلامياً في صف اللاهوت بالمرسلية الاميركانية بالازبكية بالقاهرة. واول جزء من كتاب الاحياء الذي هو المؤلف الاصيلي عنوانه (ربيع العبادات) والجزء الثاني عنوانه (ربيع العادات) والجزء الثالث عنوانه (ربيع المهلكات) والجزء الرابع عنوانه (ربيع المنجيات) وكل جزء من هذه الاجزاء يحتوي على عشرة كتب وها هي محتوياتها مرتبة في الجدول الآتي حسب ترتيبها في ذات كتاب احياء علوم الدين :-

* محتويات الجزء الثاني *	* محتويات الجزء الاول *
(١) كتاب آداب الأكل وفيه اربعة ابواب	(١) كتاب العلم وفيه سبعة ابواب
(٢) كتاب آداب النكاح وفيه ثلاثة ابواب	(٢) كتاب قواعد العقائد وفيه اربعة فصول
(٣) كتاب آداب الكسب والمعاش وفيه خمسة أبواب	(٣) كتاب اسرار الطهارة وفيه ثلاثة أقسام
(٤) كتاب الحلال والحرام وفيه سبعة أبواب	(٤) كتاب اسرار الصلاة وفيه سبعة ابواب

(٥) كتاب آداب الالفة والاخوة الخ وفيه ثلاثة ابواب	(٥) كتاب اسرار الزكاة وفيه اربعة فصول
(٦) كتاب آداب العزلة وفيه بيان	(٦) كتاب اسرار الصوم وفيه ثلاثة فصول
(٧) كتاب آداب السفر وفيه بيان	(٧) كتاب اسرار الحج وفيه ثلاثة ابواب
(٨) كتاب آداب السماع والوجد وفيه بيان	(٨) كتاب آداب تلاوة القرآن وفيه اربعة ابواب
(٩) كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفيه اربعة ابواب	(٩) كتاب الاذكار والدعوات وفيه خمسة ابواب
(١٠) كتاب آداب المعيشة واخلاق النبوة وفيه ١٣ بياناً	(١٠) كتاب ترتيب الاوراد وفيه بيان

﴿ محتويات الجزء الرابع ﴾

(١) كتاب التوبة وفيه اربعة اركان و ١٠ بيانات
(٢) كتاب الصبر والشكر وفيه شطران و ٣ اركان و ١٧ بياناً
(٣) كتاب الخوف والرجاء وفيه شطران و ١٢ بياناً
(٤) كتاب الفقر والزهد وفيه شطران و ١٤ بياناً

﴿ محتويات الجزء الثالث ﴾

(١) كتاب شرح عجائب الخلق وفيه ١٤ بياناً
(٢) كتاب رياضة النفس وفيه ١١ باباً
(٣) كتاب كسر الشهوتين وفيه ٧ بيانات
(٤) كتاب آفات اللسان وفيه بيانان و ١٤ آفة

(٥) كتاب التوحيد والتوكل وفيه شطران و١١ بياناً	(٥) كتاب ذم الغضب وفيه ١٦ بياناً وقولاً
(٦) كتاب المحبة والشوق والرضا وفيه قولان و١٧ بياناً وخاتمة	(٦) كتاب ذم الدنيا وفيه خمسة بيانات
(٧) كتاب النية والاخلاص والصدق وفيه ثلاثة ابواب	(٧) كتاب ذم البخل وفيه ١٢ بياناً وفيه حكايات البخلاء
(٨) كتاب المراقبة والمحاسبة وفيه ٦ مراتبات	(٨) كتاب ذم الجاه والرياء وفيه شطران و٢٣ بياناً
(٩) كتاب التفكير وفيه فضيلة وثلاثة بيانات	(٩) كتاب ذم الكبر والعجب وفيه شطران و١٥ بياناً
(١٠) كتاب ذكر الموت وما بعده وفيه شطران وثمانية ابواب الخ.	(١٠) كتاب ذم الغرور وفيه بيانان واربعة اصناف

ومما يدلنا على ان الغزالي كان صوفياً مخلصاً في صوفيته ما ذكره بنوع خاص في الجزئين الثالث والرابع من هذا المؤلف العظيم (احياء علوم الدين) وأن كتبه العشرة عن «الاشياء التي تهذب النفس» مملوءة بما يمكن الانسان من الحصول على مجموعة يومية كمرآة لافكاره الادبية . وهذه الدرر المنظومة الموجودة في مؤلفات الغزالي يجب

ان يقدرها المسلمون والمسيحيون معاً حق قدرها لان ظاهرها علمي ادبي وباطنها يوصلنا الى حق المسيح

«يجب ان يقدرها المسلمون حق قدرها لانه منهم وامامهم وشهاداته لهم أو عليهم لا غرض له فيها ، ويجب ان يقدرها المسيحيون حق قدرها لانه هو المسلم الوحيد الذي اكتسب عقله نوراً وهدى باطلاعه على الكتاب المقدس حتى صار قريباً جداً من روحانية الانجيل اكثر من كل المؤلفين المسلمين واقتبس من التوراة والانجيل كثيراً حتى يمكننا ان نقول ان اشعيا، النبي في وسط اسرائيل بنواته الصريحة دعي «النبي الاسرائيلي الانجيلي» والامام الغزالي في وسط الاسلام وفي العصور الوسطى عصور الظلام باطلاعه على الكتاب المقدس واقتباساته منه بدون ان يشعر يدعي في نظرنا «الامام المسلم الانجيلي»

ومن ألد مؤلفاته «المقصد الاسنى في شرح اسماء الله الحسنى» فانه قسمه الى ثلاثة اقسام . (الاول) بحث فيه بحثاً فلسفياً عن معنى كلمة «اسم» وميز بين التسمية والمسمى وأبان كيف يمكن ان يكون لله عز وجل اسماء كثيرة كلها ذات مغزى واحد. (والثاني) منه (وهو اطول الكل) بحث في التسعة والتسعين اسماً للذات العلية على الترتيب وبنائها في بحثه على سبعة مقاصد ومغزى واحد. (والثالث) قصير وقد افهمنا فيه انه يوجد أكثر من تسعة وتسعين اسماً الا ان

هذه التسعة والتسعين بنيت على اسباب معقولة . وايضاً في آخر الكتاب فصل بحث فيه عن امكانية وعدم امكانية وصف ذي الجلال والاكرام . وقد علم الامام الغزالي في كتابه هذا ان الخضوع لارادة المولى عزوجل انما هو اقصى سعادة للمؤمن - وفيه انه توجد ثلاث درجات في معرفة كنه الخالق . وقصد بذكر هذه الدرجات اننا كلما اقتربنا الى الله ارتفعت أخلاقنا . والدرجات الثلاث المذكورة هي هذه (١) العقلية (٢) الاعجاب والاجتهاد في السنن (٣) الحصول على بعض مزايا الخالق عزوجل كالملائكة مثلاً . وعلم ان التقرب من الخالق هو بالمرتبة والدرجة وليس بالمكان . ولبت الغزالي تقدم اكثر فعلم كما علم من التوراة والانجيل انه لا يمكن ان يحصل المؤمن على مزايا الخالق كالملائكة واشباههم الا بواسطة الغفران المجاني المعلن من السماء في شخص الطاهر القدوس البري البار سيدنا عيسى (يسوع) المسيح الذي تنازل كراماً منه واختياراً وتجسداً وفدى جميع البشر بدون استثناء وفتح الباب لكل من يريد الاقتراب ، من اولي الالباب ، الى نعمة رب الارباب

قال الامام الغزالي ان هنالك قولين حقيقيين بالاحترام والاجلال بشأن الخالق والمؤمن معاً . فان المؤمن يجب ان يقول عن الله دائماً

«لا اعرف الا الله ولا اعرف شيئاً عن الله» وهذا القرار الذي قرره الغزالي انما هو نتيجة الوجد الذي استولى على قلبه حينما قرأ في الانجيل «طوبى للاتقياء القلب لانهم يعاينون الله - ابي هو الذي يعجذبني... ولستم تعرفونه . واما انا فاعرفه» (متى ٥: ٨ ويوحنا ٥: ٤٤ و ٥٥) وحينما ترنم بقول سيدنا داود في صلاته الى الله «عجيبه هذه المعرفة . فوقى ارتفعت لا استطيعها . اين اذهب من روحك ومن وجهك اين اهرب ؟ ان صعدت الى السموات فانت هناك... ان اخذت جناحي الصبح وسكنت في اقاصي البحر فهناك ايضاً تهديني يدك وتمسكني عيني» (مز مور ١٣٩: ٦ - ١٠) ولا ريب في ان استفادة الغزالي من روحانية الكتاب المقدس أهلتة الى الافكار في نفسه انه من الواصلين الذين حازوا مقاماً محموداً وفنوا في الله ولم يعرفوا الا هو . واما المعرفة عنه (عن الله) كما هو سبيل اهل الظاهر فلا يقول به الغزالي قط . وبهذه الدرجات التي نالها ادخل على الصوفية ما ادخل من الاصلاح العجيب الذي لا نرى له اساساً الا في المسيحية التي نهت عن محبة العالم وعامت عن الغناء في الله

ان آخر ما كتبه الغزالي من مؤلفاته هو كتاب «منهج العابدين» وقد كتبه لارشاد اولئك الذين لم يفهموا نصوص كتاب احياء علوم

الدين وقد بحث فيه عن العقيدة الاسلامية من الوجهة الصوفية وقد
أوردنا في المؤلف الانكليزي صورة من أول صفحة من هذا
الكتاب اخذناها عن مجلد ظهر حديثاً في مصر وعلى هامشه كتاب
«منهج العابدين» الذي ذكر قبلاً - وهذان المؤلفان اللذان ألفهما الغزالي
محبوبان جداً وقد انتشر انتشاراً سريعاً في هذه الايام اما كتاب
المنهج فيعلن ان الامام الغزالي استعمل في أواخر ايامه الفاظ الصوفيين
في أقواله وكتابه حتى في تعاليمه ولذلك رأينا في فصول هذا
الكتاب «مراتب» في تقدم النفس . فالمرتبة الاولى هي (مرتبة
المعرفة والثانية «مرتبة التبكيت» والثالثة «مرتبة بيان الموانع نحو
المولى الخ» والمراتب الاخيرة في الكتاب في طريق الصوفي هي
تسبيح الله وشكره في جميع الاحوال الخ

واما تعليمه عن الصلاة كما ورد في كتابه احياء علوم الدين فهو
بلا نزاع امتن وأهم وأقوى ما رآه الباحثون (في علم الفروض) الذين
وضعوا كل اهتمامهم في تأدية الصلاة وفروضها في أوقاتها الخاصة
بكل دقة (راجع كتاب احياء علوم الدين جزء أول وجهه ١١٧ تحت
عنوان حياة الصلاة)

ان اخلاص الغزالي ونشاطه العقلي والبدهي كما ظهر من مؤلفاته

ومما أوردناه من المقتطفات التي مر ذكرها يؤكد ويبين الاسباب التي جعلت للغزالي تأثيراً عميقاً يفوق جداً تأثيرات الفلاسفة الذين يبحثون في الامور العقلية الخالصة . فبينما نحن لا نرى اثرًا لتعزيد الغزالي للفلسفة التعليمية نراه يشجع الفلسفة العقلية ويذكر القراء كيف كان يحمل معه مبادئ الآداب في روحانه وغدواته حتى انه بعد وفاته ألفت كتب كثيرة اخذت عما وضعه الغزالي ولذلك قال «كلورفيد» ان أهم هذه المؤلفات المأخوذة عن الغزالي كتاب «اخلاق الجلالى» الذي ألفه الامام جلال الدين أسعد الديواني ونقله الى الانكليزية نقلًا متقنًا المسيو و . ف طومسون ، وان معظم كتاب الديواني هذا ترجم من العربية الى الفارسية وظهر أصله في القرن العاشر تحت عنوان «كتاب الطهارات» وبعد ذلك ترجمه الى الفارسية أبو النصر وسماه «أخلاق نصيري» وهذبه ببعض اضافات هامة من كتاب آخر ، ثم في القرن الخامس عشر أدخلت عليه تحسينات أخرى ظهر بها تحت عنوانه الحالي «أخلاق الجلالى»

ويظهر بوضوح من كل مؤلفات الغزالي انه كان بحاجة كبيراً في شؤون الطبيعة بدليل كونه ألف كتاباً خاصاً في هذا الموضوع أسماه «الحكمة في مخلوقات الله» وضع فيه الشيء الكثير عن عظمة

السموات التي تتلأأ فيها النجوم ، وعن الارض والبحر والعناصر
الاربعة الاولى ، وعن حكمة خلق الانسان والغرائب الجسمية
الكائنة في النوع الانساني ، وعن الطيور ، وعن الدبابات والاسماك ،
وبالجملة فان محتويات هذا الكتاب مبنية على مقدمات ونتائج تخلص
منها الى ذكر عزة الله وعظمته كما تجلت هذه الغاية في مؤلفات الغزالي
ويظهر ان ما يقوله الغزالي عن الفوائد التي تجني من مجرد النظر الى
القبة الزرقاء يمكن ان يقارن بقول داود النبي :

« ايها الرب سيدنا ما اجد اسمك في كل الارض حيث جعلت جلالك
فوق السموات . من أفواه الاطفال والرضع أمسست حمداً بسبب اضدادك
لتسكيت عدو ومنتقم . اذ ارى سمواتك عمل اصابعك القمر والنجوم التي
كونتها فمن هو الانسان حتى تذكره وابن آدم حتى تقتلده . . . ايها الرب
سيدنا ما اجد اسمك في كل الارض . . . السموات تحدث بمجد الله والملك
يخبر بعمل يديه يوم الى يوم يذيع كلاماً وليل الى ليل يبدي علماً . . . جعل
للشمس مسكناً فيها . وهي مثل العروس الخارج من حجته . يتهبج مثل
الجبار للسباق في الطريق من أقصى السموات خروجها ومدارها الى أقاصيها
ولا شيء يخنفي عن حرها . الخ » (مزمور ٨ و ١٩)

ولذلك قال الغزالي تفسيراً لقوله « والسماء ذات الحبك » : —

(السماء ذات الحبك) « قيل الحبك الطرق وقيل ذات الزينة فهي دلائل

واضحة تدل على فاعليها ؛ وصنعة محكمة صمدية تدل على سعة علم بلربها ؛ وامور ترتيبها كل يدل على ارادة منشيها فسبحان القادر العالم المرید . وقيل في النظر الى السماء عشر فوائد . تنقص الهم ؛ وتقلل الوسواس ؛ وتزيل وهم الخوف ؛ وتذكر بالله ؛ وتنشر في القلب التعظيم لله ؛ وتزيل الفكر الرديية ؛ وتنفع من مرض السوداء ؛ وتسلي المشتاق ؛ وتؤنس المحبين ؛ وهي قبة دعاء الداعين « الحكمة في مخلوقات الله وجه ٤ »

ولقد كان الغزالي لاهوتياً مفلحاً وناقداً نحريراً وقد وضع شرحاً للقرآن في ٤٠ مجلداً لم تظهر في عالم المطبوعات ، وقد كتب ١٢ كتاباً ضد افراد معينين من طائفة الملحدين

ومن بين مؤلفاته التي كان يهجو بها الفلاسفة نرى انه لا مندوحة لنا عن ذكر ثلاثة منها مرتبطة ببعضها كل الارتباط وهي « كتاب مقاصد الفلاسفة » وهذا الكتاب عبارة عن بيان لتعاليم الفلاسفة الحقيقية وايضاح لآرائهم عن العالم . ثم « كتاب تهافت الفلاسفة » وهو عبارة عن استنكار لآرائهم أعلن فيه عن تلك الافكار التي تتفق مع من يتبع الاسلام بقلبه وعقله . ثم « كتاب القواعد » وهو عبارة عن بيان للحقائق التي يجب ان تبني لكي تحل محل غلطات الفلاسفة - ففي الكتاب الاول كما قال ماكدونالد « يضرب الغزالي

الفلاسفة على ظهورهم وعلى انخاذهم ويجعل أسلحتهم ضدكم ويتطرف في سوء مصير كل ما هو عقلي» وقبل «هيوم» بنحو سبعمائة سنة نراه يقطع صلة المسببات بقوة عارضته وينشر على الملا بأنه ليس في وسعنا ان نعلم شيئاً عن المسببات أو النتائج ولكننا نرى أشياء تتبع احداها الاخرى فقط

ان المؤلف العظيم «كتاب احياء علوم الدين» الذي ألفه الغزالي كان من أقوى أسباب اظهار تقائص مخجلة في الاندلس . فانه لم يعد تحمل أولئك العلماء في تلك الاصقاع في الطاقة نظراً لضيق أفكارهم ونظراً لكون الفقه كان في نظرهم قاصراً على معرفة قواعد الدين معرفة تامة فقط . ولم يكن لديهم من الوسائل ما يحملهم على الاعتراف بتلك المبادئ الروحية التي كان يجبذها الغزالي وهي مبادئ تمس شعور الشخص الداخلي وبالاختصار فان مبادئ الغزالي كانت مبادئ قلوب لا شخصيات ومع انها لم تصل الى المبادئ المسيحية الا انها كانت كظل خفيف لها لتشبعه بأراء الكتاب المقدس كما مر بنا . ولما اشتدت جراءة الغزالي وهجا معاصريه من علماء الفقه الذين صرفوا همهم الى ظاهر الشرع أصاب منهم ملمساً حساساً فلم يتأفقوا فقط بل انتقلوا من التأفف الى الصخب والصراخ بأصوات عالية

هي أصوات الخزي والعار والحنق ولذا قال «دوزي» «ان ابن حمدون قاضي قرطبة أعلن ان أي رجل مسلم يقرأ مؤلفات الغزالي فهو كافر مستحق للعنة الله» وأصدر فتوى مؤداها ضرورة حرق جميع نسخ الكتاب وهذه الفتوى كانت مذيلة بامضاءات فقهاء قرطبة وقد صودق عليها رسمياً فلذا حرقوا كتاب الغزالي في قرطبة وفي جميع مدن الامبراطورية الاسلامية في الاندلس وصدر أمر بان كل من وجدت عنده نسخة منه كانت عقوبته الاعدام ومصادرة الاملاك— الا ان هذه الاحكام لم تكن شائعة الا في بلاد الاندلس فقط وأما بقية البقاع الاسلامية فلم تتأثر بهذه الاحكام الجائرة الفظيعة . ففي حياته وبعد مماته كانت تقرأ مؤلفاته بمعرفة طائفة كبيرة من القراء والشراح ونعني بها الكتب التي ألفها ضد الفلسفة لاجل بيان حقيقة الاسلام . ولكن المؤلفين المسلمين ونقاد الافرنج أجمعوا على اتهام الغزالي بالاهمال وعدم التدقيق في نقل المقتطفات والمقتبسات من الكتب الاخرى اثناء تعاليمه وتأليفه . ومما وجهوه اليه من انواع التهم انه أخذ الاحاديث بمعانيها دون نصوصها فخالف التقاليد الاسلامية المرعية . وقد قال في ذلك ما كدونالد «ان الغزالي كان يورد من ذاكرته شيئاً كثيراً زائداً عن المقدار الواجب لانه كان

رجلاً عالي الهمة واسع الاطلاع لا يعبأ بضرورة التدقيق في ما ينقله عن غيره اقتباساً أو اقتطافاً . ومثل هذه المقتطفات استمرت في كتبه بالمعنى لا بالنص وعلى غير هدى الى آخر أيام حياته . ولقد أورد السبكي المتوفي سنة ٧٧١ بعد الهجرة في كتابه «طبقات الشافعية الكبرى» فصلاً خاصاً مشتملاً على صفحات كثيرة أورد فيها بالاحصاء الدقيق ما يزيد على ٦٠٠ حديث وضع لكل منها اشارة الى المحل الذي ورد فيه - ولا يوجد لدينا الآن ما يحملنا على الشك بان السبكي هذا كان من المعجبين بالغزالي ومن المحبذين لآرائه وتعاليمه . ومع كل هذا فماذا يكون قولنا عند ما نرى في مجموعة تاريخ الشهداء هذه هجواً شديداً وحكماً قاسياً على الغزالي لعدم تدقيقه سيما وان هذا الهجو وهذا الحكم صادران من أحد تلاميذه المعجبين به ؟ وعندما يقرأ الانسان هذه المجموعة الجامعة «لحقائق القول» في الحديث المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم والمبينة على ان هذه الاحاديث كلها نسبت اليه صلى الله عليه وسلم على غير أساس يتمتع وينفر من جراء هذه الحقيقة المؤلمة ومن النقص الشائن الذي يحول دون الوصول الى حقيقة أهمية هذا الكتاب الاسلامي العظيم - فاذا كان الغزالي نفسه قد تناول الاحاديث النبوية باهمال هذا مقداره ،

وإذا كان قد نسب إلى النبي عليه الصلاة والسلام شيئاً كثيراً من الكلام التافه الكاذب الذي أكثره غير لائق لأن ينسب إلى مقام النبوة من وجهة أدبية فكيف ياترى يكون مقدار ثقتنا في ناقلٍ مثل تلك الأحاديث غير الغزالي؟ وكيف يمكن أن نعتي الغزالي نفسه من تهمة الفضيلة الكاذبة ما دام الحال على هذا المنوال؟ ولنتقدم الآن إلى حقيقة أخرى من الأهمية بمكان عظيم من جهة مؤلفاته وبشأنها فنقول: -

كان للغزالي تأثير قوي على الأفكار الإسرائيلية في العصور الوسطى وقد أدرجنا في الملحق بياناً عما ترجم من مؤلفاته إلى اللغة العبرانية - وكثيرون من رجال الفلسفة مثل «ميو نيدس» اقتطفوا نظرياتهم من كتاب مقاصد الفلاسفة ومن كتب أخرى للغزالي. وقد نحا «جودا هاليقي» نحو الغزالي في هجو الفلسفة في كتابه «الكوزاري» إلا أن الغزالي كان يجنب الأفكار اليهودية بمبادئه الأدبية أكثر من فلسفته. وقال «برويد» أن الغزالي تعمق في آداب اليهودية إلى درجة زعم معها الغير أنه كان يتخبط في ذلك البحث وقد تعلم كتبه وعلم بها كثيرون من علماء اليهود (لعمهم أنه استفاد من أسفار التوراة كثيراً أثناء دراسته لها) وقد أخذ أبرهيم بن عزرا عن

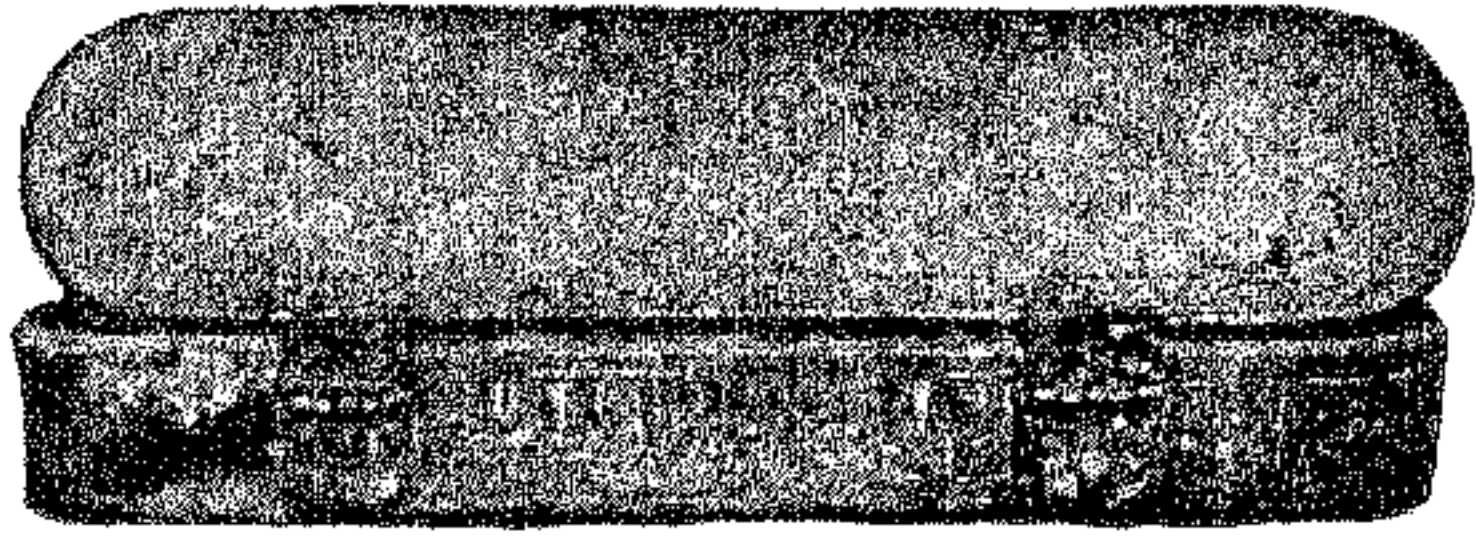
كتاب الغزالي المسمى «ميزان الاعمال» مقارنته هذه في نصيحته البديعة التي أسماها «يا شين لب» وقد أخذ ابرهيم بن داود عن الغزالي من نفس الكتاب تلك المقارنة التي اثبت بها الغزالي الفرق في المقدار بين فروع العلوم المختلفة . وقد أورد «سيمون دوران» في كتابه المسمى «كيشت» شطراً من كتابه «موزين هاثيوثيم» أسماء «موزين هاهكا»

وقد ترجمت مؤلفاته الى العبرانية في القرن الثالث عشر وليس في عالم الوجود أقل من ١١ شرحاً عبرانياً لكتاب المقاصد وكان الغزالي في آرائه عن العلوم كعاصريه وكان العلم في نظره مؤسساً على الطريقة البطليموسية القائلة بوجود أربعة عناصر فقط وبوجود ثلاث طرق (١) عالم الشعور (٢) وعالم الاله الابدي أي الوحي (٣) وعالم التصورات أو قوة الله - وأما في رؤاها وأحلامنا فنحن في اتصال مع عالمين آخرين . ويتجنب الغزالي بهذه الطريقة كل ما يصادفه من الصعوبات الكامنة بين طبقات التعاليم الاسلامية الخشنة - فقد توجد أشياء حقيقية وفعلية ومع هذا فلا توجد في عالم الشعور . ويلخص الدكتور ماكدونالد قوة تأثير الغزالي على العالم الاسلامي من أربعة أوجه . فهذا الامام العظيم :-

(أولاً) قد كان زعيماً عاملاً على أرجاع المسلمين عن التعاليم
المجردة التي لا مغزى ولا معنى لها إلى اتصال قوي مع الكتاب
والسنة لانهما في نظره ينبوع الإسلام الوحيد . ويمكن بل يجوز لنا
ان نسميه فقيهاً في القرآن كما نفهم من هذه التسمية في عصرنا الحالي
لان تفسيره للكتاب ليس ايراداً لما أورده الغابرون من التفاسير
ولكنه تفسير روي لنصوص القرآن صادر من فيوضات آرائه الخاصة
(ثانياً) أدخل الغزالي في العالم الاسلامي عنصر الخوف من
جديد لانه في الايام السابقة كانت مخاوف يوم الدينونة وأهوال الجحيم
- كما في نصوص القرآن - عبارة عن زاجر قوي يزجر القوم
ويردعهم ويوقظهم ويدعوهم للرجوع الى التوبة ولكن ميل الخلفاء
والرؤساء والعلماء الى ما يلذ أجسادهم جعل القوم يجرأون على اهل
هذه التعاليم وعلى التهاون بها فجاء الغزالي وأعاد الى هذه التعاليم قوتها
الاولى وروثها وعززها وأطنب فيها حتى جعل الفرائض ترتعد من
كل ما ذكر فيها من المخاوف والاهوال وقد استدللنا على هذه
الحقيقة مما كتبه الامام الغزالي في كتابه « الدرّة الفاخرة » الذي له المقام
الاسمى في قلوب المتدينين المسلمين الى الآن (ونحن نرى انه اقتبس
مواده من سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي تقريباً)

(ثالثاً) كانت الصوفية موجودة في الاسلام قبل الغزالي الا انها كان يُنظرُ اليها كأنها شيءٌ مخالف للشرع مزِرٍ بمقام من يتبعه ولكن الغزالي لما ظهر في ميدان الحياة عزز الصوفية في تعاليمه أيما تعزيز وطبقها على الشرع وطبق الشرع عليها وزاد في تكريمها حتى صارت الصوفية ذات المكانة العليا بين عموم السنيين المسلمين بل بين جميع الفرق الاسلامية منذ ذلك الحين

(رابعاً و اخيراً) ان هذا الامام حلل الفلسفة حتى جعلها قريبة من العقول العادية ثم بينَ خطرها ومبادئها الاماسية ثم أظهر في كتابه - بشكل جلي - انه لا فرق بين الفلسفة الحقّة ومبادئ الاسلام فأشبهه في عمله «ريموندل» المسيحي المبشر الاول للمسلمين ويرى البهانة ماكدونالد أن الفقرة الاولى والفقرة الثالثة من هذه الفقرات الاربع هما المسئلتان الهامتان اللتان وضعتا الامام الغزالي في الصف الاول من صفوف العلماء الاعلام ، في كل أيام حياة الاسلام ، من أيام الخلفاء الراشدين الى يوم الزحام



مقامة للغزالي محفوظة بدار التحف العربية بالقاهرة

الفصل السادس

علم الآداب كما علمه الغزالي

لا يخفى على كل من له الملم نوعي^١ بالفلسفة الادبية ان الآداب الحقة مبنية على ثلاثة عوامل جوهرية. وهذه العوامل هي التي بنيت عليها الآداب المسيحية كما ترون في الفقرات الآتية وهي :-

﴿الخير الاعظم﴾ الخير الاعظم هو العامل الاول من عوامل الآداب المسيحية وهو الضلالة المنشودة التي يفتش عليها المؤمنون المتدينون بالمسيحية والمتأدبون بأدائها وينظرون الى خير المسيح الاعظم وينشدونه لينير لهم ظلمات هذه الحياة لانه هو القائل : «انا هو نور العالم . من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة»

﴿الفضيلة السامية﴾ هي العامل الثاني الذي يدفع التابعين المؤمنين الى التخلق باخلاق المتبوع الاعلى حتى يصيروا اهلاً لان يخلع الفادي عليهم خلعاً الفضيلة السنية فتراهم بهذا الثوب الملكي الجميل عاملين ومترغين بقوله تعالى : «وكما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا انتم ايضاً بهم هكذا» (لو ٦: ٣١) ومتى تمثل المؤمن بالفادي فهذه هي الفضيلة القويمة ، وهذه هي الاخلاق الكريمة

﴿القياس﴾ القياس الذي هو الشريعة الادبية هو العامل الثالث
 من عوامل الآداب المطلوبة . والقياس هو ان يقيس التابع آدابه
 الشخصية بمقدار مقياس الوحي الذي يعتقد به وبمقياس آداب متبوعه
 الديني فاذا رأى التابع ان آدابه ناقصة وقصيرة يطلب المزيد حتى يقترب
 ان لم يقدر على الوصول . ولاجل احقاق هذه الحقيقة قال الرسول .
 «ولكن نحن لا نتفخر الى ما لا يقاس بل حسب قياس القانون الذي
 قسمه الله لنا قياساً . . . اذ قد وصلنا . . . غير مفتخرين الى ما لا يقاس
 في اتعاب آخرين - ولكن لكل واحد منا أعطيت النعمة حسب
 قياس هبة المسيح . . . الى ان تنتهي جميعنا الى قياس قامة ملء المسيح
 . . . الذي منه كل الجسد مركباً معاً ومقترناً بموازرة كل مفصل
 حسب عمل على قياس كل جزء يحصل نمو الجسد لبنيانه في المحبة»
 (٢ كو ١٠: ١٣-١٥ وأف ٤: ٧-١٦) وهذه العوامل الثلاثة لم تتجمل
 كاملة الا في الديانة المسيحية (كما عرف ذلك الامام الغزالي يقيناً)
 واما في الديانة الاسلامية فان هذه العوامل قد قيدت بقيدتين
 حديدين قبل ان تصل الى عشر المطلوب منها . فاما القيد الاول فهو
 أخلاق النبي محمد نفسه ونزفاته الشخصية المشهورة التي لا مناسبة
 لذكرها في هذا المقام . واما الثاني فهو تأثير احاديثه المروية عنه وعلى

هذا فصار اعلى سماكي الفضيلة في الآداب الاسلامية سهل التناول بل يمكن الوصول اليه بكل سهولة بواسطة الاقتداء باعمال النبي محمد التي هي في غاية الموافقة للطبيعة الجسدية ، وايضاً صار القياس الذي هو الشريعة الادبية مشوهاً نظراً لآراء النبي محمد الغير المترابطة كما في احاديثه بالنسبة لاختلاف مقاصدها وما ترمي اليه حتى قال مارتن سان :

« ان الآداب الاسلامية عليها مسحة التعليم الجاف الظاهر المناقي لجوهر الفضيلة ، فان الضمير الحي في العلاقات الاجتماعية ، والعمل على حسب ما يعتقد الانسان ، وعلى ما يقوله الانسان ، وعلى موافقة اعمال الانسان لارادة الله ، كل هذه الامور هي المسئلة الهامة إلا ان هناك تقصاً في التعمق في جعل الآداب أساماً للمحبة في تعاليم الاسلام عن الآداب وهذا مما يؤسف له » وقد قال سيدنا المسيح : « يكفي التلميد فخراً أن يكون كعلمه »

ان الخير الاعظم الذي هو العامل الاول هو المظهر الخارجي الظاهر الملموس الذي ينبئ عن سعادة الانسان وهذا القول لا يحتاج الى براهين جديدة عند الذين استوعبوا فلسفة الاسلام وعرفوه من منابعه الاصلية من ذات نصوص القرآن والاحاديث . ولقد عبر الاستاذ مرجليوث عن رأيه في الموضوع بلهجة شديدة الا انها بالحق

عادلة فقال بالنسبة الى الصحابة المحمديين : « ان الذين يتصفحون تاريخ الاسلام يجب عليهم ان يطرحوا أحكام الآداب جانباً وبغير ذلك تكون صورة بحشهم قائمة لانهم لا يمكنهم ان يخطوا حرفاً واحداً مطلقاً اذا كانوا يستسلمون الى انحيانات وسفك الدماء واستعمال القسوة والاسترسال في الشهوات وهي امور كانت شائعة بين الصحابة اثناء الفتوحات الاسلامية ومع ذلك فان القرآن نفسه يدعو الى الامتناع عن الثلاثة الاولى ويضع بعض القيود الخفيفة للرابعة . ومما لا شك فيه ان النهر لا يمكن ان يعلو على منبعه كما لا يمكن ان يكون عرض المأذنة اكبر من قاعدتها» وقول هذا الاستاذ يأتي بنا الى حقيقة ظاهرة وهي القول ان آداب محمد النبي هي منبع وأساس كل مبادئ آداب الاسلام . فاذا لا يجوز لنا ان ندهش لان درجة الآداب الاسلامية هكذا نوعاً ما في كل مسلم على الاطلاق حتى في شخص الغزالي نفسه ولو ان آدابه حسب تعاليمه كثيراً ما تفوق عن الآداب التي هي حسب تعاليم القرآن مع انه كثيراً ما يذكر النبي في كل تعاليمه عن الآداب وفي مؤلفاته كأن النبي في نظره أعلى ما يتطلع اليه . ولقد اورد في كتابه «الدرة الفاخرة» شطراً مأخوذاً من الحديث حيد فيه قول السيد يسوع المسيح الذي ذكره في صفحة ٢٤ من الطبعة المصرية .

ويشير قول الغزالي الذي اوردته عن المسيح الى يوم القيامة حينما تبحث الامم كلها مع اختلافها عن يتوسط في انالتها رضوان الله وغفرانه واتقاذها من زفير جهنم الخ «لنا شفيع... يسوع المسيح البار»
(١ يو ٢: ٢)

اننا اذا اعتبرنا العصر الذي عاش فيه الغزالي ، واذا تذكرنا تربيته الاسلامية ، وآدابه الاسلامية ، فان الاستاذ ماكدونالد قال في هذا الصدد : «ان موقف الغزالي في تلك الحالة صار مدركاً ومفهوماً. ويعلمنا الغزالي اننا مدينون لاولياء الله الذين اظهر الله نفسه لهم فنالوا حظ الاتصال بالحضرة القدسية أي اننا مدينون بكل نواميسنا ونظرياتنا لهم وان استنتاجاتنا واستدلالاتنا كل هذه وتلك قد استقينها من فيوضات اولياء الله لان الله لم يترك نفسه بلا شاهد بل كان له اولياء في كل مكان وكل زمان يشهدون للنور الباطني الذي نالوه من الله. واننا بدون «مدد» هؤلاء «القدسين» ونورهم لانستطيع ان نعرف انفسنا. ومن كل هذا يتضح لنا اتجاه نظر الغزالي وموقفه الاساسي الذي يعلم أن مصدر كل معرفة هو وحي من الله سواء أكان وحيًا متلوًّا أتى من الله بواسطة الانبياء والرسل الذين أيدهم الله بالآيات والبيانات وبحق الرسالة الى البشر - او كان وحيًا غير متلو أي وحيًا

تفسيرياً ثانوياً كالإلهام الذي يلهم الله به القديسين والاولياء المتفاوتي الطبقات والدرجات لان منتهى الاولياء في الاتصال هو مبتدأ الانبياء مما يدل على ان السلسلة تامة كاملة متصلة الحلقات فاذا حرم الانسان من هذه الارشادات فكأنه اعمى يتخبط في دياجي الظلام» اهـ : انتهى قول الامتاز ماكدونالد الذي نلخص لنا به موقف الغزالي أمام الآداب الاسلامية ونحن نزيد على ذلك انه غير خاف على القارىء ان الغزالي يقصد بالوحي المتلو القرآن نفسه ، ولا يحتاج الامر الى ان نعرف القارىء من هم هؤلاء الاولياء اصحاب الوحي الغير المتلو الذي هو الإلهام حسب تعليم الغزالي لانهم معروفون في الشرق بتجوهم بملابس الدراويش ، او بالثياب الممزقة الرثة والريق السائل والاقدام الحافية والرؤوس العارية ، وهم دائماً منبشون بين أبناء الطرق الصوفية وليس من الضروري توضيح العبارة ، لان اليب تكفيه الاشارة، اجتناباً للخوض في أوصاف النجاسات والقذار

ولقد عرف علماء شريعة الاسلام بما فيهم الغزالي ان الخطية عمل يشعر به الشخص المكلف البالغ العاقل الحر ويشعر ان هذا العمل ضد العرف وضد الاجماع وضد الاحكام الشرعية ، وعرفوا ان ما يرتكبه الاطفال من الخطايا عن جهل لا يحسب في نظرهم كأنه

خطايا حقيقية . ويقسمون الذنوب الى قسمين كباثر وصغائر . وقال بعضهم ان الكباثر سبع . وقال آخرون انها سبع عشرة الخ وقد قسم المسلمون الاولون أيضاً الذنوب الى كبيرة وصغيرة . ولما رأى الغزالي ان الصعوبة الادبية واقفة امامه في سبيل حياته تنصل منها بأسلوب لطيف فقال « ان الصغائر بالاستمرار عليها تصبح من الكباثر لكثرة ارتكابها كما يذوب الحجر من استمرار نزول نقط الماء عليه » وأبان ان الانسان اذا اعتبر ذنوبه من الصغائر اعتبرها الله من الكباثر واذا اعتبر الانسان ذنوبه من الكباثر اعتبرها الله من الصغائر . ولا ريب ان قوله هذا انما هو تمهيد للتوبة وضرورتها وظل حقيقة سماوية عظمى أعلنها المسيح للغزالي في انجيله الطاهر حيث قال : « تعالوا اليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الاحمال وأنا أريحكم . احملاوا نيري عليكم وتعلموا مني لاني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم لان نيري هين وحمل خفيف » (مت ١١ : ٢٨ و ٢٩) وبعد ان قسم الغزالي الخطايا التي تتغلب على القلوب الى اربعة أقسام أو درجات وفصل كل قسم منها رأيناه في آدابه الشخصية كغيره من علماء المسلمين لا يمتاز عنهم الا بمظاهره الصوفية حتى اننا لم نر في مؤلفاته الكثيرة الخاصة بعلم الآداب فاصلاً ظاهراً بين أحكام الدين والشريعة الادبية

مع ان كلمة «آداب» في اللغة العربية تشير الى السلوك واللياقة والحشمة
ودماعة الاخلاق واحترام الاكبر سواً أ كان في السن أو المقام .
وهذا كله نجده مذكوراً في الوصايا العشر المذكورة في الفصل
العشرين من سفر الخروج في الكتاب المقدس تلك الوصايا التي هي
أساس الاخلاق النبيلة كما قرأ ذلك الغزالي وعرفه يقيناً من التوراة
وكما هو ظاهر مما كتبه في كتابه («الادب في الدين» وجه ٢ و٣)
حيث قال : «ان أكمل الاخلاق وأعلاها ، وأحسن الافعال وأبهاها ،
هو الآداب في الدين ، وما يقتدي به المؤمن من فعل رب العالمين ،
وأخلاق النبيين والمرسلين ، وقد أدبنا الله تعالى في القرآن ، بما أرانا
فيه البيان ، وأدبنا بنبيه محمد (ص) في السنة ، بما أوجب علينا فله
المنة ، وكذلك الصحابة والتابعون ، ومن بعدهم أهل الادب من
المؤمنين ، بما أوجب علينا من الاقتداء بهم ، وذلك جليل خطرهم .
كثير عدده ، نذكر بعضه لئلا يطول شرحه فيعسر فهمه الخ » ولقد
أشار الى ما اقتبس من التوراة والانجيل بقوله «بالاقتداء بفعل رب
العالمين وبأخلاق النبيين والمرسلين» كما هو ظاهر من الاقتباس وقد
رأينا أيضاً ان فقرات كتابه هذا دللتنا على تأثير الوسط والمعتقد عليه
وها هو أنموذج منها : «آداب العالم — آداب المعلم — آداب المقرئ —

آداب معلم الصبيان - آداب طالب الحديث - آداب المحدث - آداب
الكتاب - آداب الواعظ - آداب المستمع - آداب الناسك - آداب
اعتزال الناس - آداب الشريف - آداب النوم - آداب التهجد -
آداب الحمام - آداب الخلاء - آداب التاجر - آداب الصيرفي -
آداب الصائغ - آداب الاكل - آداب الشرب - آداب الرجل
اذا أراد النكاح - آداب المرأة اذا خطبها الرجل - آداب الجماع - آداب
الرجل مع الزوجة - آداب المرأة مع زوجها - آداب الجلوس على
الطريق الخ ولا يمكن الا ان تقول ان البيت يعرف من عنوانه
ولذلك لا تتعرض لتعاليم الغزالي عن آداب الاجماع أو أمثالها لا من
باب التصريح ولا من باب التاميع لان غرضنا تقديم القراء في حياة
الطهارة تقدماً محموداً ولذلك فقد اخترنا أبسط النماذج وأسلمها عاقبة
وهي آداب الاكل والشرب كما كتبها الغزالي حرفياً وهما هي :

﴿ آداب الاكل ﴾ - «غسل اليدين قبل الطعام وبعده
والتسمية والاكل باليمين ومما يليه وتصغير اللقمة واجادة المضغ وقلة
النظر الى وجوه الحاضرين ولا يأكل متكئاً ولا يأكل فوق
الشبع وفوق الجوع ويعتذر اذا شبع حتى لا ينجبل الضيف أو من
به حاجة ويأكل من جوانب القصعة ولا يأكل من ذروتها ويلق

الاصابع بعد الفراغ ويحمد الله ولا يذكر الموت عند الاكل لثلاثا
ينغص على الحاضرين»

﴿آداب الشرب﴾ - «ينظر في انائه قبل شربه ويسمي الله
تعالى قبله ويحمده بعده ويمصه مصاً ولا يعبه عباً ويتنفس في شربه
ثلاثاً يتبعه بالتحميد ويرد بالتسمية ولا يشرب قائماً ويناول من كان
على يمينه ان كان معه غيره»

ولكن مما يدهشنا انه لم يذكر شيئاً في تعليمه عن الصدق ولا
عن تقاوة القلب ولا عن الشجاعة الادية ولا عن نبالة المقاصد ولا
ما شا كل ذلك من المواضع الادية الهامة التي تبني الانسان في سبيل
الله وسبيل الطهارة حقيقة

وفضلاً عن أهمال الامام لمثل هذه الفضائل التي لا ترى بالحقيقة
الا في الديانة المسيحية النقية الطاهرة فانه في فصل من فصول كتابه
«احياء علوم الدين» الذي يقول الشيخ الغزالي نفسه ان النبي محمد
العربي ظهر له في الرؤيا واثى عليه وشجعه لاجله . تناول الشيخ
البحث في متى يكون الكذب محلاً ومرخصاً فيه وأبان لقراءته بكل
وضوح ان الغاية تبرر الواسطة «كنظرية همج نصارى العصور
الوسطى» وان النبي مصادق على هذه النظرية فقال :-

« اعلم ان الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب او على غيره فان اقل درجاته ان يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلاً وقد يتعلق به ضرر غيره ورب جهل فيه منفعة ومصالحة فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذوناً فيه وربما كان واجباً . قال ميمون بن مهران : الكذب في بعض المواطن خير من الصدق . رأيت لو أن رجلاً سعى خلف انسان بالسيف ليقتله ودخل داراً فاتته اليك فقال رأيت فلاناً ؟ ما كنت قائلاً ؟ ألت تقول لم أراه وما تصليق به وهذا الكذب واجب ؟ فنقول : الكلام وسيلة الى المقاصد (يعني ان الغاية تبرر الوسيلة) كانت الوسيلة منحة سافلة كالكذب مثلاً) فكل مقصود محمود يمكن التوصل اليه بالصدق والكذب جميعاً فالكذب فيه جرم . وان أمكن التوصل اليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح ان كان تحصيل ذلك الكذب مباحاً وواجب ان كان المقصود واجباً كما ان عصمة دم المسلم واجبة فمهما كان في الصديق سفك دم امرء مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب ومهما كان لا يتم مقصود الحرب او اصلاح ذات البين او استمالة قلب المجني عليه إلا بالكذب فالكذب مباح إلا انه ينبغي ان يحترز منه ما أمكن لانه اذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى ان يتداعى الى ما يستغنى عنه والى ما لا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب حراماً في الاصل إلا لضرورة والذي يدل على الاستثناء ما روي عن أم كلثوم قالت : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث . الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول في الحرب ،

والرجل يتحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها . وقالت ايضاً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بكذاب من اصلح بين اثنين فقال خيراً أو نعى خيراً . وقالت اسماء بنت يزيد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما الخ- الخ» (كتاب احياء علوم الدين جزء ٣ وجه ٩٦)

وليت الامام الغزالي تذكر أحكام الانجيل وهو يكتب هذا الفصل المحزن لانه لو رجع الى الانجيل لعلم ان الكذاب محروم من ملكوت الله وان ابليس هو الكذاب وأبو الكذاب وانه لا خير في الكذب مهما جرّ وراءه من المنافع المادية أو نحوها لان الكذب يفصل الكذاب عن الله الى أبد الآبـاء . والشرك كل الشر في الاتفصال عن الله : « ان اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يَغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل اثم »

ان امامنا الآن وجهة نظر الغزالي في تعليم علم الآداب الاسلامية . وحقيقة الامر انه أورد فصلاً في كتاب الاحياء علم فيه عن تأديب الاولاد وتحسين عقليتهم . ولم ندهش لانه لم يذكر فيه شيئاً خاصاً بتأديب البنات لانه ليس في أيام الغزالي فقط بل حتى الآن يرى كثيرون من علماء الاسلام وثقاته انه ليس من اللائق

تعليم البنات القراءة والكتابة ولذلك ضرب الغزالي صفحاً عن تعليمهن بالمرّة . وقد بدأ فصله المذكور هكذا : —

« اعلم ان الطريق في رياضة الصبيان من اهم الامور واوكدها والصبي امانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة تقيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما نقش ومائل الى كل ما يحال اليه فان عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه ابواه وكل معلم له ومؤدب . وان عود الشر واهمل اهل البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له وقد قال الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم نارا . ومهما كان الاب يصونه عن نار الدنيا فبان يصونه عن نار الآخرة اولى ، وصيائته بان يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الاخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعود التعم ولا يجب اليه الزينة واسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها اذا كبر فيهلك هلاك الابد بل ينبغي ان يراقبه من اول أمره فلا يستعمل في حضائته وارضاعه الا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال (واين هي في الاسلام ما دام تأديب البنات وتهذيبهن ممنوعاً شرعاً ؟) فان اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فاذا وقع عليه نشو الصبي انعجت طينته من الخبث فيميل طبعه الى ما يناسب الخبثات . ومهما رأى فيه مخايل التميز فينبغي ان يحسن مراقبته واول ذلك ظهور اوائل الحياء فانه اذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الافعال فليس ذلك إلا لاشراق نور العقل عليه — (وبعد ان يحث الوالدين على منع الصبيان عن الغذاء الغير النظيف وعن الشراهة وعدم الاحتشام يعود فيبدي نصيحته للوالدين بان يلبسوا الصبيان

ملابس بسيطة رخيصة فيقول) — وان يجب اليه من الثياب البيض دون الملون والابرسم ويقرر عنده ان ذلك شأن النساء والمخنثين وان الرجال يستنكفون منه ويكرر ذلك عليه ومهما رأى على صبي ثوباً من ابرسم او ملون فينبغي ان يستنكره ويذمه ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التتم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغبه فيه فان الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوه خرج في الاغلب رديء الاخلاق كذاباً حسوداً سرّاقاً تماماً لحوماً ذا فضول وضحك وكباد ومجانة وانما يحفظ من جميع ذلك بحسن التأديب ثم يشغل في المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الاخبار وحكايات الابرار واحوالها لينغرس في نفسه حب الصالحين ويحفظ من الاشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة الادياء الذين يزعمون ان ذلك من الظرف ورقة الطبع فان ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي ان يكرم عليه ويمجّزى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس فان خالف ذلك في بعض الاحوال مرة واحدة فينبغي ان يتعافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكشفه ولا يظهر له انه يتصور ان يتجاسر احد على مثله ولا سيما اذا ستره الصبي واجتهد في اخفائه فان اظهار ذلك عليه ربما يفيد جسارة حتى لا يبالي بالكاشفة فعند ذلك ان عاد ثانياً فينبغي ان يعاتب سرّاً ويعظم الامر فيه ،

(كتاب احياء علوم الدين جزء ٣ وجه ٥٣)

هكذا كان تعليم الغزالي في علم الآداب وهو خليط غريب ومنهج مر بين النصائح الطيبة والرديئة ، هكذا كان هذا التعليم

المدھش الصادر من استاذ كبير كانت له المكانة العليا دائماً بين العلماء وكان كعمود الاسلام وركن أصوله واكبر الثقات في علوم الآداب الاسلامية ، وآداب النكاح لها مقام كبير في كتب الاسلام عامة وفي كتب الغزالي خاصة . فَرَضَ النكاح على كل مسلم ومسلمة وابتدلت العزوبة . وقد قال في ذلك النبي محمد (ص) : «النكاح سنّي فمن رغب عن سنّي فقد رغب عني» وورد عنه في حديث آخر : «من رغب عن سنّي فليس مني وان من سنّي النكاح فمن أحبني فليستن بسنّي» حتى ان شيوخ مشايخ الصوفيين العظام هم في غالب الامر متزوجون وعلى ذلك فان نذر العذوبة لم يكن معترفاً به ولا معروفاً عند الصوفيين أجمعين . وقد عرف فقهاء الاسلام النكاح فقالوا : «هو عقد يملك بواسطته الزوج زوجته ويسمح له بالتمتع بها اذا لم يوجد عائق شرعي يمنع من ذلك» وقال الغزالي في الموضوع :-

« اما العقد فاركانه وشروطه لينتقد وينفد الحلّ أربعة الاول أذن الوالي فان لم يكن فالسلطان . الثاني رضا المرأة ان كانت ثيباً بالغاً أو كانت بكراً بالغاً ولكن بزوجه غير الاب والجد . الثالث حضور شاهدين . . . الرابع ايجاب وقبول ، (الاحياء ج ٢ وجه ٢٤)

واما من جهة انتقاء الزوجة فهو على جانب عظيم من الصعوبة على الزوج لان المرأة وهي عمود البيت ونوره ومدرسة الاطفال الاولى ساذجة جاهلة لم تسمح الآداب الاسلامية بتعليمها في ذلك العصر ولكن الغزالي حمل تلاميذه ما لا يطيقون وما لا يطيق هو فنصحهم ان يبحثوا عن زوجات حاصلات على الميزات الآتية وهي ثمانية :

١ الدين والخلق والحسن وخفة المهر والولادة والبكارة والنسب — وان لا تكون قرابة قريبة ... (الاولى) ان تكون صالحة ذات دين ... فانها ان كانت ضعيفة الدين في صيانة نفسها وفرجها زرت بزوجها : (الثانية) حسن الخلق وذلك اصل مهم في طلب الفراغة والاستعانة على الدين ... ثم قل : لا تنكح اربعاً المختلعة والمبارية والعاهرة والناشراخ (الثالثة) حسن الوجه فذلك ايضاً مطلوب إذ يحصل التحصن ... والغالب ان حسن الخلق وحسن الخلق لا يفرقان ... وقل عليه الصلاة والسلام خير نساكم من اذا نظر اليها زوجها سرته واذا أمرها اطاعته واذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله وانما يسر بالنظر اليها اذا كانت محبة للزوج (الرابعة) ان تكون خفيفة المهر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير النساء احسنهن وجوهاً وارخصهن مهوراً . وقد نهى عن المغالاة في المهر . تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نساؤه على عشرة دراهم واثاث بيت وكان رحي يدوجرة ووسادة من آدم حشوها ليف . وأولم على بعض نساؤه بمدين من شعير (الخامسة) ان تكون المرأة ولوداً فان عرفت بالعقر فليمتنع عن تزوجها (السادسة) ان تكون

بكرًا . قال عليه الصلاة والسلام لجابر وقد نكح ثيباً : هلاً بكرًا تلاعبها وتلاعبك ؟ وفي البكارة ثلاث فوائد أحدها ان تحب الزوج والثانية ان ذلك اكمل في مودته لها والثالثة انها لا تمن الى الزوج الاول وآكد الحب ما يقع مع الحبيب الاول ظالماً (السابعة) ان تكون من أهل بيت الدين والصلاح الخ (الثامنة) ان لا تكون من القرابة القريبة فان ذلك يقلل الشهوة . . . فان الولد يخلق نحيفاً وذلك لتأثيره في تضعيف الشهوة الخ (احياء علوم الدين جزء ٢ وجه ٢٧ و٢٨)

وفي موضع آخر قال الغزالي اقوالاً خطيرة جامعة لعلاقة الذكر بالانثى أشار اليها المؤلف في اللغة الانكليزية تليحاً لا تصريحاً مع الاعتذار عن ترجمتها الى الانكليزية . ونحن في هذه الترجمة ايضاً نقتصر على الاشارة الى ما قاله حجة الاسلام الغزالي ونكتفي بان نشير اليه اشارات خفيفة بالاجمال لان الوسط الذي نحن فيه غير الوسط الذي كان فيه . قال الغزالي : « اذا كان النشور من المرأة خاصة فالرجال قوأمون على النساء فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً . . . ولكن ينبغي أن يدرج في تأديبها وهو ان يقدم اولاً الوعظ والتحذير والتخويف فان لم ينجع ولا بها ظهره في المضجع او انفرد عنها بالفراش وهجرها وهو في البيت معها من ليلة الى ثلاث ليال فان لم ينجع ذلك فيها ضربها ضرباً غير مبرح بحيث يؤولها ولا يكسر لها عظماً ولا

(١٠)

يدي لها جسماً... وقد قيل لرسول الله (ص) ما حق المرأة على الرجل؟ قال يطعمها اذا طعم ويكسوها اذا اكتسى ولا يقبض الوجه ولا يضرب الا ضرباً غير مبرح ولا يهجرها الا في المبيت وله أن يغضب عليها ويهجرها في امر من امور الدين الى عشر والى عشرين والى شهر. فعل ذلك رسول الله (ص) الخ وبعد ان قال ما قال عن آداب الجماع، بين ايضاح والماع، مما امر التلميح اليه على الابصار والاسماع، انتقل الى آداب الولادة، فجاء بما ليس فيه لقراءتنا من افادة، ثم وصل الى آداب الطلاق القتال، فصال وجال، وها نحن نذكر لكم جزءاً يسيراً مما قال: ، لتعلموا ما وصلت اليه الحال، وتدركو المال:

«ليراع الزوج في الطلاق اربعة امور. الاول أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه فان الطلاق في الحيض او الطهر الذي جامع فيه حرام... فان فعل ذلك فليراجعها (وبعد ان ضرب المثل بتطبيق ابن عمر زوجته وأمر النبي بالمراجعة بعد الطلاق قال). الثاني ان يقتصر على طلقة واحدة فلا يجمع بين الثلاث لان الطلقة الواحدة بعد العدة تفيد المقصود ويستفيد بها الرجعة ان ندم في العدة، وتجديد النكاح ان اراد بعد العدة. واذا طلق ثلاثاً ربما ندم فيحتاج الى ان يتزوجها محلل والى الصبر مدة وعقد المحلل منهي عنه ويكون هو الساعي فيه ثم يكون قلبه معلقاً بزوجة الغير وتطبيقه اعني زوجة المحلل

بعد ان زوج منه ثم يورث ذلك تفيراً من الزوجة وكل ذلك ثمرة الجمع وفي
الواحدة كفاية في المقصود من غير محذور ولست اقول الجمع حرام ولكنه
مكروه بهذه المعاني - الى ان قال - كان الحسن بن علي رضي الله عنهما
مطلقاً ومنكاحاً . . . وكان علي رضي الله عنه يضجر من كثرة تطليقه فكان
يعتذر منه على المنبر ويقول في خطبه ان حسناً مطلق فلا تنكحوه حتى قام
رجل من همدان فقال والله يا امير المؤمنين لننكحنه ما شاء فلان أحب أمسك
وان شاء ترك فسر ذلك علياً وقال :

(ولو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلي بسلام)

والقصد من هذا بيان أن الطلاق مباح وقد وعد الله الغنى في الفراق
والنكاح جميعاً فقال وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان
يكونوا فقراء يغنمهم الله من فضله وقال سبحانه وتعالى وان يفرقا يغن الله
كلا من سعته . الرابع ان لا يفشي سرها لا في الطلاق ولا عند النكاح الخ
(احياء علوم الدين جزء ٢ وجه ٣٢ - وجه ٣٧)

ان جميع صلوات الحياة بعلمها ومعلولاتها، بسرورها واحزانها،
عرضت عرضاً متقناً في كتب الآداب الاسلامية التي ألفها وعلم بها
الاستاذ الغزالي وكل مظهر من مظاهر السلوك وضع أساسه على ما
قالوا انه كان من عادات النبي نفسه حتى انهم ذكروا في علوم آداب
الاسلام كيف يأكل الانسان الرماتة بالضبط وكيف يخاطب زوجته
وكيف يعاشرها وكيف يعاملها ليلاً ونهاراً الخ وكيف يغتسل وكيف

يتسوك وكيف تكون معاملته مع اليهود والنصارى وذكروا انواع الزينة المسموح بها حتى أن البحث في مواضع الطرب كان بحثاً جدياً في ايام الغزالي ولذلك برر استعمال الرقص والالخان اذا كان الغرض منها ذكر الله فقال :-

«فكل ما جاز السرور به جاز آثارة السرور فيه ويدل على هذا من النقل انشاد الناس فوق السطوح بالدف والالخان عند قدوم رسول الله (ص) طلع البدر علينا * من ثنيات الوداع * وجب الشكر علينا * ما دعا الله داع فهذا اظهار السرور لقدمه صلى الله عليه وسلم وهو سرور محمود فإظهاره بالشعر والتغنيات والرقص والحركات ايضاً محمود فقد نقل عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنهم حجلوا (أي رقصوا) في سرور اصابهم كما سيأتي في احكام الرقص وهو جائز في قدوم كل قادم يجوز الفرح به وفي كل سبب مباح من اسباب السرور ويدل على هذا ما روي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها انها قالت لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترني بردائه وانا انظر الى الحبشة يلعبون (اي يرقصون) في المسجد . . . وقالت عائشة رضي الله عنها دخل علي رسول الله (ص) وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعث (أي مهيج باعث على الشهوات) فاضطجع على الفراش وحول وجهه فدخل ابو بكر رضي الله عنه فانهرنى وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فاقبل عليه رسول الله (ص) وقال دعها. فلما غفل غمزتها فخرجتا وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالرق والحراب فقال رسول الله (ص) أتشهين

تنظرين ؟ قلت نعم فاقمني وراءه وخدي على خده ويقول دونكم يا بني
 ارفدة حتى اذا ملت قال حسبك ؟ قلت نعم قل فاذهبي . . . فهذه الاحاديث
 كلها في الصحيحين وهو نص صريح في ان الغناء واللعب ليس بحرام وفيها
 دلالة على انواع من الرخص (أي من التصريح والترخيص) الاول - اللعب
 ولا يخفى عادة الحبشة في الرقص واللعب والثاني - فعل ذلك في المسجد .
 والثالث - قوله صلى الله عليه وسلم دونكم يا بني ارفدة وهذا أمر باللعب
 والخماس له . . . والرابع - منعه لابي بكر وعمر من الانكار والتغيير وتعليه
 يانه يوم عيد . والخامس - وقوفه طويلاً في مشاهدة ذلك وسماعه لمواقفة
 عائشة - والسادس - قوله لعائشة أتشبهين تنظرين ؟ قال بعضهم رأيت
 مكتوباً في الانجيل : « غنينا لكم فلم تطربوا وزمرنا لكم فلم ترقصوا » اي
 شوقناكم بذكر الله فلم تشاقوا . . . وعن ابي الراج انه قل كنت انا وابن
 العوطي مارين . . . فاذا بقصر . ورجل بين يديه جارية تغني وتقول :-

كل يوم تلون غير هذا بك احسن

فاذا شاب . . . يسمع فقال يا جارية بالله . . . الا أعدت علي هذا البيت
 فأعدت فكان الشاب يقول هذا والله تلوني مع الحق في حالي فشوق شهقة
 ومات . . . (الادب الرابع) . . . ان رقص او تباكي فهو مباح . . . والرقص
 سبب في تحريك السرور . . . وقد روي عن جماعة من الصحابة رضي الله
 عنهم انهم حججوا (رقصوا) لما ورد عليهم سرور اوجب ذلك في قصة ابنة
 حمزة لما اختصم فيها علي بن ابي طالب وأخوه جعفر وزيد بن حارثة رضي
 الله عنهم فتشاحنوا في تربيتها فقال صلى الله عليه وسلم لعلي أنت مني وأنا

منك فحجل علي وقال بلعفر اشبهت خلقي وخلقي فحجل وراء حجل علي وقال
 زيد أنت اخونا ومولانا فحجل زيد وراء حجل جعفر . . . وفي رواية انه
 قال لعائشة رضي الله عنها أتجيبين ان تنظري الى زفن الحبشة ؟ والزفن هو
 الحجل والرقص وفلك يكون لفرح او شوق فحكاه حكم مهيجه ان كان فرحه
 محموداً والرقص يزيد ويؤكدده فهو محمود» (احياء علوم الدين جزء ٢ وجه
 ١٨٩ - وجه ٢٠٩ مختصر)

فيا للعجب !!! ان وجود المفارقات والتناقض بين نظريات
 الغزالي في تعاليمه عن علوم الآداب والسلوك لما يدهشنا ويحيرنا ويذهل
 عقولنا اذا تتبعنا آراءه . فانه رضي الله عنه احياناً يقودنا الى سلسلة
 من جبال عالية تناطح بقممها عنان سماء الآداب ، ويظهر لنا في انوارها
 ظل حقائق ارادة الله القدسية وأفكار الحق عن الحياة الابدية في
 الدار الأخرية . وتارة ينزل بنا الى حضيض الميول العالمية الجسدية
 ويجذب لنا ضروب الآمال التي لا تؤدي الا الى غاية واحدة لا نود
 ذكرها ويصرف أوقاتنا في ابحاث كهذه وما كنا لنظن ان عالماً عظيماً
 كالغزالي يخطط مثل هذه الافكار بقلمه ويجتهد في اثبات سندها
 المتصل الى الصحيحين وغيرها لولا سلطان الوسط والعادة . وما علينا
 الا ان نرجع الى قم جبال الآداب العالية الصحيحة التي يكون فيها
 الطقس صحياً يقوي العقل ويحسن الافكار ويعلق القلوب بالله تعالى

فان الغزالي مهذا جارى أقرانه في بعض القضايا الادبية نظراً للوسط الذي كان فيه ونظراً لما كان مقيداً به من قيود المعتقدات فقد كان له افكار سامية حصل عليها بالاطلاع على كتب غير اسلامية كثيرة ونخص بالذكر منها الكتب المقدسة ولذلك استختم هذه الافكار ايضاً لترقية الآداب الاسلامية فقال: «فاجتهد في معرفة اصلك حتى تعرف الطريق الى الحضرة الالهية وتبلغ الى مشاهدة الجلال والجمال وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب وتعلم ان هذه الصفات لاي شيء رُبت فيك فما خلقهم الله لتكون اسيرهم ولكن خلقهم الله ليكونوا أسراك وتسخرهم للسفر الذي قدامك وتجعل احدهما مركبك والآخر سلاحك حتى تصيد بهم سعادتك» (كتاب كيمياء السعادة وجه ٦).

ونرى ان الغزالي متأكد انه لا بد من بذل جهود اخلاقية لاجل الحصول على هذه الضلالة المنشودة لان محاربة الشهوة حرباً حقيقية تكلف المجاهد كل شيء حتى تضحية نفسه عند اللزوم. وعندنا صورة طبق الاصل لهذه الحروب الاخلاقية المقدمة بنفس الالفاظ التي نطق بها يوحنا بنيان اذ قال:

«فقال الحيواني كنت أرى دائماً ان اسعد رجل في الكون من لا ينكر على نفسه شيئاً من لذاتها ولم يخالف قط هذا الرأي بل عشت

حسب أميالي واذا وجدت لذة هذه المعيشة لم أبخل بخل الآخرين على التمسك بها مادحاً لهم اياها . فقال أرباب المجلس ما حاجتبا بعد الى شهود؟ قد سمعنا من فقه ما يكفي لاثبات التهمة عليه . ثم التفتوا الى السجبان وقالوا أقمه (أي اسجنه) الى جانب صاحبه . . . فعند ذلك قال القاضي لارباب المجلس . أيها السادة قد رأيتم هؤلاء وسمعتم الشكوى عليهم . . . وبقي ان تحكموا في أمرهم . . . فاجاب كبيرهم الموقن قد أجمعنا على انهم يستحقون الموت . فالتفت القاضي الى السجبان وقال له احتفظ بهم اذاً الى الغد الخ» (الحرب المقدسة وجهه ١٩٩ - وجهه ٢١٦)

فالجهد اذاً محصور بين الجسم والروح ولا بد ان الغزالي جرب بنفسه كما جرب بولس الرسول وكما هو ظاهر في وصفه الاول . فان هذا الامام يعرف العراك الداخلي القائم بين اميال الانسان ويعرف السامي منها والذني تمام المعرفة ولذا كرر ما هنالك من التناقض بين النفس والجسد في ما يختص بمركزيهما وقدرهما الادبي وفي مجاهدتهما للحصول على أعلى الدرجات - فكلاهما من الله وكلاهما عطية لنا وكلاهما يعلن لنا حكمة الله وقدرته . ولكن لا توجد مقارنة ولا مناسبة عند ما نحاول تقدير قيمة هذه العطية الحقيقية ولذا قال الامام الغزالي رضي الله عنه :

«إذا شئت أن تعرف نفسك فاعلم أنك مركب من شيئين (الأول) هذا القلب (الثاني) يسمى النفس والروح والنفس وهو القلب الذي تعرفه بعين الباطن وحيثقتك الباطن لأن الجسد أول وهو الآخر... وأما حقيقة القلب فليس من هذا العالم لكنه من عالم الغيب فهو في هذا العالم غريب وتلك القطعة اللحمية مركبة وكل أعضاء الجسد عساكره وهو الملك . ومعرفة الله تعالى ومشاهدة جمال الحضرة صفاته ، والتكليف عليه ، والخطاب معه ، وله الثواب ، وعليه العقاب ، والسعادة والشقاوة تلحقه ، والروح الحيواني في كل شيء تبعه ومعه ، ... فعليك بالمجاهدة حتى تعرفه لأنه جوهر عزيز» (كيميا السعادة وجه ٧ و ٨) والفضائل الأربع التي هي كما قال الغزالي :

« (١) اعتقاد صحيح لا يكون فيه بدعة (٢) توبة نصوح لا يرجع بعدها إلى زلة (٣) استرضاء الخصوم حتى لا يبقى لاحد عليك حق (٤) تحصيل علم الشريعة قدر ما تؤدي به أوامر الله تعالى» (رسالة أيها الولد وجه ١٣)

وقد أخذ الغزالي هذا الترتيب عن «افلاطون» وعن كثيرين غيره ممن تكلموا عن نظرية السلوك ولكن الغزالي سبك كل ما أخذه في قالب إسلامي وطلاه بلغة وبلاغة القرآن وحاطه بإسنانيد من الأحاديث ومن أقوال علماء الإسلام والصحابة ومن أقوال من ظهر أخيراً من كبار الصوفيين فظهر الشيء العام كأنه خاص والغير الإسلامي كأنه إسلامي ، وهذا جهاد لو تعلمون عظيم

جميل جداً تقليد الغزالي لبولس الرسول في ذكر كل رذيلة

تجاه ما يكسفها من الفضيله لانه بذلك اعطانا صحيفتين (الاولى) من
اطلاعه على تعاليم بولس الرسول (والثانية) من تجاربه الخاصة التي
اشار اليها في كتابه المنقذ من الضلال فقد ابتداءً فاورد ما يأتي من
الاحاديث الشريفة النبوية :-

« قال صلى الله عليه وسلم » يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة ازارني
فمن نازعني واحداً منها ألقته في جهنم ولا ابلي ، (الاحياء ج ٣ وجه ٢٣٥)
وقال : « تحاجت الجنة والنار فقالت النار اوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت
الجنة مالي لا يدخلني الا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم فقال الله للجنة انما
انت رحمتي ارحم بك من اشاء من عبادي . وقال للنار انما انت عذابي اعذب
بك من اشاء ، (الاحياء ج ٣ وجه ٢٣٥) وقد اورد حديثاً آخر ولكنه بلا
شك مقتبس من الانجيل المقدس تفريراً وهو : « قال رسول الله (ص) لا
يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار
من كان في قلبه مثقال حبة من خردل ايمان (الاحياء ج ٣ وجه ٢٣٤ و ٢٣٥)
وانه لحديث عظيم

ثم ذكر تعريف التواضع هذا : « قل ... كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم عندنا بقاء وكان صائماً فاتيناه عند الافطار بقدرح من لبن وجعلنا فيه
شيئاً من عسل فوضعه وقال اما اني لا احرمه ومن تواضع لله رفعه الله ومن
تكبر وضعه الله ومن اقتصد اغناه الله ومن بذر اقره الله ومن أكثر ذكر
الله احبه الله » (الاحياء ج ٣ وجه ٢٣٦)

وبهذه المناسبة ذكر الغزالي ما قاله سيدنا المسيح له المجد فقال :
«وقال المسيح عليه السلام طوبى للمتواضعين في الدنيا وهم اصحاب المنابر
يوم القيامة . طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا وهم الذين برثون الفردوس
يوم القيامة . طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا وهم الذين ينظرون الى الله يوم
القيامة» (الاحياء ج ٣ وجه ٢٣٧) «ولذلك قل المسيح عليه السلام ان الزرع
ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع
ولا تعمل في قلب المتكبر الا ترون ان من شمخ برأسه الى السقف شجوه
ومن طأطأ أظله وأكنه ؟ » (الاحياء ج ٣ وجه ٢٤٠) وقد ذكر الغزالي
كثيراً من انواع الكبرياء في المعرفة والعبادات والتفاخر بالحسب والنسب
والمحتد والجمال والهندام والغنى والجاه والسطوة والقوة والزعامة وذكر تواضع
النبي محمد الذي أكل مع خادمه وطحن على الرحى لئلا يفتخر ولم يرفض الدعوى
الى ولاية الخ « (انظر كتاب احياء العلوم جزء ٣ وجه ٢٤٨) فليت القراء
يتواضعون أمام نعمة الحق

ومما يلفت النظر ان الغزالي عندما يرتقي الى قمة تعاليمه الادبية
يبنى نظرياته على أقوال المسيح كما سترون في الفصل الاخير من
فصول هذا الكتاب. ولقد بذل الغزالي جهد الجبارة ليجد في شخصية
نبيه محمد الافكار السامية والآداب العالية التي يشعر هو نفسه بها
ليسندنا اليه عندما يعلم او يكتب افتخاراً باخلاق وافكار نبيه .
واجتهاده ظاهر ولو لم يجد الا النذر اليسير مما هو في قدرة كل انسان

في الوجود بدون استثناء — ان أخلاق النبي محمد كما هي ظاهرة من
أحاديثه الشريفة ومن تاريخه ومن آراء الأئمة من اتباعه تؤكد لنا انه
لم يكن بعيداً جداً عن نصوص الكتب المقدسة بل كان ينظر اليها
في حياته بعين الإجلال والإكرام كما جاء في القرآن عن القرآن: «وانه
لني زبر الاولين»

الفصل السابع

تصوف الغزالي

كانت المرحومة رابعة العدوية التي دفنت في القدس الشريف إحدى الصوفيات الكباريات في صدر الاسلام تقريباً . كانت من اهالي البصرة ولكنها توفيت ودفنت في القدس الشريف وكان القوم يهرعون الى ضريحها في العصور الوسطى كما يقول ابن خلكان ولا ريب ان الغزالي كان يكرر زيارته لهذا الضريح ايام وجوده في القدس الشريف . وقد اورد عنها في كتابه الاكبر ما يأتي : «قال ابو سليمان الداراني : بت ليلة عند رابعة فقامت الى محراب لها وقتت الى ناحية من البيت فلم تنزل قائمة الى السحر . فلما كان السحر قلت ما جزاء من قوا نأ على هذه الليلة ؟ قالت جزاؤه ان نصوم له غداً» (الاحياء ج ٤ وجه ٢٩٨)

وأما صوفيو الاسلام فقد اكتسبوا اسم التصوف» أخذاً عن أبي الخير التيناني الصوفي المذكور في جزء ٣ وجه ١٩ من الاحياء . والذي عاش في أواخر القرن الثاني للهجرة الحمديّة لانه هو ومن تبعه كانوا يلبسون جلباباً من الصوف . ومن كلمة «صوف» أخذوا اسم

تصوف، وفي أواخر القرن الثالث كان الجنيد الذي عاش حوالي ٢٩٧ بعد الهجرة هو الزعيم الأكبر لهذه الحركة الصوفية التي انتشرت في الاسلام . وكان الزعيم (الجنيد) من اكبر الثقات الذين أخذ عنهم الغزالي وكانت الصوفية عبارة رد فعل للتوحد والتكشف الخاص بالزاهدين من المسلمين . ولم يكن هذا النوع ليوفي حاجات أولئك الذين يفكرون كثيراً من أم الشرق الذين اعتنقوا الاسلام بكثرة في الايام التي سلت فيها سيوف الفتوحات . وقد انتشرت تعاليم هذا المبدأ الجديد في جميع الاقطار الاسلامية واختلطت بجميع طبقات القوم وبهذه الوسائل اكتسبت الطريقة الصوفية آراء متنوعة من وجهات كثيرة شيئاً فشيئاً . ومع هذه الحقائق كلها ما زلنا نراهم يقولون ان مبادئهم هذه مبنية على تعاليم القرآن الشريف والاحاديث النبوية الشريفة فتأمل في هذا بعين البصيرة !! ولكن ...

«لعل لهم عذراً وأنت تلوم»

ان صوفي الاسلام كما قال نيقولسون لم ينقلوا مبادئهم عن المسيحية والافلاطونية فقط ولكنهم نقلوها أيضاً عن الغنوسية والبوذية

وفوق هذا فاننا نرى في كثير من مؤلفات الصوفيين القدماء

آيات كثيرة جداً من أقوال سيدنا وفادينا المسيح له المجد وقد أخذوا
 ايضاً عن المسيحيين استعمال لبس الصوف والسكوت والذكر
 وبعض أعمال خاصة بنكران النفس وكانت تعاليمهم ذات شأن يذكر
 وفيها مقارنات عديدة لخصها نيقولسون بقوله : «هذه الكلمات
 نفسها ذكرت عن نبي الاسلام كما ذكرها مار يوحنا ومار بولس
 الرسولان ومن جاء من بعدها من آباء الكنيسة اللاهوتيين عن
 المسيح فان الصوفيين الاولين قالوا عن النبي محمد إنه نور الله وأنه
 موجود قبل خلق العالم وأنه ينبوع الحياة بكل انواعها وأنه الانسان
 الكامل الذي وُهب له جميع الصفات الالهية وقد روى الصوفيون
 عن نبي الاسلام انه قال «من رأى فقد رأى الله» ومع ذلك فاننا نرى
 في تعليم الاسلام ان التعليم عن «لونغوص» أي «الكلمة» في مقام
 أقل من الافلاطونية وهذا يتأكد لنا عند ما نرى ان الاعتقاد في
 واجب الانسان هو انحصاره في معرفة وحدة الله

وقد تعلموا الافلاطونية الجديدة فتعلموا الصدورات والوجد -
 والجزء الآتي من منهج السبعين ألف حجاب كما ظهر في حديث
 أحد المشايخ الصوفيين الذي ألقاه للقس جردنر يؤكد لنا ان هنالك
 آثاراً باقية من تعاليم الغنوستيين . قال ذلك الاستاذ الصوفي في

حديثه المذكور : «سبعون ألف حجاب يفصلون الله الذي هو الحقيقة الواحدة عن عالم الماديات أو المحسوسات ، وكل نفس تمر قبل ولادتها بكل هذه السبعين ألف حجاب ، فالنصف الداخلي لهذه الحجب نور والنصف الخارجي لها ظلام ، وفي مرورها على كل واحد من حجب النور في هذه السيادة التي قوم بها النفس قبل الميلاد تخلع النفس صفة من الصفات السموية ، وفي مرورها على كل واحد من حجب الظلام تلبس صفة من الصفات الارضية ولذا فان الطفل يولد باكياً لان النفس تعلم صعوبة انفصالها عن الله وابتعادها عن الحقيقة الواحدة سبحانه وتعالى ، وعندما يبكي الطفل في نومه يكون قد تذكر شيئاً مما فقدته مما كان له قبل ولادته^(١) وأيضاً فالمرور من تلك الحجب كلها جلب علينا النسيان ولذا سمي الرجل منا انسان ، وكل منا مسجون في داخل جسمه يفصله ذلك الجسم عن الله وأما

(١) أما بكاء الطفل عند الولادة فلصغر جسمه من احتمال ضغطه هواء الجو بعد ان كان مكتوناً في بطن أمه منذ بدء تكوينه ولشدة ضغط الام عليه اثناء الولادة لانه لا يولد بسهولة كما هو معروف عند كل من له ذرة من العقل . وأما بكاءه في كل ايام صغره فهو لانه يتألم من الامراض المحيطة بالاطفال عادة أو يكون جائعاً فلا يرى خير مترجم عن حاجته سوى البكاء . وأما بكاءه اثناء النوم فهو لان الطفل كثير الاحلام فيعلم انه جائع أو ان في يد أخيه الاكبر منه شيئاً يريد لنفسه مثلاً فيبكي لانه حديث بين مظاهر العالم

الغرض الاسمي عند الصوفيين فهو ان يتمكن الانسان من الهرب من هذا السجن ورؤية تلك السبعين ألف حجاب والعود الى الصلة الاصلية مع الواحد الاحد حال كونه ما زال مسجوناً في هذا الجسد أما من جهة تأثير البوذية فقد لفت الاستاذ «جولدنزهر» نظر العالم الى أن تعليم بوذا كان له تأثير هائل في دولة الفرس الشرقية في القرن الحادي عشر وعلى الاخص في مدينة «بلخ» وهي مدينة شهيرة بكثرة عدد الصوفيين الذين كانوا يقيمون فيها . وعن البوذيين أخذ استعمال (السبحة) (وقد استعملها المسيحيون بعد ذلك في اوروبا) وربما استعملها ايضاً اتباع مذهب الفناء في الله

قال نيقولسون : «ينما يختلف التعبير عن الفناء اختلافاً جوهرياً عما قاله برقاتانزى ان الالفاظ تنفق اتفاقاً قريباً جداً في وجهات أخرى بشكل يجعلنا نعتقد انها ليسا منفصلين اتصالاً تاماً فان الفناء له وجهة أدبية وهو يجذب فكرة ابعاد الشهوات والرغبات ويفهمنا ان انقراط عقد الصفات الرديئة يأتي (كما يقولون) من الاستمرار على الاتصاف بالصفات والاعمال الطيبة التي هي ضدها» فتأديب النفس وتهذيب الاخلاق بواسطة التأمل في الخالق سبحانه وتعالى والغرض الاول عند الصوفيين ولكي يعرف الانسان

الله ووجب عليه ان يكون شديد الروحانية فيه وأخيراً يذهب الى الفناء التام فيه ومن أقوال الصوفيين المأثورة المنسوبة الى الذات الالهية حديث قلبي رواه النبي عن الله . قال الله عز وجل : «كنت كنزاً مخفياً فأردت ان أعرف وأعبد فخلقت الخلق فمرفوني وعبودني» وكما ان العالم هو مرآة الله فهكذا قلب الانسان في نظر الصوفيين هو مرآة العالم . واذا أراد الانسان ان يعرف الله ووجب عليه ان يبحث عنه في قلبه . وقال الغزالي في هذا :

«اعلم ان العلوم التي ليست ضرورية وانما تحصل في القلب في بعض الاحوال تختلف الحال في حصولها . . . وحقبة القول فيه ان القلب مستعد لان تنجلي فيه حقيقة الحق في الاشياء كلها وانما حيل بينه وبينها بالاسباب الخمسة التي سبق ذكرها فهي كالحجاب المسدل الحال بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله الى يوم القيامة وتجلي حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها والحجاب بين المرأتين تارة يزال باليد وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه كذلك قد تهب رياح اللطاف وتنكشف الحجب عن عين القلوب فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون في المستقبل وتتمام ارتفاع الحجاب بالموت فيه ينكشف الغطاء وينكشف أيضاً في اليقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى فيلمع في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق

المخاطف واخرى على حد ما دوامه في غاية التدور فلم يفارق الالهام الا كتساب
في نفس العلم ولا في محله ولا في سببه ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب
فان ذلك ليس باختيار العبد ولم يفارق الوحي الالهام في شيء من ذلك بل
في مشاهدة الملك المقيد للعلم فان العلم انما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة
واليه الاشارة بقوله تعالى : فوما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً او من
وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء » فاذا عرفت هذا فاعلم
ان ميل أهل التصوف هو الى العلوم الالهامية دون التبليغية فلذلك لم يحرصوا
على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الاقويل والادلة
المذكورة بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع
العلائق كلها والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك كان الله
هو المتولي لقلب عبده والمتكفل بتنويره بانوار العلم . واذا تولى الله أمر
القلب فاضت عليه الرحمة واشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف
له سر الملكوت وانكشف عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة
وتلاأت فيه حقائق الامور الالهية » (كتاب احياء علوم الدين جزء ٣
وجه ١٤ و ١٥)

فالفناء في الله أو الاتحاد معه هو الغرض الاسمى في تعاليم
الصوفيين واعمالهم وانكار النفس كلية يمهد الطريق لفهم كنه الحق
ولهذا الطريق الى الله درجات قيل على وجه عام انها ثمانية وهي :
الخدمة - المحبة - التصور - المعرفة - الارتقاء - الصديق -

الاتحاد - الفناء - . وقد ذهب بعض الصوفيين الى ان طرحوها ظواهر الدين جانباً ولم يكتروا بقوانين العرف والآداب . والغزالي بحمد الله لم يكن من زمرة هؤلاء المرتكبين . ولقد كان يقول ان الفقيه العادي لا يمكن ان يسير في طريق الصوفي لانه لم يزل عبداً للالغاز متجولاً في دياجير الظلام فان الصلاة والحج والصيام تكون ذات معنيين أحدهما خارجي يفهمه الرجل العادي والثاني يفهمه الرجل الصوفي الحقيقي الذي وهب نفسه لله تماماً - وكان الامام الغزالي يعلم حق العلم بانخطر الداهم الآتي من وراء الصوفية من جهة نفس العقيدة لانها مائلة الى وحدة الوجود وتأليه الكون وكذلك الميل الى مذهب الاباحية^(١) وقد رأى الغزالي ان انفصال الدين عن الآداب هو المصيبة العظمى . ومن المؤكد ان الامام الغزالي قد انتابته نوبة حزن شديد من أمثال شعر فيلسوف الاسلام عمر الخيام الذي قال فيه :

إِنَّ عَقْلِي ضِيَاعٌ عَقْلِي وَدِينِي أَنْ لَا دِينَ لِي وَبِقِيْنِي
أَنْ خَمْرِي شَرٌّ أَلْزَمَانِ تَقِيْنِي فَلَأُطَلِّقَ دِينِي وَعَقْلِي بَتَاتَانِي

(١) أي ان كل شيء مباح لهم ولو كان شراً وقد ندد الغزالي عليهم في الاحياء جزء ٤
وجه ٣١ سطر ٩ و ١٠ (المصحح)

وَأَخْطَبُوا إِلَيَّ إِلَى الْكُرُومِ الْفَتَاتَا بِنْتُ كَزْمٍ كَرِيمَةٍ وَأَبُوهَا
رَجُلٌ صَدْرُهُ يَضُمُّ رِجَالًا

(عمر الخيام ترجمة البستاني وجه ٨٥)

ان تعاليم الغزالي عن الخطيئة والتوبة كانت على أساس أمتن
من ذلك كثيراً كما سنرى في ما بعد. ومن الرجوع الى العصور
الاولى زى ان مذهب تأليه الكون وجد لنفسه مكاناً هاماً في
خراسان بين المسلمين وان الفكرة القديمة عن التجسد ظهرت عندما
انفصلت شيعة الشاه واعجبت بعليّ ذلك الاعجاب الهائل. أما شيعة
«الجعفرية» فقد ألهمت الامام جعفر الصادق وعبدته كأنه الله. واعتقد
غيرهم ان الروح القدس نزل على عبدالله بن عمر. وفي خراسان انتشر
الاعتقاد ان ابا مسلم الخراساني القائد العظيم الذي تغلب على دولة بني امية
واقام بدلاً منها دولة العباسيين كان هو نفسه رمزاً جسدياً لروح الله
وفي نفس الاقليم الذي كان يحكمه المنصور ثاني خلفاء العباسيين كان
هناك زعيم ديني يسمى «أوستاسس» قال انه مظهر من مظاهر الله
وقد التفّ حوله الوف من الناس ولم يمكن التغلب على هذه الحركة
الا بعراك شديد. وفي ايام الخليفة المهدي ظهر شخص سمى نفسه

« الله المتجسد » واسمه عطا ولأنه كان دائماً يلبس خوذة ذهبية كان يلقب بالمقنع وقد تبعه كثيرون ووقف امام وجه الخليفة عدة سنين الى سنة ٧٧٩ ميلادية حيث حجز في قلعة فقتل نفسه هو وكل حريمه وخدمه . فأراء الغزالي في هذه المناظرات الصوفية وخطر هذا النوع من التصوف كل هذه قد ذكرها في كتابه «تهافت الفلاسفة» حيث رد على عشرين اصلاً من اصولهم الخاطئة رداً قوياً ومن شاء الزيادة في هذا الباب فليراجع ذلك الكتاب ولم يكن الغزالي عالماً بالخطر الذي ينشأ عن تطرفهم هذا فقط بل كان يعلم ايضاً ان التطرف في الدين كثيراً ما أدى الى الكفر ولذا قال :

«وصار احدهم يدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتهم من يدعي الوجد والحب لله تعالى ويزعم انه والله بالله ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة او كفر فيدعي حب الله قبل معرفته ... ولا يلتفتوا الى ما يفيض عليهم من الانوار في الطريق ولا الى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يعرجوا على القرح بها والاتفات اليها جادين في السير حتى قاربوا فوصلوا الى حد القربة الى الله فظنوا انهم قد وصلوا الى الله فوقوا وغلطوا فان لله تعالى سبعين حجاباً من نور لا يصل السالك الى حجاب من تلك الحجاب في الطريق

الا ويظن انه قد وصل اليه وسالك هذه الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض هذه الحجب وقد يغتر بالحجاب الاول واول الحجب بين الله والعبد هو نفسه فانه هو ايضاً أمر رباني وهو نور من انوار الله تعالى . . . وهو في اول الامر محجوب بمشكات هي كالساتر له فاذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد اشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب الى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدهشه وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة فيقول - انا الحق - فان لم يتضح له ما وراء ذلك اعتر به ووقف عليه وهلك « (الاحياء ج ٣ وجه ٢٨٥ و ٢٨٦ و ٢٨٧).

وزيادة على ذلك فقد زاد عدد التابعين للصوفية لان مجرد التهييج في الدين كان منظوراً اليه كدليل على الفكر المتوقد والتعمق الكثير - وتقسم الاحوال التي تنشأ عن المنظومات الشعرية الى اربع طبقات . الاولى منها وهي الاقل هي ما يشعر به الانسان من اللذة البسيطة التي تأتي من النظم . والثانية السرور من سماع النظم وفهم الكلمات على مظاهر مبناها . والثالثة تشمل اولئك الذين يطبقون معاني الكلمات على الصلوات بين الله والانسان ويدخل تحت هذا النوع ما يمكن وصفه بانه اصل من اصول الصوفية كما قال الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال حيث قال :

«ثم اني لما فرغت من هذه العلوم اقبلت بهمتي على طريق الصوفية وعلمت.

ان طريقهم اتما تم بعلم وعمل وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتزهر
 عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة يتوصل بها الى تخليق القلب عن غير
 الله تعالى وتخليته بذكر الله وكان العلم أيسر علي من العمل فابتدأت بتحصيل
 علمهم من مطالعة كتبهم ... حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية وحصلت
 على ما يمكن ان يحصل من طريقهم بالتعلم والسماح وظهر لي ان اخص
 خواصهم ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات ...
 وكان قد ظهر عندي انه لا مطمع لي في سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف
 النفس عن الهوى وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب بالدنيا والتجافي عن
 دار الغرور والابابة الى دار الخلود والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ...
 والقدر الذي لا اذكره لينتفع به اني علمت يقيناً ان الصوفية هم السالكون
 لطريق الله تعالى ، (المتقد وجه ٢٧ الخ)

وفي موضع آخر يقارن الامام الغزالي هذا النوع من طهارة
 النفس الانسانية بمرآة لامعة - والامام طبعاً يقصد بالمرآة مرآة
 الاقدمين التي كانت تصنع في أيامه من نحاس أو برنز لامع -
 تعكس أي لون ينبسط عليها وهو يكرر المرة بعد الاخرى هذا
 المجاز في كتبه - والخطية تشبه الصداً على مرآة النفس فالنور
 ينعكس فيها ولكن الاشعة ليست مضيئة بل تستمر غير مضيئة
 حتى تمحو التوبة صداً الخطية والشهوة

ان صوفية الغزالي كانت دائماً مصحوبة بتدقيق عظيم من جهته
في وجوب اصول الايمان الستة والاركان الخمسة التي بواسطتها يمكن
النفس المخلصة ان تحصل على الدافع الاساسي نحو الله - ومع ذلك
فان الغزالي بعد ان تشبعت نفسه من قول المسيح في انجيله الطاهر
الصحيح :

«احترزوا من ان تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم ... واما
انت فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك لكي تكون
صدقتك في الخفاء . فابوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية . ومتى
صليت فلا تكن كالمرائين ... واما انت فمتى صليت فادخل الى مخدعك
واغلق بابك وصل الى ابيك الذي في الخفاء . فابوك الذي يرى في الخفاء
يجازيك علانية ... ومتى صمت فلا تكونوا عابسين كالمرائين فانهم يغيرون
وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين ... واما انت فمتى صمت فادهن رأسك
واغسل وجهك لكي لا تظهر للناس صائماً بل لا يبيك الذي يرى في الخفاء .
فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية » (متى ٦: ٣-١٨)

وبعد ان عرف من تعاليم المسيح ان المهم في العبادة ليس القيام
بالفروض الوقتية الظاهرة بل تسليم القلب والنفس الى الله والالتجاء
اليه والاتصال به تمت به صوفيته الى التدقيق في ضرورة العبادة
الروحية لان مجرد تأدية الفرض بالشكل الظاهر لا معنى له في ذاته

ولا يفيد بمقدار العبادة الروحية. ولذلك أكد ضرورة الاقتداء بالله تعالى فقال :

والعلم بانه تعالى سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هو اجس الضمير وخفايا الوهم والتفكر ولا يشذ عن سماعه صوت ديب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء وكيف لا يكون سمياً بصيراً والسمع والبصر كمال لا محالة وليس ينقص فكيف يكون المخلوق أكل من الخالق والمصنوع اسنى وأتم من الصانع ؟ - وهكذا استمر الامام في ذكر صفات الله وشرحها الى ان قال - ان الله تعالى عالم بعلم حي بحياة قادر بقدره ومريد برادة ومتكلم بكلام وسميع بسمع وبصير ببصر وله هذه الارصاف من هذه الصفات القديمة. وقول القائل عالم بلا علم كقوله غني بلا مال وعلم بلا عالم وعالم بلا معلوم فان المعلوم والعلم والعالم متلازمة كالقتل والمقتول والقاتل وكما لا يتصور قاتل بلا قتل ولا قتيل ولا يتصور قتيل بلا قتل ولا قاتل كذلك لا يتصور عالم بلا علم ولا علم بلا معلوم ولا معلوم بلا عالم بل هذه الثلاثة متلازمة في العقل لا ينفك بعض منها عن البعض. (كتاب احياء علوم الدين جزء ١ وج ٨١. و ٨٢ تحت عنوان الركن الثاني)

وكان سعيد بن ابي الخير الذي عاش من سنة ٣٩٦ - سنة ٤٤٠ بعد الهجرة في خراسان ايضاً ممن يدرسون علوم الغزالي في علم التصوف فسيئلاً يوماً ما: ما هو الصوفي؟. فاجاب: «هذا هو الصوفي».

كل ما هو في رأسك انسه ، وكل ما في يدك اصرفه ، وكل ما يحدث لك أعرض عنه ، الخ الخ»

واما من جهة رقي التعليم في علم التصوف وأصله وكنهه فقد ذكر الدكتور «ج. سنوك هرجروني» ان المصباح الذي قال محمد ان الله امره ان يرفعه ليهدي العالم الانساني بنوره قد اتسع الى درجة كبيرة بعد وفاة محمد ليضيء بنوره على عدد كبير من بني الانسان . ولكن ليس هذا في الامكان بدون تجديد ملء مخازنه من جميع انواع الزيوت التي اضاعت سبل كل بني الانسان من قديم الزمان في كل عصر ومصر . وعلى هذا فزيت الصوفيين لا منشأ له إلا الدائرة المسيحية كما انه لا يمكن الخطأ في القول باز أصل زيت الصوفية ايضاً من الفلسفة الاقلاطونية الجديدة وقد ادخل عليه ايضاً شيء من بلاد الفرس وشيء من بلاد الهند - وكان ايضاً اولئك الذين هم بطهارتهم وتقشفاتهم وطرقهم المختلفة في انكار الجسد وميوله قد حرروا الروح كي تصعد وتتحد مع أصل اصول الكون . وقد بلغت الدرجة بالبعض انهم عند تعليمهم عن الايمان طوحوا بانفسهم الى هاوية التجديف . فيقول احدهم بلامبالاة «انا الله» (تعالي الله عن ذلك علواً كبيراً) الا ان الراوي يقول ايضاً : ولو ان الكثيرين ذهبوا الى هذا التطرف

والى هذه الافكار السخيفة من جهة الاشرار بالله، وذهبوا الى نسيان
الشرع الادبي ومكارم الاخلاق الا ان الامام الغزالي نازلم مناظرة
الابطال فهزمهم وانتقد الاسلام انتقاداً كبيراً من خطرهم فبذ فكرة
كمال النفس من الوجهة الادبية وعلم ان طهارة النفس هي الطريق
الوحيد للوصول الى المولى سبحانه وتعالى وأوضح ان صوفيته كانت
ترمي الى خطر الاشرار بالله والكفر الذي وقع فيه كثيرون غيره من
متهوسي الصوفيين بتخيلاتهم التي ادت بهم الى علم الاكثارات بالشرع
الموحى به وبالآداب الفاضلة ايضاً. وربما لم يكن للامام الغزالي من
دافع الى هذا الجهاد ضد الاشرار والفساد في طرق الصوفيين الا قول
الفادي المجيد: «من الداخلة من قلوب الناس تخرج الافكار الشريرة
زنى، فسق، قتل، سرقة، طمع، نخبت، مكر، عهارة، عين شريرة
تجديف، كبرياء، جهل، جميع هذه الشرور تخرج من الداخلة
وتنجس الانسان» (ص ٢١: ٢٣) وقوله ايضاً له المجد: «تحب الرب
المك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك. هذه هي
الوصية الاولى العظمى. والثانية مثلها. تحب قريبك كنفسك. بهاتين
الوصيتين يتعلق الناموس كله والانبياء» (مت ٢٢: ٣٧-٤٠) لان
الغزالي رأى تلك النجاسات وذلك الاشرار ضد الله الذي اوجب

الفادي عليه أن يحبه من كل قلبه ومن كل نفسه ومن كل فكره
ورأى ان اولئك الذين اوجب الفادي عليه ان يحبهم كنفسه ساقطون
في ذلك الفخ فكان عليه ان يجاهد لتخليصهم واعادة نفوسهم الى الله
ففعل ما فعل باخلاص تام لا نراه الا في المبشرين باسم الفادي المجيد
في كل اجزاء الكون فانتقد الصوفية من خطر الكفر وخطر الفساد
في الحياة

انه لا مندوحة لنا عن القول ان الصوفية اكتسبت مركزها
الادبي السامي في ايام الغزالي واندجبت بهمة مع الشرع نفسه ومن
ذلك الحين تكون الثالوث العلمي الاسلامي الذي يدرس الآن في المعاهد
الاسلامية الكبرى

واما من جهة علم الكلام فقد قال اعظم المؤلفين ما هو اكثر من
ذلك . قالوا : لاجل الحصول على الفقه الاسلامي يجب ان تقرأ كتب
المذاهب الاربعة ولكن مؤلفات الغزالي مع ذلك لها المركز الاسمي
في ما يختص بالآداب الاسلامية

ولنرجع مرة اخرى الي ايراد بعض اقوال «هرجروني» فانه قال :
«ان آداب الغزالي الصوفية معترف بها على وجه عام كانتها آداب اصيلة
اسلمية ، وان احتمال الوصول الى درجة عالية روحية بواسطة انكار

النفس والتأمل أمر لا يشك فيه . وقد انتشرت بين المسلمين فكرة هذا فخواها : « ان الشرع الشريف يقدم الينا خبز الحياة نحن جميع المؤمنين وان علم الكلام هو السلاح الذي ندافع به عن كنوز الدين ضد الاشراك والكفر والزندقة ولكن الصوفية تثير الطريق المؤدي الى الله »

ان هذا التعليم مهم ولكنه خيب الآمال خيبة هائلة في موضوع واحد . ألا وهو ان صوفية هذا الامام (الغزالي) ليست لاجل الجميع لانها طريقة سامية لا يمكن أن يتبعها سوى فريق من خاصة القوم امتلأت نفوسهم من الترفع الديني وحب الانفصال عن العامة حتى اصبحوا ممتازين يخالفون غيرهم في كثير من القضايا الادبية والشرعية فأعلى الطبقات الاسلامية وأفضلها يقصرون الحياة الدينية الحققة على افراد قلائل ولو احسنوا لامتزجوا بجميع الطبقات وجاهدوا في رفع الجميع الى هذا المستوى العالي حتى يصير نجاح الغزالي عاماً لا خاصاً . وعلى ما يرام . ولكنهم بكل اسف كانوا يرون كما كان يرى قدماء الفريسيين ان اهمال اتباع الجماعة خطية لا تقبل التوبة عنها . وكانوا يرون ان تعاليم حجة الاسلام الغزالي لم يكن المقصود منها بمجموع الأمة الاسلامية كلها ولكن المقصود منها هم افراد قليلون بالنسبة الى

مجموع الامة . فان هذا من قول الفادي الحبيب : «تعالوا الي يا جميع المتعبين والثيلي الاحمال وانا اريحكم ؟»
ومما هو خليق بالذكر اننا نرى الغزالي أسس للصوفية ركناً
ركيناً في طوس ونشر تعاليمه فيها بقوة هائلة في ايام حياته ولكننا نرى
من جهة اخرى انه لم يترك وراءه شيعة معروفة تحتفظ بتعاليمه وتدهو
اليها - ويرى الاستاذ ماكدونالد انه في عصر الامام الغزالي لم تكن
حركة تأسيس الجمعيات والاخوة قد ابتدأت ولكن هذا الرأي خطأ
لاننا نرى في كتاب كشف المحجوب المؤلف سنة ٤٥٦ هجرية بياناً عن
فئات الدراويش الكثيرة وعن طرقهم الخاصة في العبادة والاذكار
وفوق ذلك نرى ايضاً ان تعاليم الغزالي صارت شائعة شيوعاً تاماً
كاملاً بين الصوفيين هذه الايام وهذا ما نسرله لان الصوفية الحققة
من الاسباب التي تخرض الانسان على الشعور بخطاياها وضرورة
الخلاص منها

ولقد بحث القس الكزن جردز بحثاً فائضاً في مؤلفات الغزالي
عن الصوفيين وخصوصاً في كتاب «مشكاة الانوار» وقد أورد
حضرتة في بحثه هذا ردوداً هامة على الانتقادات التي وجهت الى هذا
الكتاب ويلخص ما قاله في القول انه مهما كانت طرق الامام الغزالي

في التعليم فانه كان مخلصاً حميد القصد . وها نحن نورد لقراءتنا في ما يلي فقرتين من ذلك البحث لنعطي لهم نموذجاً من طرق الغزالي وعند التعمق في تفسير الحديث الخاص بالسبعين الف حجاب التي حجب بها الله نفسه عن نظر العالم يجد الغزالي فرصة لمقارنة أديان وشيع كثيرة بصفة كونها محجوبة عن النور الواحدة اكثر من الاخرى وبحسب قربها لواحدة اكثر من الاخرى من مجرد الحقيقة الواحدة - اي من الله - وأما الحجب التي تحجب الاديان والشيع الكثيرة عن النور الالهي فقد ذكر انها نوعان حجب نور وحجب ظلام - وقاعدة ترتيب تلك الاديان هي بحسب ما اذا كان تابوها وشيعها مقنعون : (اولاً) بحجب ظلام (ثانياً) بحجب ظلام وحجب نور مختلطين ممتزجين (ثالثاً) بحجب نور فقط . وينتهي الحديث بشرح قصيدة تتأكد به ان «الواصلين» اتبعوا الطريق الصوفية للكشف باجلى واكمل اشكاله . فاما اصحاب النوع الاول أي المقنعين بحجب الظلام فقط اولئك الذين لقبوا بلقب «ملحدين» فهم الذين ينكرون وجود الله واليوم الآخر ويقسمون الى قسمين قسم منهم بحث عن اسباب وجود العالم وأدّى به بحثه الى ان الطبيعة هي ذلك السبب . والقسم الثاني هم اولئك الذين لم يهتموا يبحث مثل هذا . فاما

اصحاب القسم الاول فهم الدهريون الذين يمكننا أن نلقبهم بعكس ما لقبهم به الغزالي الذي لم يذكر شيئاً مطلقاً عن اهوائهم واميالهم الحيوانية. ومن غريب الافكار عند متوسطي القوم ان اللعنة العظمى معدة لمن يرى رأياً كاذباً لا لمن تكون حياته حياة شر وفسوق — واما فاعلو الشر فهم القسم الثاني وهم اولئك الذين حصلوا على اوفر قسط من الشره وحب الذات ولا يفكرون الا في الحصول على غاياتهم الشريرة وترتيبهم هكذا (١) الباحثون عن الذات الشهوانية (٢) الباحثون وراء العظمة (٣) الباحثون وراء المال (٤) الباحثون وراء المجد العالمي الكاذب — فاما الاولون فهم الذين لا يعبأون الا بالحياة كما قرر فلاسفة علم الاحساس. وحجب هؤلاء هي ذات الحجب المنسوبة الى الوحش. واما الثانون فهم فئة المفترسين وقد لقبوا «بالسباعية» وقد ذكر منهم العرب والكرد وغيرهم من الجهلاء الكثيرين. واما الثالثون والرابعون فلا يحتاج امرهم الى شرح ولا تفسير واما اصحاب النوع الثاني أي المقنعين بحجب ظلام وحجب نور مختلطين ممتزجين فان رأي الغزالي في حجب الظلام على وجه عام يمكن معرفته من مقارنة هذا النوع بالنوع السابق — ففي هذا النوع ذكرت حجب الظلام بصفة كونها عبارة عن فهم اللاهوت فهماً

خطأ لقصر العقل الانساني في تركيبه أي نظراً الى احساسات العقل الانساني وتخيلاته التي لا اساس لها وذلك بخلاف الحجب الظلامية المذكورة في النوع الاول التي هي عبارة عن الماديات التي اتبعها اصحاب النوع الاول وهاموا بها بدون التفكير في الله الذي هو الحقيقة الواحدة مطلقاً . واما اصحاب النوع الثالث أي المقنعين بحجب نور فقط فحجبهم هي الوجة الحقيقية الا انها جزئية فقط ولكن يمكن للانسان ان يرتفع بواسطتها الى درجة التأمل في اللاهوت او الى كل ما هو اسمى من نفسه ومن ادراكه على الاقل — وقد قلنا ان هذه الوجة جزئية لانها لا تتعدى وجة واحدة لاهوتية مثل الجمال والجلالة والعزة وما أشبه ذلك . واصحاب هذا النوع يعتقدون ان هذه الوجة هي الكل في الكل وانها تجعل كل ما هو جميل او جليل او عزيز شبيهاً بالله وعلى هذا فانهم يظهرون شيئاً ويخفون آخر عن الله ولذا فقد سميت حجب نور .

وهذا يذكرنا بقول الرسول بولس : « لاننا نعلم بعض العلم وتنبأ بعض التنبؤ ولكن متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض . لما كنت طفلاً كطفل كنت اتكلم وكطفل كنت أفطن وكطفل كنت افكر . ولكن لما صرت رجلاً ابطلت ما للطفل . فاننا ننظر

الآن في مرآة في لغز لكن حيثئذ وجهها لوجه . الآن اعرف بعض المعرفة
 لكن حيثئذ سأعرف كما عرفت» (١ كو ١٣) وهنا يتأكد للقارئ
 الكريم بعد المقارنة بين قول الغزالي عن اصحاب حجب النور فقط
 وقول الرسول ان الغزالي أخذ جل تصوفه من مبادئ الانجيل
 المقدس لان رأي الغزالي هو عدى قول الرسول ومعناه بالتمام .
 والسابقون أولى بالاكرام

ولقد قال الاستاذ مرجليوث^(١) وامثاله ان التصوف الاسلامي
 مؤسس على التعاليم المسيحية وهذا القول حق بنوع خاص من جهة
 الاستاذ ابي طالب المكي صاحب (قوت القلوب) الذي عظمه ومدحه
 الامام الغزالي واحترمه احتراماً عظيماً في كتاباته في موضوع الصوفية .
 ونرى مقتطفات كثيرة واشارات عديدة الى الانجيل ليس فقط في
 كتاب قوت القلوب لابي طالب المكي بل في جميع مؤلفات الامام
 الغزالي أيضاً كما سنرى في ما بعد في هذا الكتاب^(٢)

وقد وضع الغزالي نماذج أدعية خشوعية للصلوات الصباحية
 والمسائية لا تختلف كثيراً عن الادعية المذكورة في كتب الصلوات

(١) كتاب تطور الاسلام للاستاذ مرجليوث بجامعة اكنفورد
 (٢) راجع الفصل الثامن والاخير من هذا الكتاب (خياة الغزالي)

العامة المسيحية (انظر كتاب الاحياء جزء ١ وجه ٢٢٠ الخ وكتاب الصلاة العامة للمسيحيين الاسقفيين وكتاب الادعية للاقباط الاورثوذكس) فاننا رأينا ان تعليم الغزالي في هذا الموضوع مجهود قصد به ان تكون الصلوات روحية كصلوات المسيحيين وهو لم يتعد في هذا التعليم عن تعاليم الصوفيين القدماء . ولكي لا ينشغل الانسان بمنظور ما فقد نصحه الصوفيون ومنهم الغزالي ان يصلي امام حائط خال من كل زخرف خوفاً من رؤية كل ما يشغله من تفرغ القلب امام الله . وقد افتخر آخرون بانه يمكنهم الوصول الى تلك الدرجة من الالتفات مهما كانت الاحوال حتى قال الغزالي في ذلك :

«وكان الربيع يقول ما دخلت في صلاة قط فاهمني فيها الا ما أقول وما يقال لي . وكان عامر بن عبد الله من خاشعي المصلين وكان اذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف وتحدث النساء بما يردن في البيت ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله وقيل له ذات يوم هل تحدثك همسك في الصلاة بشيء ؟ قال نعم بوقوفني بين يدي الله عز وجل ومنصرفي الى احدى الدارين . قيل فهل تجدد شيئاً مما تجد نحن من امور الدنيا ؟ قال لان تختلف الأسننة في أحب الي من أن اجدد في صلاتي ما تجدون . وكان يقول لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً . وقد كان مسلم بن يسار منهم وقد قلنا انه لم يشعر بسقوط اسطوانة في المسجد وهو في الصلاة وتأكل طرف من اطراف بعضهم واحتيج فيه الى القطع فلم يمكن

منه فقيل انه في الصلاة لا يحس بما يجري عليه فقطع وهو في الصلاة . وقال بعضهم الصلاة من الآخرة فاذا دخلت فيها خرجت من الدنيا » (الاحياء ج ١ وجه ١٢٥) الخ

ومع ذلك فان الغزالي كان يعتقد بضرورة الاحترام واكد وجوب الاستعداد الخارجي والداخلي للصلاة اقتداء بقول المسيح : «افعلوا هذه ولا تتركوا تلك» ولذلك قال : «وكان ابو الدرداء رضي الله عنه يقول : من فقه الرجل ان يبدأ بحاجته قبل دخوله في الصلاة ليدخل في الصلاة وقلبه فارغ (أي خال) وكان بعضهم يخفف الصلاة خيفة الوسواس . وروي ان عمار بن يسار صلى صلاة فأخفها فقيل له خففت يا أبا اليقظان فقال هل رأيتوني تقصت من حدودها شيئاً؟ قالوا لا . قال اني بادرت سهو الشيطان» ثم أورد الشطر الآتي عن النبي فقال : قال رسول الله (ص) ان العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها وكانت (ص) يقول انما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها» (الاحياء ج ١ وجه ١٢٦) الخ

ثم يبحث هذه الاشياء بان يبين ما تشمله وكيف تتأتى وكيف الحصول عليها وبان يبين انه يمكننا ان نتوصل الى احضار قلوبنا

بواسطة التعمق في الشعور . وما يقوله الامام عن الله يمكننا مقارنته .
 بما جاء في المزمور الثامن والعدد الرابع وهو : « فمن هو الانسان حتى
 تذكره وابن آدم حتى تفتقده » ويقول الامام بالمبدأ الذي وضعه
 المسيح في متى ص ٦ في موضوع الصلاة فيها ناعن الصلاة في الشوارع
 العمومية لان افكارنا تكون متجهة الى اشياء اخرى ويحشنا على اخراج
 افكارنا عن جميع مشاغل العالم وهكذا الى ان أفهمنا ان القبلة الحقيقية
 هي صرف القلب الى الله (راجع الاحياء ج ١ ، وجه ١٢١)

وقد ذكر لنا تفسيراً روحياً جميلاً على سورة الفاتحة فقال :
 « فاما القراءة فالناس فيها ثلاثة . رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل . ورجل
 يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره
 وهي درجات اصحاب النبين ، ورجل يسبق قلبه الى المعاني اولاً ثم
 يخدم اللسان القلب فيترجمه . ففرق بين أن يكون اللسان ترجمان
 القلب او يكون معلم القلب . والمقربون لسانهم ترجمان يتبع القلب .
 ولا يتبعه القلب . وتفصيل ترجمة المعاني انك اذا قلت بسم الله الرحمن
 الرحيم فانور به التبرك لا ابتداء القراءة لكلام الله - ... فلا جرم كان الحمد
 لله ومعناه أن الشكر لله الى آخره » احياء علوم الدين ج ١ ، وجه ٢٢ الخ)
 وقال الامام الغزالي في التصديق بالحسنات ان هناك سبعة امور

ضرورية وهي السرعة والكتمان والمثال . ثم أورد حديثاً نبوياً بأن اليد اليسرى لا ينبغي أن تعرف ما تعمله اليد اليمنى من الصدقات (ولا ريب ان هذا الحديث مقتبس بعناه من بشارة متى ٦: ٤ فليس الغزالي وحده هو الذي اقتبس من الكتب المقدسة ولا شيخه ابو طالب المكي بل والنبي محمد نفسه ردد في العالم صوت الانجيل)

ثم عاد الى ذكر البقية فقال : وعدم الافتخار او الكبرياء وعدم التحدث بالصدقة وتقديم الصدقة من احسن الاشياء وأفضلها لان الله تعالى عال في الحسن ولا يجب ان يقدم اليه الا الاحسن وفرض ان الصدقة لا يجب ان تعطى الا لمن يستحقها. ثم ذكر من المستحقين ستة انواع فقال : هم - الاولياء - والعلماء - والصديقون - والفقراء المعوزون - والمصابون بالاحتياج لمرض او لفاجعة نزلت بهم - والاقارب (ولا ريب أن تعليم الغزالي هذا ظل لما اورده بولس الرسول في ١ تي ص ٥ في هذا الموضوع) ولكن اتضح من تعاليم الغزالي انه لا يقول بالاخوة العامة لانها ليست موجودة في الاسلام فان اليهود والمسيحيين في نظر الاخوة الاسلامية خوارج عن الحضيرة الا في ما يختص بحقوق الجوار فقط . واما الاخوة عندهم فهي خاصة تقريباً

ويمكن ان يفهم المسيحيون طريقة الغزالي الصوفية في قراءة القرآن من مطالعة المسيحيين الكتاب المقدس. ومن جهة قراءة القرآن قال لنا الغزالي بوجوب ملاحظة ثمانية اشياء وهي: فهم عظمة الكلام - التعظيم للمتكلم - حضور القلب - التدبر - التفهم - التخلي عن موانع الفهم - التخصيص اي على انفسنا - التأثر اي اننا يجب ان نقرأه بكيفية تجعل تأثيره ظاهراً في حياتنا - وقد قال لنا الغزالي ان المقصود من تلاوة القرآن هو تفهيمه وتدبره والفرح في ما يفرح والحزن في ما يحزن الخ (الاحياء ج ١ وجه ١٩٩ الخ)

وان اكبر فصوله في كتاب الاحياء الذي هو اعظم مؤلفاته هو البحث في التوبة ويمكن مقارنة تعليمه عن التوبة بما جاء في المزمور ٥١ او بما جاء في الفصل السابع من الرسالة الى اهل رومية . ولا يمكن الشك في ان ذات الامام الغزالي كان متعمقاً في معرفة فظاعة الذنوب . ولم يكن من علماء الشرع المتمسكين بالظواهر الخارجية فقط اي لم يكن فريسيًا بل كان باحثاً مجتهداً واهتمامه سالكاً نحو الله . وكان يعلم ان كل بني آدم خطاة حتى الانبياء منهم ولكنه لم يذكر خطية واحدة لسيدنا المسيح ، فهو الرجل العصامي الذي كان يجاهر بما يعتقد باخلاص تام

وأهم ما أتى به عن فوائد طلب المغفرة وفوائد التوبة ما يأتي :-
قال صلى الله عليه وسلم . لله افرح بتوبة العبد المؤمن من رجل
نزل في ارض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع
رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى اذا اشتد
عليه الحر والعطش او ما شاء الله قال ارجع الى مكاني الذي كنت فيه
فانام حتى اموت فنام فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه
فالله تعالى اشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته» (الاحياء ج ٤
وجه ٤) ثم استمر في موضوعه عن التوبة الى ان قال : قال صلى الله
عليه وسلم انه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم والليلة سبعين
مرة الحديث ولذلك اكرمه الله تعالى بأن قال له ليغفر لك الله ما تقدم
من ذنبك وما تأخر. واذا كان حاله هذا فكيف حال غيره؟» (الاحياء
ج ٤ وجه ٨)

فما اعظم الفرق بين تعاليم الغزالي التي اوضحت ان جميع البشر
خطاة بدون استثناء حتى النبي محمد الذي يحسبه الغزالي سيد البشر لم
يخل من الخطايا بدليل اعترافه انه ليغان على قلبه حتى يستغفر الله في
اليوم والليلة سبعين مرة والذي صرح القرآن في اول سورة الفتح ان
له ذنوباً متقدمة وذنوباً متأخرة ، وبين التعاليم السطحية التعصبية

المنتشرة في يومنا هذا عن عصمة الانبياء من الذنوب (بلا ادنى دليل) وهذه فكرة سادت على قلوب جميع المساميين في الوقت الحاضر مع انهم يقرأون تصريحات القرآن والاحاديث بخطايا الانبياء وجميع الناس قاطبة بدون استثناء ولسنا ندري لماذا لا ينتبهون

وبما ان الامام الغزالي ذكر هذا عن محمد نبيه وعن احتياجه الى التوبة ومغفرة الله بكل صراحة فهو بالطبيعة قد بحث موضوع التوبة بحثاً دقيقاً بصفة كونه شخصاً مسلماً صادقاً ذاق مرارة تبيكت الضمير واكتشف حقيقة عدم اقتداره على القيام بمطالب الشريعة الادية. ككل بشر خاطئ له ضمير يشعر بما عليه من الواجبات نحو الله وامامنا الآن ملخص بسيط من تعاليمه التي اقتبسها من القرآن ومع ذلك فقد اولها تأويلاً أسمى روحانية واعظم جداً بما لا يقف عند حد. وهذه التأويلات السامية في حقيقة الامر انتقاد مرّ في قالب الايجاب موجه من الامام الى القصيري النظر ولكنه انتقاد عملي له تأثير الانتقاد القولي اكثر من عشرة اضعاف حتى ان الشرح كثيراً ما يكون أسمى من المتن روحياً وهذا امر عجيب ان ضرورة التوبة امر لا يحتاج الى دليل لان جميع أبناء البشر أخطأوا واعوزهم مجد الله وفي هذه الحقيقة قال الامام الغزالي :

« هذه النفس جديرة بان تكون هي النفس الاوامة اذ تلوم صاحبها على ما استهدف له من الاحوال النعمية لا عن تصميم عزم وتخبين رأي وقصد . . . وهي اغلب احوال التائبين لان الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه وانما غاية سعيه ان يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات فاما ان تخلو بالكافية كفة السيئات فذلك غاية العبد وهؤلاء لم حسن الوعد من الله تعالى اذ قل تعالى : الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللوم ان ربك واسع المغفرة . فكل المأم يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بان يكون من اللوم المغفور عنه . قل تعالى : والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم فإني عليهم مع ظلمهم لا انفسهم لتندمهم ولومهم انفسهم عليه والى مثل هذه الرتبة الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم في ما رواه عن علي كرم الله وجهه — أخياركم كل مفتن تواب — وفي خير آخر : المؤمن كالسنبلة يفيء احياناً ويميل احياناً . وفي الخبر : لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه القينة بعد القينة أي المين بعد المين . فكل ذلك أدلة قاطعة على ان هذا القرار لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين . ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين (فهو) كالطبيب الذي يؤيس الصحيح من دوام الصبغة بما يتناوله من الفواكه والاطعمة الحارة مرة بعد اخرى من غير مداومة واستمرار و كالتقيب الذي يؤيس المنفعة على نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في اوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقير بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارنة

السببَات المحتطفات . قال النبي صل الله عليه وسلم : كل بني آدم خطاءون
وخير الخطائين التوابون المستغفرون» (الاحياء ج ٤ رجه ٣٢ و ٣٣)

وكل هذا تقصير نحو الحصول على الكمال وله اسبابه ولكن
اذا بحث الانسان عن هذا التناسي واشتغل بالفضائل المضادة لهذه
النقائص فان هذا يكون رجوعاً الى الصراط السويّ

ان اهمية التوبة هي في الرجوع عن الذنوب ولا يمكن ان يتصور
العقل خلواً احد في الوجود من هذا النقص لاننا نختلف في الدرجات
فقط ولكن بذور الشر موجودة فينا سواء اكننا ابراراً ام اشراراً، انبياء
أم اشقياء. ولكون الامام الغزالي مسلماً بطبيعة الحال فهو ربما تجاهل
الخطية الاصلية ولكنه مع ذلك يعظم تأثير الخطية التي لم تحصل توبة
لها لانها تنزل من عميق الى اعرق في القلب حتى ان البقية الباقية من
مثال التأملات في الله الكائنة في مرآة النفس الانسانية تمحي محوّاً
كلياً وتنقطع اشعة الافتكار في الله .

وقد اورد تفسيراً آخر مثل فيه القلب الانساني برداء نقي جميل
جره لابس في القذارة والنجاسة فاحتاج الى الغسل الجيد بالصابون
والماء الساخن ليعود الى نقاوته الاصلية مرة أخرى فقال مفسراً:—

« فمن يتوهم أن التوبة لا تصح ولا تقبل كمن يتوهم ان الشمس تطلع

والظلام لا يزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول الا ان يفوض
الوسخ لطول تراكمه في تجايف الثوب فلا يقوى الصابون على قلعه . فمثال
ذلك ان تراكم الذنوب حتى تصير طبعاً وريئاً على القلب فمثل هذا القلب
لا يرجع ولا يتوب . نعم قد يقول بالاسان «تبت» فيكون ذلك كقول القصار
بلسانه «قد غسلت الثوب» وذلك لا ينظف أصلاً ما لم يغير صفة الثوب
باستعمال ما يضاد الوصف المتكمن به فهذا حال امتناع أصل التوبة» (احياء
ج ٤ وجه ١١)

ان هذا التفسير فيه شيء بعيد جداً عن تعاليم الكتاب المقدس
وشيء قريب منها . فما ابعده وما اقربه في وقت واحد !! . فاما ابتعاده
فلانه جعل الذنب كالنجاسة تلتصق بالثوب فقط وجعل التوبة كالصابون
والماء للتطهير والتنظيف مع العلم ان الثوب يتسخ وينظف بالغسل
في العام الواحد نحو ٣٠ مرة على الاقل وهذا التعليم بعيد جداً عن
مبادئ الكتاب المقدس الشريفة لانه يفتح باب الشر على مصراعيه
للمذنبين فيذهبون الى ارتكاب الذنب وينطقون بالفاظ التوبة
والاستغفار بعد الارتكاب ويظنون ان ذنوبهم غفرت بمجرد اخراج
الالفاظ من شفاهم . واذا اردنا ايقاع اللوم كله على رأس هذا الامام
فقد ظلمناه لانه لم يكن مبتدعاً لهذا التعليم بل بصفة كونه مساماً غيوراً
يرتل كل يوم «ان الحسنات ينهين السيئات» و «من جاء بالحسنة فله

عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها» ويتلو «الا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً— الا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحماً» . وليس ذلك فقط بل عزز تعليمه هذا ايضاً بالاحاديث النبوية الآتية : قال صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لسيء الليل الى النهار ولسيء النهار الى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها . وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل . وقال صلى الله عليه وسلم لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم . وقال (ص) ايضاً ان العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة . وقال ايضاً كفارة الذنب الندامة . الخ . الخ . فكل هذه الآيات والاحاديث كانت من أقوى البواعث لابتعاد تعاليم الغزالي عن مبادئ الكتاب المقدس في موضوع التوبة . وابن هذا المبدأ من قول الكتاب المقدس : «من حفظ كل الناموس وانما عثر في واحدة فقد صار مجرمًا في الكل ؟» (يع ٢: ١٠) ولنا عظيم الرجاء بانتصار كل مبدأ شريف . واما اقترابه من تعاليم الكتاب المقدس فلانه تقض النظرية الاولى بروحانيته الشخصية التي فاقت سمواً عن الوسط الذي كان فيه وقال بان تكرار لفظ التوبة لا يفيد أصلاً ما لم

يستعمل ما يضاد الخطية بالتمام . وهذا أبان لنا ان روحانية شخص
الغزالي تستوي مع مصدر ايمانه ان لم تكن أعلى كما هو الظاهر من
هذه المقابلات

ان التوبة الحققة لها نتيجة مزدوجة حسب تعاليم هذا الفقيه
المسلم ولو انه وقف على الشاطئ ولم يدخل بحر هذا الموضوع العميق
ولم يتأمل كيف يكون الله عادلاً لا يترك حقوقه وكيف يعفو عن
الخطيئة بموجب الفاظ يقولها بلسانه فقط الا ان هذا الامام يعلم يقيناً
ان نتائج مغفرة خطايانا هي اننا نقف امام الله مبررين كأننا بلاخطيئة
ان دائرة أفق نظرية الغزالي في موضوع التوبة الصادقة التي لا
رجوع فيها لا بأس بها الا ان سلسلة تعليمه فقدت منها الحلقة الرئيسية
الهامة وهذه الحلقة التي فقدت من سلسلة عقيدة الغزالي انما هي «الفداء
الذي تم بصليب المسيح فجمع بين عدل الله ورحمته أي بين قداسته
ومحبته لان الله لا يقيم عدله الا وهو رحيم ولا يقيم رحمته الا وهو
عادل ولم يتم التوفيق بين هاتين الصفتين الالهيتين الا بصليب المسيح»
(راجع يو ١: ١٧)

ان كل توبة ليست مبنية على الاعتقاد بصليب المسيح هي وهمية
لا فائدة منها

ان الغزالي كان يقترب دائماً بروحانيته من التعاليم المسيحية الشريفة ولكنه كان دائماً يحوم حول جوهرها ولا يمسه. كان بالحقيقة هائماً بصوفيته نحو النور ولكنه لم يمسك بيد الصديق القادي فلم يجد من يفديه . وصل باجتهاده الى معرفة الله ولكن مسبحة التوبة لم توصله الى الله تماماً لانه لم يعترف بالمسيح واياه مصلوباً ولم يصغ لصوت القائل : «انا هو الطريق والحق والحياة ليس احد يأتي الى الآب الا بي» (يو ١٤: ٦) وفوق هذا فان تعاليم الغزالي عن وجود الله في بداية الهداية وجه ٤٠ و ٤١ تشبه تعاليم الاخ لورانس اللاهوتية

اننا عندما رأينا الغزالي يتكلم عن الحجب التي تحجب حقيقة الله حضرت الى ذاكرتنا الاسباب الشعرية التي أوردتها (هويت هيد) في موضوع اليوم الثاني من أيام الخليقة الستة التي نرى فيها ملك الملوك ورب الارباب من خلايا القبة الزرقاء ولكن مما احزن قلوبنا جداً ان الغزالي لم يعرف اقتراب الله نفسه الى البشر بتجسد المسيح اعلاناً لمحبهه واتماماً للكفارة فاكثر من الكلام عن خوف الله تعالى وعلم ان الخوف من الله عن رهبة لا عن رغبة واستدل بقول القرآن «وهدى ورحمةً للذين هم لربهم يرهبون» ثم استطرد الى ذكر

حديث نبوي اقتبس النبي معناه من سفر الامثال ١٠:٩ ومن المزمور ١١١:١٠ وهو «رأس الحكمة مخافة الله» ومن شاء الوقوف على اطنابه في الخوف من الله والرغبة والخشية الى درجة تنزع الاطمئنان من القلب وتقضي على كل أمل بالاتصال مع الله فليراجع (الاحياء ج ٤ وجه ١١٦ و١١٧ الخ). وفوق خوفه من الله بهذا الشكل المؤيس فاننا نرى انه كان أيضاً يخاف من الموت لان رأسه امتلأت من سماع أهوال الموت من أبناء العمور الوسطى ومن أيام صدور الاسلام ومما قرأه في كثير من سور القرآن مثل ق والذاريات والمرسلات وغيرها وغيرها ومن كثرة خوفه من الموت ألف كتاباً صغيراً في أواخر أيامه ودعا «كتاب الدرّة الفاخرة في الكشف عن علوم الدنيا والآخرة» صور فيه الموت ويوم القيامة بكل انواع المخاوف والاضطراب فقال :

« واما الفاجر فتؤخذ نفسه عنفاً فاذا وجهه كآكل الحنظل والملك (بفتح اللام) يقول اخرجي ايتها النفس الخبيثة من الجسد الخبيث فاذا له صراخ اعظم ما يكون كصراخ الحمير فاذا عزرائيل ناولها زبانية قباح الوجوه سود الثياب متني الريح بايديهم مسوح من شعر فيلقونها فيه فتستحيل شخصاً انسانياً على قدر الجراة فان الكافر اعظم جرماً من المؤمن (يعني الجسم في الآخرة) وفي الصحيح ان ضرس الكافر في النار مثل جبل أحد. قل فيعرج

به حتى ينتهي به الى باب السماء الدنيا فيقرع الامين الباب فيقال من أنت
 فيقول انا قاييل فيقال له من معك فيقول ولان ابن فلان بتبيح امهائه وأبغضها
 اليه في دار الدنيا فيقال لا أهلاً ولا سهلاً ولا يفتح له ابواب السماء ولا
 يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط فاذا سمع الامين هذه المقالة
 طرحه من يده فهوي به الريح الى مكان سعيد أي بعيد... فاذا انتهى
 الى الارض ابتدره الزبانية وسارت به الى سجين وهي صخرة عظيمة تأوي
 اليها ارواح التجار. الخ» (الدرة الفاخرة وجه ٨)

ولقد قال الامتاذ كلورفيلد في ملخصه عن الصفات الصوفية
 في الغزالي ما يأتي :

« كما ان القديس اوغسطينوس وجد خلاصاً من الشكوك والخطايا من
 جهة معرفة الله في داخل نفسه ، وكما ان (دي كارت) وجد نفس هذه
 الحقيقة ايضاً لراحة ضميره ، فكذلك الغزالي وجد نفسه غير مرتاح ولا
 مطمئن وغير مقتنع بالمناظرات العقيدة فتعبه متبهماً المبادئ الصوفية وسلم
 نفسه الى الله بمقدار معرفته اياه وترك الآخرين يتناظرون بشأن وجود الله
 من ظواهر هذا العالم لانه عرف بوجود الله وآمن به وأسلم نفسه اليه بمقدار ما
 تحتمل مبادئه وطبيعته البشرية »

وكان الامام ظاهراً على غيره من العلماء مشهوراً في العالم
 الاسلامي ولكن لم يفهم عن شخصيته الى يومنا هذا الا القدر اليسير
 ولكن في القرون الوسطى تغلب صيت أفروس على صيت الغزالي.

وقد ذكر «دانتى» التفسير الذي عمله أفروس عن ارسطو طاليس
 وشرحه عن توماس اكيناس ومن ذهب مذهبه
 ان افروس كان قد اتم طريقته واستكملها واما الغزالي فكان
 واحداً من اولئك الذين يمكن الوصف بانهم يصلون الى ابعد مما
 توهم لهم له معلوماتهم لانه كان دائماً يتطلع الى شيء لم يكن قد وصل
 اليه وكان في كثير من الاحوال اقرب الى الحضارة من افروس -
 وقال «رينان» ان عقل الغزالي كان اكثر عصامية من فلاسفة العرب
 ولو ان رينان هذا كان بعيداً عن الاشتراك مع الغزالي في ما كان
 يشعر به هذا من قيمة الاهتمام بالامور الدينية

ان الذي يتبع تعاليم الغزالي ببنائها ومعناها من المسلمين يصير
 اقرب مسلم الى مبادئ الانجيل الشريف لان استفادة الغزالي من
 الكتب المقدسة ظاهرة في مواضع كثيرة من مؤلفاته ظهور الشمس
 في رابعة نهار الصيف. ولنا امل وطيد اننا بمقارنة تعاليمه بتعاليم المسيحية
 نكون قد قدمنا الى القراء امثلاً مسلماً صوفياً مخلصاً يرشدنا الى
 المسيح . وانه ليجدر بالمتعلمين المسلمين العصريين ان يأخذوا بقول
 استاذهم وامامهم الاكبر حجة الاسلام الغزالي وهو :-

« واما السبب الرابع وهو ضعف الايمان بسبب سوء سيرة العلماء فتداوي

هذا المرض بثلاثة أمور (أحدها) ان تقول له ان العالم الذي تزعم انه يأكل الحرام معرفته بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر والربا بل بتحريم الغيبة والكذب والتميمة وانت تعرف ذلك وتعلمه لا لعدم ايمانك بانه معصية بل لشهوتك الغالبة عليك فشوته كشهوتك وقد غلبته كما غلبتك فعله بمسائل وراء هذا يتميز به عنك ولا يناسب زيادة زجر عن هذا المحذور المعين وكم من مؤمن بالطب لا يصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد وان زجره الطبيب عنه ولا يدل ذلك على انه غير ضار أو على ان الايمان بالطب غير صحيح فهذا محل هفوة العلماء (الثاني) ان يقال للعامي ينبغي ان تعتقد ان العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه في الآخرة ويظن ان علمه ينجيه ويكون شفيعاً له حتى يتساهل معه في اعماله لفضيلة علمه وان جاز ان يصكون زيادة حجة عليه فهو يجوز ان يكون زيادة درجة له وهو ممكن فهو وان ترك العمل يدلي بالعلم . أما انت ايها العامي اذا نظرت اليه وتركت العمل وانت عن العلم عاطل فهلك بسوء عمالك ولا شفيع لك (الثالث) وهو الحقيقة ان العالم الحقيقي لا يقارف معصية الا على سبيل الهفوة ولا يكون مصراً على المعاصي أصلاً اذ العلم الحقيقي ما يعرف ان المعصية سم مهلك وان الآخرة خير من الدنيا ومن عرف ذلك لا يبيع الخير بما هو ادنى . وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها اكثر الناس فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم الا جراءة على معصية الله تعالى . واما العلم الحقيقي فيزيد صاحبه خشية وخوفاً وذلك يحول بينه وبين المعاصي . الا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات وذلك لا يدل على ضعف

الايان فالمؤمن مفتن تواب ء وهو بعيد عن الاحرار والا كباب « (المنقذ
من الضلال وجه ٤٧ و ٤٨)

وبما ان الغزالي كان مسلماً فليس لنا الا ان نقول : اما انه كان
متكبراً الى درجة منعه عن البحث في الحقائق التاريخية الصريحة
عن الدين المسيحي— واما انه لم تكن له الفرص الكافية لهذا البحث
فضلاً عما كان يورده من آيات الانجيل واحكامه سواء أكان ايراده
صحيحاً ام مغلوطاً . فلو انكر نفسه ايضاً او لو اتاحت له الفرصة
وبحث بلا خوف من القرناء والأتداد لكان قد وجد في الانجيل
ما كان يطمش اليه قلبه وما كان يعلاً له احتياج نفسه ويحصله على
اشتياقها— فليته رأى الله في الشخص الحي (وليس في عقائد وقواعد
غير ماموسة) وهذا الشخص الحي الذي ظهر الله فيه لجميع العالم لكل
من يؤمن بوجود وهو هو امساً واليوم والى الابد — وهو هو
يسوع المسيح «الذي هو صورة الله غير المنظور بكر كل خليفة فانه
فيه خلق الكل ما في السموات وما على الارض ما يرى وما لا يرى
سواء كان عروشاً أم سيادات أم رئاسات أم سلاطين الكل به وله قد
خلق . الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل» (كولوسي ١: ١٥-١٧)

ان الذين يقومون و يقيمون في المسيح و يقيم هو فيهم قد حسبوا
جزءاً من جسمه الروحي فهم اغصان حية من تلك الكرمة الحية وهم
جميعهم واحد في الحياة التي في المسيح يسوع ولو كانوا دائماً شاعرين
بوجودهم الشخصي كافراد - هؤلاء يستمرون في السلوك الروحي
اللائق تدريجاً الى ان يتصلوا بالله تماماً و يصيروا في شركة معه وهذا
شيء لم يصل اليه فهم الصوفي الى الآن

لقد صرح الغزالي انه لا يوجد شخص رأى الله ولم يوجد في
وقت من الاوقات وذلك لانه لم يعرف أو خاف ان يعرف ان ابن الله
الوحيد الذي في حضن الآب هو خير و اعلن لنا ان الذي رآه فقد
رأى الله (راجع يوحنا ١٤: ١-١٣)

ان المجد الصناعي (المخترع) الذي قال العوام انه كان للنبي كان
حاجزاً للغزالي (كما حجز غيره من اتباعه من صدر الاسلام الى الآن).
عن الحصول على نور معرفة مجد الله في وجه ابنه المبارك الوحيد يسوع
المسيح . ولكن لم يكن حاجزاً له الى الدرجة النهائية كما سنرى في
الفصل الآتي . ولكن مهما صنعوا و اخترعوا من الوسائل فان نور
الله (وان قامت جبال الارض و امواج البحار لاخفائه) لا بد ان يظهر

ويعلو ويثبت وينير كل انساذ يطلب الور في هذا العالم ثم
كلهم يسوع قائلاً : انا هو بو العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة
بل يكون له نور الحياة» فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس
والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه» (يوحنا ١: ٩ و ١٠: ٥)
«ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره ال.....»

الفصل الثامن

يسوع المسيح في الغزالي

ان يسوع المسيح هو حجر محك الاخلاق وسيد كل الناس والقاضي العظيم المعصوم من الخطي الذي يقدر أن يبدي حكماً صائباً عن اي نظام او تعليم ديني دون ان يعتور حكمه خطأ او خطئ. فما هو مقام يسوع في تعاليم اعظم أئمة المسلمين وحجة الاسلام العظيم والصوفي الباحث عن الله والمخلص في بحثه والراغب من كل قلبه ان يجد الله ويتعرف به؟ ولا مشاحة ان الغزالي بصفة كونه مسلماً غيوراً قد درس القرآن درساً حقيقياً واطلع فيه على المقام الرفيع الذي يعطيه للسيد المسيح لا سيما ما جاء عنه من الوصف المقرون بالتعظيم في سورة آل عمران وسورة المائدة وسورة مريم . وما دعيت تلك السور بهذه الاسماء الا لما جاء فيها من الاشارات الواضحة الى سيدنا يسوع المسيح واعماله . وان ذكر المسيح في الكتب الاسلامية واعتراف المسلمين به يدعونا الى المقابلة بينه وبين نبي الاسلام . فهل خطرت هذه المسألة ببال الغزالي حجة الاسلام؟ وهل قابل بين المسيح ومحمد باعتبار انه درس الانجيل ايضاً؟ وللإجابة على هذا السؤال عقدنا هذا

الفصل بعد أن جمعنا اغلب ما جاء في كتاب احياء علوم الدين للغزالي وبعض كتبه الاخرى من الاشارات الى المسيح وتعاليمه واعماله . وتركنا الحكم للقارئ ليرى بنفسه الى اية درجة كان الغزالي في كتاباته عن المسيح كعلم مرشد يقود قراءه الى المسيح (ولو لم يكن قاصداً هذا المقصد)

وعبثاً نبحث في كل مؤلفات الغزالي عن تاريخ حياة المسيح او عن خلاصة تعاليمه . ذلك لان الغزالي قرأ ولا شك الكتاب المشهور في وقته والحاوي سلسلة قصص عن حياة يسوع المسيح حسب المصادر الاسلامية المعنون بكتاب قصص الانبياء للشعبي وقد بينت عدم صحة هذه القصص الخرافية في كتابي (عيسى ام يسوع) فليراجع هناك . وانصافاً للغزالي نقول هنا انه لم يكتب بهذه القصص الخرافية الملفقة التي جمعها الشعبي بل ذكر عدة حوادث وأقوال للمسيح تشابه بعض المشابهة ما ورد في الانجيل

وهنا يخطر ببالنا سؤال مهم وهو من اين حصل الغزالي على معرفة ما جاء بالانجيل؟ فهل وصلت الى يده نسخة للبشارت بالفارسية او بالعربية . او وصلت اليه كل المواد التي جمعناها من مؤلفاته بالسمع فجمعها من افواه الرهبان والرهبين اليهود؟ وما لا ريب فيه انه قد

اطلع على ترجمة عربية للعهد القديم كما كان له اطلاع على ترجمة العهد الجديد لانه يستدل باقوال كثيرة من تعاليم موسى وزامير داود وتواريخ انبياء العهد القديم . وثابت تاريخياً ان العهد القديم ترجم الى اللغة العربية قبل ايام الغزالي كما اشرنا الى ذلك في سياق الكلام في كتابنا هذا . وجاء في الحديث ان اهل الكتاب كانوا يقرأون التوراة بالعبرانية للصحابة ويترجمونها لهم الى العربية . وجاء في حديث آخر ان كتب الاحبار اتى بكاتب لامير المؤمنين عمر وقال له هذه هي التوراة فاقرأها . وتجد كثيرين من مؤرخي العرب مثل الطبري والمسعودي وحمزة وبيروني يذكرون في كتبهم اموراً كثيرة من تاريخ اليهود القديم تشابه بعض المشابهة ما جاء في الكتاب المقدس . ويقول ابن قتيبة المؤرخ الذي مات سنة ٨٨٩ « انه قرأ التوراة وقد عني بجمع بعض الآيات الكتابية في مؤلف قد حافظ عليه ابن الجوزي الذي عاش في القرن الثاني عشر »

ومعلوم ان اول ترجمة للكتاب الى اللغة العربية مشهورة ومعروفة هي ترجمة السعدي وكان تأثير هذه الترجمة عظيماً ولها شهرة كسيرة مؤلفاته الفلسفية

ثم ترجم الزامير في القرن العاشر حافظ الكوتي ويستدل من

لهجته وبعض الامور الاخرى ان الرجل كان مسيحيًا وفي اواسط القرن
الحادي عشر ترجم اليهود في مدينة مصر العهد القديم الى اللغة العربية
اما عن ترجمة الانجيل الى اللغة العربية فيقول الدكتور كيلحور
«ان اقدم نسخة للعهد الجديد في اللغة العربية هي على الأرجح النسخة
المخطية للبشائر الاربع والاربع عشرة رسالة التي كتبها بولس وهذه
الترجمة وجدت في دير مار سابا بقرب القدس الشريف . ويعتقد
الباحثون ان تاريخها يرجع الى القرن الثامن . ثم وجدت رسائل بولس
بين ذخائر دير القديسة كاترينا بطور سيناء . وهذه يرجع تاريخها الى
القرن التاسع . وقد جمعت مخطوطات اخرى من ذلك الدير يرجع
تاريخها الى القرن التاسع ايضًا فكان من مجموعها العهد الجديد كله .
وهكذا تجد انه في آخر القرن التاسع كان العهد الجديد كله مترجمًا الى
اللغة العربية . وتوجد نسخة منه الآن وجدت بين ذخائر دير القديسة
كاترينا بطور سيناء ومحفوطة بمدينة بتروغراد عاصمة بلاد الروس .
ومعها ايضًا رسائل بولس مؤرخة سنة ١٨٩٢ م أما المخطوطات في
في ذات اللغتين السريانية والعربية فمديدة جدًا منها بعض أوراق
من البشائر الاربع محفوطة في المتحف البريطاني وهي نموذج جميل
للكتابة ذات اللغتين وقد احضرها تشندورف من دير القديسة مريم .

ديبارا السرياني في وادي النطرون بمصر . وفي اول القرن الحادي عشر قام عالم عربي وترجم كتاب اتفاق البشيرين تأليف تاتيان المسمى دياطاسارون الذي ساعد الكنيسة المسيحية الاولى كثيراً على ادراك الحقائق الجوهرية في حياة مخلصنا

أفايس اذاً من المحتمل بل من المؤكد تقريباً أن الغزالي كان مطلعاً على احدى هذه التراجم ؟ ألم يقل هو نفسه «قرأت في الانجيل ؟» هذا وانا نجده لا يكتفي بمجرد تلخيص اقوال المسيح واعماله بل في احوال كثيرة نجده يأتي بالنص الانجيلي كما هو . نعم لا ننكر انه خلط ذلك ببعض قصص واقوال ملفقة ليست من الانجيل في شيء ولكننا للآن لم نعرف وربما لا يُعرف المصدر الذي استقى منه الغزالي تلك الاقوال الملفقة . وهل يجوز أن نظن انه وضعها كما وضع كثيرون من اهل عصره قصصاً وأقوالاً عن «الني» ؟

فقد جاء في كتاب احياء العلوم طبعة المطبعة العامرة الشرقية بمصر سنة ١٣٢٦ هجرية كلام عن حياة المسيح على الارض كني وقديس لا اصل له في الانجيل منه :

(١) الكلام عن عصمته بشهادة الغزالي نفسه . قال في الاحياء

جز ٣ وجه ٢٣ سطر ١٨ «روي ان ابليس لعنه الله تمثل لعيسى بن

مريم صلى الله عليه وسلم فقال له قل لا اله الا الله . فقال كلمة حق ولا
اقولها بقولك»

وجاء في الجزء ذاته وجه ٢٦ سطر ٤ «قوله روي انه لما ولد عيسى
بن مريم عليه السلام اتت الشياطين ابليس فقالوا اصبحت الاصنام
وقد نكست رؤوسها . فقال هذا حادث قد حدث . مكانكم . فطار حتى
اتي خافقي الارض فلم يجد شيئاً ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد
واذا الملائكة حافين به فرجع اليهم فقال ان نبياً قد ولد البارحة ما
حملت انثى قط ولا وضعت الا وانا حاضرها الا هذا فأيسوا من أن
تعبد الاصنام بعد هذه الليلة»

ومن الادلة على المقام الاسمى الذي لربنا يسوع ما جاء في جزء
٤ وجه ٢٤٥ سطر ٢٧ قوله «قال تعالى ولقد فضلنا بعض النبيين على
بعض . . . فكان عيسى عليه السلام من المفضلين ولادلاله سلم على
نفسه فقال «والسلام عليّ يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حياً»
ثم ان الغزالي يلقب يسوع بذات الالقاب المعطاة له في القرآن
فيقول عنه بن مريم وروح الله وكلمة الله ونبي ورسول ولكن هذين
اللقبين لا يعطيان له امتيازاً عظيماً عن غيره في فكر المسلم لان
المسلمين يقولون ان عدد الانبياء من بدء العالم ليس اقل من ١٢٤٠٠٠

نبي (كما جاء في الوجدان) وافرد الغزالي في كتاب الاقتصاد جزءاً مهماً من وجهه ٨٣ - ٨٦ برهن فيه لليهود ر. يسوع كان حقاً نبياً مؤيداً براهينه بتعاليمه السماوية ومعجزاته

وجاء في الاحياء جزء ٣ وجه ٦١ سطر ٣٢ عن صوم المسيح ما نصه «روي ان عيسى عليه السلام مكث يناجي ربه ستين صباحاً لم يأكل والحقيقة انها اربعون»^(١)

وهذا القول مبني على ما جاء في انجيل متى ٢٧:٥ - ٣٠

«قد سمعتم انه قيل للقديماء لا تزن واما انا فاقول لكم ان كل من ينظر الى امرأة ليشتبهها فقد زنى بها في قلبه فان كانت عيناك اليمنى تعثر فاقطعها وألقها عنك . لانه خير لك ان يهلك احد اعضاءك ولا يهلك جسدك كله في جهنم . وان كانت يدك اليمنى تعثر فاقطعها وألقها عنك . لانه خير لك ان يهلك احد اعضاءك ولا يلقى

وجاء في الاحياء جزء ٢ وجه ٢١٧ سطر ٢٣

«روي ان عيسى عليه السلام خرج يستقي فلما ضجروا قل لهم عيسى من اصاب منكم ذنباً فليرجع فرجعوا كلهم ولم يبق معه في المغارة الا واحد فقال له عيسى أما لك من ذنب ؟ فقال والله ما عدت من شيء غير اني كنت ذات يوم اصلي فمرت بي امرأة فنظرت اليها بعيني هذه فلما جاوزتني ادخلت اصبعي في عيني فانتزعتها

(١) راجعوا قصة تجربة المسيح وصومه في الانجيل كما في متى ١:٤ - ١١ ولوقا ٤: ١٠ - ١٣ روي ان مدة صيام المسيح كانت ٤٠ يوماً و ٤٠ ليلة . اهـ «المصحح»

جسدك كله في جهنم»

واتبعت المرأة بها فقال له عيسى عليه السلام فادع الله حتى اؤمن بـ دعائك قال فدعا فتجلت السماء سحاباً ثم صبت فسقوا»

ثم ان الغزالي تكلم عن معجزات المسيح اقال في جزء ٣ وجه ١٦١ سطر ٢٤ «قال الحواريون لعيسى مالك تمشي على الماء ولا تقدر على ذلك . فقال لهم ما منزلة الدينار والدرهم عندهم . قالوا حسنة . قال ولكنها والمدر عندي سواء»

وجاء في جزء ٤ وجه ٧١ سطر ٢٤ « قيل للنبي صلى الله عليه وسلم ان عيسى عليه السلام يقال انه مشى على الماء . فقال صلى الله عليه وسلم لو ازدادوا يقيناً لمشي على الهواء»

وجاء في جزء ٤ وجه ٢٥٠ سطر ١٢ « يروى ان عيسى عليه السلام مر برجل اعمى ارض مقعد مضروب الجنين بفالج وقد تنار لحمه من الجذام وهو يقول . الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه فقال له عيسى . يا هذا اي شيء اراه من البلاء مصروفاً عنك ؟ فقال يا روح الله انا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته . فقال له صدقت هات يدك . فناوله يده فاذا هو احسن الناس

وجهاً وأفضلهم هيئة وقد أذهب الله عنه ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتعبده معه (بل له لأنه هو الشافي بأمرة)

وذكر الغزالي في باب ذم الغنى ومدح الفقر في جزء ٣ وجه

١٨٨ سطر ٢١

«روي عن جرير عن ليث قال صحب رجل عيسى بن مريم عليه السلام فقال اكون معك واصحبك فانطلقا فانتهيا الى شط نهر فجلسا يتغديان ومعهما ثلاثة ارغفة فاكلا رغيفين وبقي رغيف ثالث . فقام عيسى عليه السلام الى النهر فشرب ثم رجع فلم يجد الرغيف فقال للرجل من اخذ الرغيف . فقال لا ادري . قال فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعهما خشقتان لها قال فدعا احدهما فاتاه فدبجه فاشتوى منه فاكل هو وذاك الرجل . ثم قال للخشف قم باذن الله فقام . فقال للرجل اسألك بالذي اراك هذه الآية من اخذ الرغيف فقال لا ادري . فانتهيا الى مغارة فجلسا فاخذ عيسى عليه السلام يجمع تراباً وكثيباً ثم قال كن ذهباً باذن الله تعالى فصار ذهباً فقسبه ثلاثة اثلاث ثم قال ثلث لي وثلث لك وثلث لمن اخذ الرغيف . فقال انا الذي اخذت الرغيف فقال كلكم لك وفارقه عيسى عليه السلام»

ثم ان الغزالي يصف يسوع باللطف في الحديث والرقعة في

الخطاب والدمائة في الاخلاق فقال عنه في جزء ٣ وجه ٨٧ سطر ٦

«روي ان عيسى عليه السلام مر به خنزير فقال «مرّ بسلام» فقيس

ياروح الله أتقول هذا لخنزير؟ فقال أكره ان اعود لساني على الشر»

وجاء في كتاب اللآلئ الثمينة للغزالي

« اعتبروا بعيسى المسيح عليه السلام فقد قيل عنه انه لا يملك الا ثوباً واحداً لبسه عشرين سنة ولم يأخذ معه في كل سياحاته الا كوزاً ومسبحة ومشطاً وذات يوم رأى رجلاً يشرب من نهر بجننتيه فطرح الكوز ولم يستعمله ثانية ثم رأى رجلاً يمشط لحيته باصابعه فطرح المشط ولم يستعمله ثانية . وكان يقول دائماً حصاني قدماي ويوتي مغائر الارض وطعامي خضرتها وشرابي من ماء انهارها ومقري بين بني آدم»

وفي جزء ٣ من الاحياء وجه ١٠٠ سطر ٩

« قال مالك مر عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بجيفة كلب فقال الحواريون ما اتن ربح هذا الكلب . فقال عليه السلام ما اشد يياض اسنانه كأنه نهام عن غيبة الكلب ونبههم على انه لا يذكر شيء من خلق الله الا احسنه»

وجاء في جزء ٤ وجه ١٤٠ سطر ١٠

« روي ان المسيح صلى الله عليه وسلم مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة فايظنه وقال له يا نائم قم فاذا ذكر الله تعالى فقال ما تريد مني اني قد تركت الدنيا لاهلها . فقال قم اذا يا حبيبي»

وجاء في جزء ٤ وجه ٢٥٨ سطر ١٦

« اوحى الله الى عيسى عليه السلام اذا اطلعت على سر عبد فلم اجد

فيه حب الدنيا والآخرة ملائمة من حبي وتوليته بحظي ،
 وجاء في كتاب كيمياء السعادة للغزالي اشارتان الى هذا الموضوع
 ويظهر لنا ان الغزالي لم يقدر ان يستخرج النتيجة التي يستجربها
 كل قارئ حياة المسيح في الانجيل بقصد الفائدة وهي ان الزهد
 الحقيقي في العالم لا يتأتى للانسان بالهروب من العالم وعيشة التنسك
 بل بخدمة الآخرين . ولذلك نجد ان المذهب الباطني انتج شرين كما
 قال الماجور درري اوسبرن . انه حفر هوة بين اولئك الذين يقدرون
 ان يعرفوا الله وبين التائهين في الظلمة العائشين على قشور الطقوس
 والفرائض . وعلم الناس انه بالزهد في العالم زهداً تاماً يمكن للانسان
 ان يحصل على غاية وجوده العظيم . فأدى هذا الفكر بكثيرين من
 الراغبين في معرفة الله اما الى حياة الجولان في انحاء العالم والاعتزال
 في الصحاري او باتفاق حياتهم في حالة خشوع عذيمة الجدوى متكررين
 تحت ستار التأمل الروحي الذي يسمونه الذكر . هذا احد الشرين .
 وثانيهما فساد الناموس الادبي الذي هو نتيجة طبيعية لفكر الحلولية
 فان كان الله الكل في الكل وما شخصية الانسان الظاهرة الا وهم
 من اوهام قوى الحس والادراك ولكن ليس للانسان ارادة لها قوة
 على العمل ولا ضمير يوبخ او يستحسن الخ . . فان هذا التعليم قداى

ثالى دخول الوف من العاطلين الطائشين فى صف الباطنيين ليتمتعوا
بالاباحة وحياء الكسل وما كانت التقوى لهم الا لباس عارية يرتدون
بها وهم تحت ستارها يرتكبون كل فظيعة ودينئة وقد ميزوا انفسهم
بالتخلص من الفروض الاسلامية وقطعوا بايديهم كل رباط ادبي .
وهكذا ترى ان الحركة التي قصد بها فى البداءة قصداً عالياً وشريفاً
قد تحولت الى كسل وبطالة وعار على الدين والانسانية . والمجرى
الذي قصد به أن يمتد ويمتلى ويصير نهراً فائضاً بالخير والبركات تحول
الى مستنقع مملوء بالجرائم القتالة ومحاط بالابخرة السامة والامراض
والموت القتاك

هذا واني قد جمعت الاقوال المقتبسة من الانجيل بقدر الطاقة
امام النصوص الاصلية ليرى القارىء ويحكم . ويرى المطلع على هذا
ان الغزالي قد جعل اقتباسه من انجيل متى وبالاخص الموعظة على الجبل
وانه يمكننا ان نضع الآيات مرتبة لان الغزالي لم يراع الترتيب فى اقتباسه

جاء فى انجيل متى ١٦:٦ - ١٨

«ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين

كالمرائين . فانهم يغيرون وجوههم

لكي يظهروا للناس صائمين . الحق

احياء العلوم جزء ٣ وجه ٢٠٣

سطر ٣٤ وتكررت فى ٢٠٦

« قال عيسى المسيح صلى الله

عليه وسلم اذا كان صوم احدكم

اقول لكم انهم قد استوفوا اجرهم .
واما انت فمتى صمت فادهن رأسك
واغسل وجهك . لكي لا تظهر للناس .
صائماً بل لايك الذي في الخفاء .
فابوك الذي يرى في الخفاء يجازيك
علانية »

عدد ٣ و ٤ « واما انت فمتى
صنعت صدقتك فلا تعرف شماك ما
تعمل يمينك لكي تكون صدقتك في
الخفاء . فابوك الذي يرى في الخفاء
هو يجازيك علانية »

عدد ٥ « فمتى صليت فادخل
الى مخدعك واغلق بابك وصل الى
ايك الذي في الخفاء . فابوك الذي
يرى في الخفاء يجازيك علانية »

مت ٢٣: ١٣

« وويل لكم ايها الكتبة
والقريسيون المراؤون لانكم تغلقون
ملكوت السموات قدام الناس فلا
تدخلون ولا تدعون الداخلين يدخلون »

فليدهن رأسه ولحيته ووسع شفتيه
لئلا يرى الناس انه صائم »

« واذا اعطى يمينه فليخف عن
شماله »

« واذا صلى فليرخ متر بابه
فان الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق »

وفي جزء ١ وجه ٤٥ سطر ٢٤

« قال عيسى عليه السلام مثل
علماء السوء كمثل شجرة وقعت على
فم النهر لا هي تشرب الماء ولا هي
تترك الماء يخلص الى الزرع »

عد ٢٧

«ويل لكم ايها الكتبة
والفريسيون المراؤون لانكم تشبهون
قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة وهي
من داخل مملوءة عظام اموات وكل
نجاسة هكذا انتم ايضاً من خارج
تظهرون للناس ابراراً ولكنكم من
داخل مشحونون رياءً واثماً»

مت ١٩:٥ ومت ٢٣:٦

«فن تقض احدى هذه الوصايا
الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى
اصغر في ملكوت السموات وأما من
عمل وعلم فهذا يدعى عظيماً في
ملكوت السموات»

لكن اطلبوا اولاً ملكوت الله
وبره وهذه كلها تزداد لكم

لاحظوا ان قول المسيح «من منكم
يبكتني على خطية» يعلمنا ان الله لم يقل
لعيسى عطف نفسك لان عيسى قدوس
بار يعظ ولا يوعظ ولأنه القادي

«ومثل علماء السوء مثل قناة
المش ظاهرها جص وباطنها تين
ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها
عظام الموتى»

وفي جزء ١ وجه ٤٦ سطر ٢٤
«قال عيسى عليه السلام كيف
يكون من اهل العلم من مسيره الى
آخريته وهو مقبل على طريق دنياه
وكيف يكون من اهل العلم من يطلب
الكلام ليخبر به لا يعمل به»

ثم انه يجعل الله يخاطب المسيح
يقوله في جزء ١ وجه ٤٧ سطر ٣١

«وقال تعالى لعيسى عليه السلام
يا ابن مريم عطف نفسك فان اتعظت
فحفظ الناس والا فاستحي مني»

متى ٣:٥ - ٩

«طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السموات . طوبى للحزاني لانهم يتمزون طوبى للودعاء لانهم يرثون الارض . طوبى للجياع والعطاش الى البر لانهم يشبعون . طوبى للرحماء لانهم يرحمون . طوبى للاتقياء القلب لانهم يعاينون الله . طوبى لصانعي السلام لانهم ابناء الله يدعون»

متى ١٩ : ٢١ - ٢٣

«قال له يسوع ان اردت ان تكون كاملاً فاذهب وبع املاكك واعط الفقراء فيصكون لك كنز في السماء وتعالى اتبعني . فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزيناً لانه كان ذا اموال كثيرة . فقال يسوع لتلاميذه الحق اقول لكم انه يعسر ان يدخل غني الى ملكوت السموات»

متى ٥ : ٣٨ - ٤٢

جزء ٣ وجه ٢٣٧ سطر ٦

قال المسيح عليه السلام .
«طوبى للمتواضعين في الدنيا هم اصحاب المنابر يوم القيامة . طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة . طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون الى الله تعالى يوم القيامة»

جزء ٤ وجه ١٧٠ سطر ٢٥

«وقال رجل لعيسى عليه السلام احملني معك في سياحتك فقال اخرج مالك والحقني . فقال لا استطيع . فقال عيسى عليه السلام بعجب يدخل الغني الجنة او قال بشدة»

جزء ٤ وجه ٥٢ سطر ٢٠

« سمعت انه قيل عين بعين و سن
 بسن . واما انا فاقول لكم لا تقاوموا
 الشر بل من طمك على خدك الايمن
 فحول له الآخر ايضاً ومن اراد ان
 يخاصمك وياخذ ثوبك فترك له الرداء
 ايضاً . ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب
 معه اثنين . ومن سألك فاعطه ومن
 اراد ان يقترض منك فلا ترده »

« رأيت في الانجيل قال عيسى
 بن مريم عليه السلام لقد قيل لكم من
 قبل ان السن بالسن والانف بالانف
 وانا اقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر
 بل من ضرب خدك الايمن فحول اليه
 الخد الايسر ومن اخذ رداءك فاعطه
 ازارك ومن سخرك لتسير ميلاً فسر
 معه ميلين »

فمن يشك في ان الغزالي رأى الانجيل حسب قوله عن نفسه
 وانه اقتبس منه حرفياً حسب الترجمة التي كانت في حينه ؟ ولكن
 لا يفوتنا ان الغزالي لم يأخذ ما يخالف اسلامه ومع احتياطه فقد
 اعترف لنا بحقائق تؤيد المسيحية وتدعو الى المسيح وتوافق بعض
 روح الانجيل الشريف بلا قصد

متى ١:٢٤
 « فتقدم تلاميذه لكي يروه ابنية
 الهيكل . فقال لهم يسوع أما تنظرون
 جميع هذه الحق أقول لكم انه لا
 يترك حجر على حجر لا ينقض »

وجاء في جز ٣ وجه ٢٨٨ سطر ٣
 وقال الحواريون للمسيح عليه
 السلام انظر الى هذا المسجد ما احسنه
 فقال : امي امي الحق اقول لكم لا
 يترك الله من هنا المسجد حجراً
 قائماً على حجر الا اهلكه بذنوب

اهله . ان الله لا يعبا بالذهب والفضة
ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئاً
وان احب الاشياء الى الله تعالى
القلوب الصالحة بها يعمر الله الارض
وبها يخرب اذا كانت على غير ذلك،

جزء ٣ وجه ١٣٩ سطر ٢٧

وقال عيسى عليه السلام . لا
تتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم عبيداً
اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه
فان صاحب كنز الدنيا يخاف عليه
الآخذ وصاحب كنز الله لا يخاف
عليه الآخذ،

وقال عليه افضل الصلاة
والسلام : «يامعشر الحواريين اني قد
كسبت لكم الدنيا على وجهها فلا
تنعشوها بعدي فان من خبث الدنيا
ان عضي الله فيها وان من خبث الدنيا
ان الآخرة . لا تدرك الا بتركها

متى ١٩:٦ - ٢٢

«ولا تكنزوا لكم كنوزاً على
الارض حيث يفسد السوس والصدأ .
وحيث ينقب السارقون ويسرقون .
بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء
حيث لا يفسد سوس ولا صدأ
وحيث لا ينقب سارقون ولا
يسرقون . لانه حيث يكون كنزك
هناك يكون قلبك،»

وفي لوقا ١٨:٢٨ - ٣٠

«فقال بطرس ها نحن قد تركنا
كل شيء وتبعناك . فقال لهم الحق
اقول لكم ان ليس أحد ترك بيتاً او

والدين او إخوة او امرأة او أولاداً
من أجل ملكوت الله الا ويأخذ
في هذا الزمان اضعافاً كثيرة وفي
الدهر الآتي الحياة الابدية»

فاعبروا الدنيا ولا تعبروها واعلموا
ان اصل كل خطية حب الدنيا .
حروب شهوة ساعة اورثت اهلها
حزناً طويلاً . وقال ايضاً بطحت
لكم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا
ينازعكم فيها الملوك والنساء فلما
الملوك فلا تنازعوهم الدنيا فانهم لن
يعرضوا لكم الدنيا ما تركتوهم
ودنياهم واما النساء فاتقوهن بالصوم
والصلاة»

متى ٢٤:٦

« لا يقدر احد ان يخدم سيدين .
لانه اما ان يبغض الواحد ويحب
الآخر او يلازم الواحد ويحتقر
الآخر . لا تقدر ان تخدموا الله
والمال»

متى ١:٢٣-٢٧ « انهم يقولون
ولا يفعلون... لكي ينظروهم الناس...
ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون
المرآؤون لانكم تغلقون ملكوت

جزء ٣ وجه ١٤٠ سطر ٢٩

قال عيسى عليه السلام :
« لا يستقيم حب الدنيا والآخرة
في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء
والنار في اناء واحد»

جزء ٣ وجه ١٨٢ سطر ٢٠

بلغنا ان عيسى ابن مريم عليه
السلام قال « يا علماء السوء تصومون
وتصلون وتصدقون ولا تفعلون ما

السوات قدام الناس فلا تدخلون
انتم ولا تدعون الداخلين يدخلون .
ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون
المراؤون لانكم تأكلون بيوت
الارامل ولعلة تطيلون صلواتكم لذلك
تأخذون دينسوة اعظم . ويل لكم
ايها الكتبة والفريسيون المراؤون
لانكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا
دخيلاً واحداً ومتى حصل تصنعونه
ابناً لجهنم اكثر منكم مضاعفاً... ويل
لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون
لانكم تعشرون النعنع والشبث
والكمون وتركم اثقل الناموس الحق
والرحمة والايمان . كان ينبغي ان
تعملوا هذه ولا تتركوا تلك . ايها
القادة العميان الذين يصفون عن
البعوضة ويعلمون الجمل . ويل لكم
ايها الكتبة والفريسيون المراؤون
لانكم تنقون خارج الكاس والصحفة
وهما من داخل مملوآن اختطافاً ودعارة

تعرفون وتدرسون ما لا تعلمون
فيا سوء ما تحكمون . تتوبون بالقول
والاماني وتعملون بالهوى وما يعني
عنكم ان تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة.
بحق اقول لكم لا تكونوا كالمنخل
يخرج منه الدقيق وتبقى فيه النخالة
كذلك انتم تخرجون الحكم من
افواهكم ويبقى الغل في صدوركم يا عبيد
الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا
تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع
منها رغبته بحق اقول لكم ان قلوبكم
تبكي من اعمالكم . جعلتم الدنيا تحت
أستكم والعمل تحت اقدامكم . بحق
اقول لكم افسدتم آخرتكم فصلاح
الدنيا احب لكم من صلاح الآخرة
فأي الناس اخسر منكم لا تعلمون .
ويل لكم حتى م تصفون الطريق
للمدبلجين وتقيمون في محل المتجيرين
كأنكم تدعون أهل الدنيا ليركوها
مهلاً مهلاً ويلكم ماذا يعني عن

ايها القريسي الاعمى نقر اولاً
 داخل الكأس والصفحة لسكي
 يكون خارجها ايضاً تقياً . ويل لكم
 ايها الكتبة والقريسيون المراؤون
 لانكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من
 خارج جميلة وهي من داخل مملوءة
 عظام اموات وكل نجاسة هكذا
 انتم ايضاً من خارج تظهرون للناس
 ابراراً ولكنكم من داخل مشحونون
 رياء وإثمًا . ويل لكم ايها الكتبة
 والقريسيون المراؤون لانكم تبنون
 قبور الانبياء وتزينون مدافن
 الصديقين وتقولون لو كنا في ايام
 آباءنا ما كنا شاركنهم في دم
 الانبياء فانتم تشهدون على انفسكم
 انكم ابناء قتلة الانبياء . فاملاوا
 انتم مكيا لآباءكم . ايها الميات
 اولاد الافاعي كيف تهربون من
 دينونة جهنم »

البيت المظلم ان يوضع السراج فوق
 ظهوره وجوفه وحش مظلم كذلك لا
 يعني عنكم ان يكون نور العلم باقواهم
 واجوافكم منه وحشة معطلة . يا عبيد
 الدنيا لا كعبد اتقياء ولا كاحرار
 كرام توشك الدنيا ان تقلعكم عن
 اصولكم فتلقبكم على وجوهكم ثم
 تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم
 بنواصيركم ثم تدفعكم من خلفكم حتى
 تسلمكم الى الملك الديان عراة فرادى
 فيوقعكم على سوء آتكم ثم يجزيكم
 بسوء اعمالكم »

جزء ٤ وجه ٣٣٠ سطر ٧

قال عيسى عليه السلام « لا تهتموا برزق غد فان يكن غد من آجالكم فتأتي ارزاقكم مع آجالكم وان لم تكن آجالكم فلا تهتموا لا لآجال غيركم ومنهم من لا يجاوز لله ساعة »

جزء ٤ وجه ١٩٠ سطر ١٢

قال عيسى « انظروا الى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوماً بيوم فان قلتم نحن اكبر بطوناً فانظروا الى الانعام كيف قبض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق

متى ٢٥:٦ و٣٤

لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لاجسادكم بما تلبسون . أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس فلا تهتموا بالغد لان الغد يهتم بما لنفسه يكفي اليوم شره »

متى ٢٦:٦

« انظروا الى طيور السماء انها لا تزرع ولا تحصد لا تجمع الى مخازن وابوك السماوي يقوتها الستم انتم بالحري افضل منها . تأملوا زنابق الحقل كيف تثمر لا تعب ولا تنزل ولكن اقول لكم انه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها

متى ١٠:٥-١٢

طوبى للمطرودين من أجل البر لان لهم ملكوت السموات . طوبى لكم اذا عيروكم وطردوكم وقالوا

جزء ٤ وجه ٢٠٥ سطر ٣١

قال عيسى عليه السلام : « لا يكون عالماً من لم يفرح بدخول المصائب والامراض على جسده

عليكم كل كلمة شريرة من أجلي
كاذبين افرحوا وتهلأوا لان اجرکم
عظيم في السموات

متى ٤١:٢٦

« اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في
تجربة »

١ يوحنا ١٥:٢-١٧

« لا تحبوا العالم ولا الاشياء
التي في العالم ان احب احد العالم
فليست فيه محبة الآب لان كل
ما في العالم شهوة الجسد وشهوة
العيون وتعظم المعيشة ليس من
الآب بل من العالم والعالم يمضي
وشهوته ولما الذي يصنع مشيئة الله
فيثبت الى الابد

متى ١٣:٣-٩

« هوذا الزارع قد خرج ليزرع
وفيما هو يزرع سقط بعض على
الطريق فجاءت الطيور واكلته وسقط

وماله لما يرجو في ذلك من كفارة
خطاياہ »

جزء ٤ وجه ٢٣١ سطر ٢٨

وفي اخبار عيسى عليه السلام
« اذا رأيت القتي مشغولاً بطلب
الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه »

جزء ٢ وجه ١١٠ سطر ١٦

قال عيسى عليه السلام:
« تحبوا الى الله يبغض أهل المعاصي
وتقربوا الى الله بالتباعد منهم والتمسوا
رضا الله بسخطهم . قالوا ياروح الله
فمن يجالس قل جالسوا من تذكركم
الله رؤيته ومن يزيد في عملكم
كلامه ومن يرغبكم في الآخرة
عمله

جزء ٤ وجه ٢٥٦ سطر ٣٦

« روي ان عيسى عليه السلام
قال لبني اسرائيل اين ينبت الزرع
قالوا في التراب فقال بحق اقول لكم

لا تنبت الحكمة الا في قلب مثل
التراب

آخر على الاماكن المحجرة حيث
لم تكن له تربة كثيرة فنبت حالاً
اذ لم يكن له عمق أرض . ولكن
لما اشرقت الشمس احترق واذ
لم يكن له اصل جف . وسقط آخر
على الشوك فطلع الشوك وخنقه .
وسقط آخر على الارض الجيدة
فاعطى ثمراً بعض مئة وآخر ستين
وأخر ثلثين «

متى ٢٣:١٣

« واما المزرع على الارض الجيدة
فهو الذي يسمع الحكمة ويفهم
وهو الذي يأتي بثمر فيصنع بعض مئة
وأخر ستين وأخر ثلثين

متى ١٥:٧

« احترزوا من الانبياء الكذبة
الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم
من داخل ذئاب خاطفة . من ثمارهم
تعرفونهم «

جزء ٣ وجه ٢٤٠ سطر ٦

« قال المسيح عليه السلام .
ان الزرع ينبت في السهل ولا
ينبت على الصفا كذلك الحكمة
تعمل في القلب المتواضع ولا تعمل
في القلب المتكبر «

جزء ٣ وجه ٢٤٧ سطر ٣٧

قال عيسى عليه السلام : « ما
بالكم تأتونني وعليكم ثياب الرهبان
وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري .
تألبسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم

بالخشية وقل ايضاً جودة الثياب
خيلاء في القلب

(ولعل الاشارة هنا الى آلام المسيح
في جثسياني حيث جاء في لوقا ٢٢: ٤٥)
« اذ كان في جهاد عظيم كان
يصلي باشد الحاجة . . وصار عرقه
كقطرات دم نازلة على الارض »

جزء ٤ وجه ٣٢٣ سطر ١٢
« وكان عيسى عليه السلام اذا
ذكر الموت عنده يقطر جلده دماً »

ويابق بنا ان نذكر ايضاً اقوالاً أوردتها الغزالي منسوبة الى
المسيح وان كانت ليست اقتباسات صريحة من الانجيل ولا اقتباسات
محرفة ولكنها تدلنا على اعتقاد الامام وقومه في مقام المسيح المكين
فقال في جزء ٤ وجه ٣٨٣ سطر ١٥ « قال عيسى عليه السلام: كم من
جسد صحيح ، ووجه صبيح ، ولسان فصيح غدا بين اطباق النار
يصيح » وفي جزء ٣ وجه ١٤١ سطر ٢٧ « قال عيسى عليه السلام:
من الذي يبني على موج البحر داراً ، تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً ،
وقيل لعيسى عليه السلام: علمنا علماً واحداً يحبنا الله عليه قال ابغضوا
الدنيا يحبكم الله تعالى »

وفي جزء ٤ وجه ٢٥٨ سطر ٢٢ « سئل عيسى عليه السلام عن
افضل الاعمال فقال الرضا من الله تعالى والحب له »

وفي جزء ٤ وجه ١٤٨ سطر ٣٤ « وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه اني لأحب المسكنة وانبض النماء وكان احب الاسامي اليه صلوات الله عليه ان يقال له يامسكين » (لانه عاش فقيراً لتغني نحن بفقره ومات لتنجيا بموته)

وفي جزء ٣ وجه ٥٦ سطر ٢٠ « قال عيسى عليه السلام. يا معشر الحواريين جوعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم »
 وفي جزء ١ وجه ٤٨ سطر ١٥ « قال عيسى عليه السلام : مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت في السر فحملت فظهر حملها فافتضحت كذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الاشهاد »

وفي جزء ٣ وجه ٢٣٥ سطر ٢١ « قال المسيح عليه السلام : طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جباراً »
 وفي جزء ٤ وجه ٢٦٠ سطر ٣٧ « قال عيسى عليه السلام : طوبى لعين نامت ولا تهم بمعصية وانتبهت الى غير اثم »
 ووجه ٢٧٣ سطر ٢٧ « وقال الحواريون لعيسى عليه السلام : ما انخالص من الاعمال فقال الذي يعمل لله تعالى لا يجب أن يحمده عليه احد »

ووجه ٣٠٥ سطر ٢٤ «قال الخواريون لعيسى بن مريم: ياروح الله هل على الارض اليوم مثلك . فقال نعم من كان منطقته ذكراً واهمته فكراً ونظرة عبرة فانه مثلي» (ولكن لم يوجد مثل هذا البار والفادي) وفي جزء ٣ وجه ٨٥ سطر ١١ «قال عيسى عليه السلام: من كثر كذبه ذهب جماله ومن لاحى الرجال سقطت مروءته ومن كثر همه سقم جسمه ومن ساء خلقه عذب نفسه»

وفي وجه ٩٨ سطر ٣٧ «قال عيسى عليه السلام: ان من اعظم الذنوب عند الله ان يقول العبد ان الله يعلم لما لا يعلم وربما يكذب في حكاية المنام والاثم فيه عظيم . انه قال عليه السلام . ان من اعظم الفرية ان يدعى الرجل الى غير ابيه او يري عينيه في المنام ما لم ير او يقول علي ما لم اقل

وفي وجه ١٤٤ سطر ٣٤ «قال المسيح عليه السلام لا تنظروا الى اموال اهل الدنيا فان بريق اموالهم يذهب بنور ايمانكم» وفي وجه ١٥٩ سطر ١٣ «يروى عن المسيح عليه السلام: اربع لا يدركن الا بتعب: الصمت وهو اول العبادة والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشيء»

وفي وجه ١٦٤ سطر ٢٢ «وقال المسيح عليه السلام: بحق اقول

لكم انه من طلب الفردوس تجز الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير»

وفي سطر ٣٣ قال عيسى عليه السلام : مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله»

(وهذا مكرر وهي عادة في الغزالي ان يكرر كثيراً لانه كان يكتب كثيراً ويقول كثيراً كما في المثل : من كثر عمله كثر خطاه) وفي جزء ٣ وجه ١٢٧ سطر ١٤ « قيل مكتوب في الانجيل من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان»

وهنا نذكر اقتباسات للامام الغزالي من الانجيل جاءت في مصنفاته الاخرى فجاء في كتاب كيمياء السعادة وجه ٥٢٠ سطر ١

«كل من زرع حصد ومن مشى وصل ومن طلب وجد» وهذا يقابل ما جاء في متى ٧:٧ «اسألوا تعطوا . اطلبوا تجدوا اقرعوا يفتح لكم . وجاء في كتاب (ايها الولد) وجه ١٠٢ سطر ١٤ «قوله اني رايت في انجيل عيسى عليه الصلاة والسلام الخ» وفي ذات هذه الرسالة يقتبس من مثل الغني ولعازر الوارد في انجيل لوقا ١٦:١٩ - ٣٣ فيقول في وجه ١٠٤ سطر ٥ «ان أمنية أهل النار عند أهل الجنة هي: افيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله» وفي ذلك مشابهة لقول الغني في المثل

لابراهيم «يا ابي ابراهيم ارحمني وارسل لعازر ليبل طرف اصبعه بما
 ويرد لساني لاني معذب». وفي وجه ١١٧ سطر ٤ يقول «قال عيسى
 عليه السلام اني ما عجزت عن احياء الموتى وقد عجزت من معالجة
 الاحق» ثم انه يقتبس القاون النهي في اماكن كثيرة دون ان يشير
 الى ان الانجيل مصدره كقوله في وجه ١٢٢ «كل ما عملت بالناس اجعله
 كما ترضى لنفسك منهم»

ثم ان ما جاء به الغزالي في رسالة القواعد العشر عن محبة الله لا
 يترك ادنى شك في فكر القارئ المنصف ان الغزالي قد قرأ العهد
 الجديد ومجرد ذكرها هنا بالاختصار يثبت لكل منصف صحة قولنا
 (١) النية الصادقة (٢) العمل لله من غير شريك ولا اشتراك (٣) موافقة
 الحق بالاتفاق والوفاق (٤) العمل بالاتباع لا بالابتداع (٥) الهمة العلية
 المجردة عن تسويف يفسد (٦) العجز والنلة لا بمعنى الكسل في
 الطامات وترك الاجتهاد (٧) الخوف والرجاء (٨) دوام الورد اما في
 حق الحق او حق العباد (٩) المداومة على المراقبة ولا يغيب طرفه
 عين عن الله تعالى (١٠) علم يوجب اشتغالا به ظاهراً وباطناً اجتهاداً
 ومن يدقق النظر في مصنفات الامام الغزالي يجد فرقاً عظيماً
 بين عقائده الدينية التي يجعلها مطابقة للقرآن طبعاً وضرورةً وبين

افكاره الشخصية كتصوف يسبح في عالم التأمل ويكشف عن عينيه ليري الغير المنظور وكأنه بهاتين الحالتين يذكرنا بقول انسلم «اني لا احاول يا رب ان ادخل في اعماقك لان عقلي لا يستطيع ذلك بل اني ارغب من كل جوارحي ان افهم شيئاً من حقاك الذي يؤمن به قلبي ويحبه لاني لا ابحت لافهم حتى اومن ولكني اومن لافهم» فلما يتكلم الغزالي عن قرب الله منا ورغبة النفس في الشركة مع الله مجده يقترب جداً من فكر التجسد المسيحي ولكنه لا يفصح ولا يجلو حقيقة ما يدور في خلده

فالغزالي ولا شك رأى القول الوارد في الكتاب المقدس «الله لم يره أحد قط» ولكنه تجاهل باقي العبارة وهو «الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو خير»

وما اقرب بعض اقواله التي يمنعنا من سردها خوف التطويل الى كلمات المسيح «طوبى للاتقياء القلب لانهم يعاينون الله» نعم وان مجاينة الله هي التي اشتاقت اليها نفس الغزالي وحسبها اسمى خير في هذه الحياة والحياة الاخرى ومع كل ما بذله من المجهود في ايضاح هذه المسألة والكلام عن طبيعة النفس وطبيعة الله فانه يعترف انه كواقف امام حائط لا يدري ما وراءه . ومع رغبته القلبية ان يعاين الله فانه لم

يقدر ان يتخلص من الفكر بان الله لا يمكن ان يعرف وان لا شيء في المخلوقات كمثل الله . وقد قال محمد اقبال في كتابه «علم تقدم ما وراء المادة» وجه ٧٥ «انه الى اليوم لم يقم انسان يبين لنا بالضبط حقيقة افكار الغزالي عن طبيعة الله فقد جمع في نفسه آراء الحلولية وآراء الاشعرية فالنفس حسب قول الغزالي ترى الاشياء ولكن الروية صفة لا توجد الا في الجوهر الخالي من كل صفات الجسم والمادة وقد اوضح الغزالي ذلك في كتابه المضمون بقوله «لم منع الرسول عليه السلام عن افشاء هذا السر وكشف حقيقة الروح بقوله تعالى قل الروح من امر ربي . فقال لان الافهام لا تحتمل لان الناس قسمان عوام وخواص اما من غلب على طبعه العامية فهذا لا يقبله ولا يصدق في صفات الله تعالى فكيف يصدق في حق الروح الانسانية» وهكذا يتقدم الغزالي في البرهان ان يزيد المسألة اشكالا ويتركها بدون حل (! !)

الى هنا رأينا افكار الغزالي بخصوص اقوال وتعاليم ربنا يسوع المسيح وحياته وصفاته وافكاره عن علاقة الله بنا ومحبه لاولئك فهل هؤلاء يطلبونه من كل قلوبهم : الذين يحبونه هم من المسلمين فقط ؟ الا توجد محبة أوسع لله ؟ أليس كل الاتفس في حفظ الله ؟

وما معنى افكار الغزالي بخصوص خلاص اولئك الخارجين عن
الحظيرة الاسلامية؟ جاء عن الغزالي فكر ان متناقضان يظهر ان كل
واحد منهما كتب في زمن بعيد عن الآخر فالفكر الاول هو ما
ورد في وجه ٢٣ من كتابه «فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة»
سطر ١١ قوله «بل اقول ان اكثر نصارى الروم والترك في هذا
الزمان تشملهم الرحمة ان شاء الله تعالى اخي الدين هم في اقاصي الروم
والترك ولم تبلغهم الدعوة فانهم ثلاثة اصناف صنف لم يبلغهم اسم محمد
صلى الله عليه وسلم اصلاً فهم معنورون . وصنف بلغهم اسمه ونعته .
وما ظهر عليه من المعجزات وهم المجاورون لبلاد الاسلام والمخالطون
لهم وهم الكفار الملحون . وصنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم
محمد صلى الله عليه وسلم ولم يبلغهم نعته وصفته بل سمعوا ايضاً منذ
الصبا ان كذاباً ملبساً اسمه محمد ادعى النبوة كما سمع صبياننا ان كذاباً
اسمه المقفع لعنه الله تحدى بالنبوة كاذباً فهو لاء عندي في معنى الصنف .
الاول فانهم مع انهم لم يسمعوا اسمه سمعوا ضد اوصافه وهذا لا يحرك
داعية النظر في الطلب» وهذا كلام يستحق التأمل لانه في ذات هذا
الفصل في وجه ٢٢ سطر ١١ يقول «قل عليه السلام يقول الله تعالى .
لآدم عليه السلام يوم القيامة يا آدم ابث من ذريتك بعث النار فيقول

يا رب من هم . فيقول من كل الف تسعمائة وتسعة وتسعين . وقال عليه الصلاة والسلام ستفترق امتي على نيف وسبعين فرقة الناجية منها واحدة .

على ان الغزالي في الوجه الاخير من كتاب احياء العلوم الجزء الرابع يقول بدخول كل مسلم الجنة مهما كانت صفاته وحياته ثم يقول تأييداً لذلك حديثاً عن النبي (ص) «قال لا يموت رجل مسلم الا ادخل الله تعالى مكانه النار يهودياً أو نصرانياً» ويرى الغزالي ان التعليم بالنيابة هذا مرضي لدى الله حتى ان جهنم ستمتلئ بهؤلاء النواب المساكين (ولو أنصف لعلم بنبياة المسيح الكفاربية)

فنتغرب للغاية ان اماماً مثل الغزالي حجة الاسلام باقواله المذكورة يفتح باب الجنة لقوم ليس لهم التوبة الحقيقية التي بدونها لا يمكن الحصول على الغفران وما أبعد تعاليمه عن دخول الجنة بنبياة اليهود والنصارى عن تعاليمه السامية في كتاب التوبة (احياء علوم الدين جزء رابع وجه ٨ سطر ١٤) حيث يقول «ان التوبة فرض عين في حق كل شخص لا يتصور ان يستغني عنها احد من البشر كما لم يستغن آدم لان كل بشري لا يخلو من معصية يجوارحه اذ لم يخل عنها الانبياء كما ورد في القرآن والاخبار عن خطايا الانبياء وتوبتهم

وبكائهم على خطاياهم فان خلا في بعض الاحوال عن معصية الجوارح فلا
يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب فان خلا في بعض الاحوال عن الهم فلا يخلو
عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله. فان
خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وافعاله وكل ذلك
نقص والمراد بالتوبة الرجوع ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا
النقص. انما يتفاوتون في المقادير فلما الاصل فلا بد منه ولهذا قال عليه
السلام (يعني نبي المسلمين) «انه ليغاز على قلبي حتى استغفر الله في اليوم
والليلة سبعين مرة» ولذلك اكرمه الله بان قال «ليغفر لك الله ما تقدم
من ذنبك وما تأخر» واذا كان هذا حاله شخصياً فكيف حال غيره؟
ومن شاء زيادة الايضاح فليرجع الى موضوع التوبة في الفصل
السابع من كتابنا هذا ويتأمل فيه ليرى ما قاله الامام الغزالي عن
طبائع البشر وعن ضرورة التوبة ولزومها لكل نبي وولي ما عدا
شخصاً واحداً هو المسيح رب المجد لان مصدره سمائي فلم يتلوث
بطبيعة آدم الفاسدة. وعلى هذا فهو الشخص الوحيد الذي يمكن ان
تثق به ونلقي كل همومنا عليه ونتوب اليه ونؤمن به وتقبل خلاصه
بفرح وخشوع وايمان واخلاص ما

المحب

الدكتور ضموتيل زويمر

الخاتمة

(لأسلم استهدى فاهتدى، وسلك سبيل الهدى، فحصل على نعمة الفدا)
 لقد رأيت من سياق ترجمة حياة هذا الامام، الذي هو حجة
 الاسلام، ما حير الافهام، واذهل العلماء والعوام، وأدهش الخاص
 والعام، من هاتيك الايام، رأيت الامام الغزالي في ما اقتبسه من
 مشايخه المعاصرين والمتقدمين، رأته في ما أخذ من الاحاديث
 الشريفة النبوية، ومن الآي الكريمة القرآنية، فماذا رأيت؟ رأيت
 فيه مساناً مؤلفاً عالمًا لسنا فاق كثيرين جدًّا من أعظم المؤلفين
 المسلمين، ورأيت فيه بطلاً مقداماً، ومصلحاً هماماً، خاض بجرأة
 عجيبة وشجاعة أدبية واخلاص تقوي صحيح—ولكن فم خاض؟ ...
 خاض في ما يتعلق بمطالب حياة الرجل والمرأة اجمالاً وتفصيلاً
 كشيء عادي امتزج بعقله وروحه ودمه وآدابه بصفة كونه عالمًا
 تقيًا مسلمًا. فذكر كل شيء من قبيل الحياة الزوجية والمعاشرة ونحو
 ذلك بكل حرية وبدون خجل. ولماذا؟ لانه لم يذكر شيئًا كهذا الا
 اقتداء بالشرع الشريف وبضمير سليم فليس عليه في هذا من حرج
 لانه من القائلين: (لا حياء في الدين !!)

واما من جهة روحانية الامام شخصياً فقد رأته مؤلفاً صوفياً
 غيراً مصلحاً، ورأته اديباً فاضلاً ارتقى في آدابه وفضائله حتى
 تساوى مع مصادر ايمانه ومزج مواهبه بها، ورأته لا يستحي من
 ايراد الحقائق الموافقة لارادة الله وقداسته من اي مصدر كانت ولو
 من نصوص الانجيل كما مر بنا في فصول هذا الكتاب، ولكن
 ليس الى الدرجة المطلوبة. وفضلاً عن هذا فقد رأته روى عن
 الانجيل باحترام، لا يقل عن احترامه لنصوص القرآن بالتمام، ورأته
 ذكر سيدنا عيسى المسيح، بتبجيل لا تقبسمو مقامه وبطهارة دينه.
 الصحيح، بمقدار ما يجلب به القرآن عشرات المرات، كما كتب في
 كثير من المؤلفات، ورأيت هذا الامام فاضلاً عصامياً لم يكثر
 بمختلف آراء الغير في ما أورده من احكام العلوم، ورأته فيلسوفاً
 ذكياً حقيقاً في كل مجهول، ودقيقاً في كل معلوم، وأجاد في كل
 معقول، وأفاد في كل مفهوم، ورأته صوفياً مخلصاً غيراً تقياً
 عزفت نفسه عن الدنيا زهداً وورعاً وتعبداً فاطنب في الثناء الجم
 على الصوفية والصوفيين، وذكر لنا انهم هم الاتقياء السالكون
 لطريق الله، وان سيرتهم احسن السير، واخلاقهم ازكى الاخلاق،
 وانهم هم المشاق، الذين جابوا الآفاق، مستنيرين بنور الخلاق،

متكئين على الرزاق ، وذكر لنا في موضوع التصوف ان تطهير القلب عن كل ماسوى الله باري الكائنات ، يؤدي الى المكاشفات ، وان استغراق القلب بذكر الله يؤدي الى المشاهدات ، وان الفناء في الله يؤدي الى الوصول الى اسمى الحالات ، فالى الاتحادات ، فالى الامتزازات ، ولو كان قد تقدم في شجاعته الادبية خطوات اخرى لحصل لنفسه على نعمة الفداء ، وشهد بنيله درجة الوصول فالإتحاد فالامتزاج بكل تأكيد وثقة ويقين

وبما انه لم يتقدم فهو لم يحصل على شيء ولذلك لم يذكر شيئاً . ورجاؤنا وطيد في الله ان يكون الامام الغزالي مثل نيقوديموس عالم أمة اليهود (الذي آمن بالفادي سرّاً وذهب اليه ليلاً) في ايمانه بالفادي على الاقل حتى لا يكون قد مات محروماً من نعمة الفداء العظمى لان وقوفه من جهة ذكر الوصول تصريحاً أو تلميحاً هذا الموقف المبهم اكد لنا عدم وصوله . لا ريب ان هذا الامام قد تعطش كثيراً (على ما يظهر من كتبه وخصوصاً الاحياء والمنقذ من الضلال) الى الوصول الى الله والاتحاد به والامتزاج فيه لان روحانية حياة هذا الفاضل وتقواه واعترافاته الصريحة كل ذلك يدلنا على انه كان أهلاً للتعطش الى الوصول الى الله وانتظار هذا الوصول ، ومما يؤيد

هذه النظرية في شخص الامام الغزالي انه رضي الله عنه كان مغرمًا
بذكر التوبة وتغلب الروح على الجسد في اكثر مؤلفاته الجليلة وكما
أشار جناب الدكتور زوير مؤلف هذا الكتاب في أواخر الفصل
السابع ، وكما قال الاستاذ عبد الفادي القاهراني في محاضراته عن
الغزالي (١)

ولقد جعلت الكلام عن التوبة هنا غرضي الاكبر لشدة حاجة
العالم الشرقي عموماً والقطر المصري خصوصاً الى التوبة الحقة القلبية .
فان الغزالي رضي الله عنه جعل التوبة (مع اهتمامه العظيم - وبكل
اسف) كالثوب النظيف يجره صاحبه على الارض وعلى القذارة ثم
ينسله بالصابون والماء فيعود الى النظافة الاولى كما كان على مر الايام
والسنين . فكان التوبة كانت في نظره ونظر الوسط الذي عاش
فيه كالحذاء القديم يُفتقُ فَيُتَقُّ من يوم الى يوم الى ان يبلى ، وكان
الامام يعظم الأواوين ويزداد بهم سروراً ويترنم بقول القرآن
الكريم : «انه كان للأواوين غفوراً» ، ويقراً باعلى الاصوات ، :
«الا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات»

(١) تطلب هذه المحاضرة من مطبعة النيل المسيحية ومن جميع موزعينا في الجهات
وعمها ه ملهات فقط واقتناؤهما ضروري لكل باحث مفكر

ومع ذلك نرى الامام يعلمنا بلا قصد ان التوبة هي في الليل انحدار، وفي النهار استغفار، لان الله رحيم غفار، يتوفاكم في الليل ويعلم ما جرحتم بالنهار، ويأتي بجميع المؤمنين الى الجنة ولو كانوا زعماء الاشرار، وقواد الفجار، ويأتي باليهود والنصارى الى النار، ولو كانوا من أبر الابرار، وهذه النظرية المعكوسة وقع فيها كثيرون غيره من العلماء والأدباء فضلوا وأضلوا غيرهم ولنا فقد دفعني هذا الى تبيين الفرق بين التوبة التي اتانا بها الامام الغزالي والتوبة التي اتانا بها كتاب الله المقدم الطاهر بل التي يطلبها الهادي الفادي سبحانه وتعالى من عباده وهذا يظهر من الجدول الآتي :-

التوبة التي آتى الينا بها الله في كتابه المقدس	التوبة التي آتانا بها الغزالي
«مزقوا قلوبكم لا ثيابكم وارجعوا الى الرب الهكم لانه رؤوف رحيم» (يوئيل ٢: ١٣)	«من يتوهم أن التوبة لا تصح ولا تقبل كمن يتوهم ان الشمس تطلع والظلام لا يزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول» (الاحياء ج ٤ وجه ١١)
«ارحمي يا الله حسب رحمتك . حسب كثرة رافتك امح معاصي . اضلني كثيراً من أمي ومن خطيبي	«ان نور الحسنه يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة... كما لا طاقة لكبدورة الوسخ مع بياض الصابون

التوبة التي آتانا بها الغزالي

وكما ان الثوب الوسخ لا يقبله الملك
فالقلب المظلم لا يقبله الله وكما ان استعمال
الثوب في الاعمال الخسيسة يوسخ
الثوب وغسله بالصابون والماء الحار
ينظفه لا محالة فاستعمال القلب في
الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء
الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره
ويرزكه وكل قلب زكي طاهر فهو
مقبول كما ان كل ثوب نظيف فهو
مقبول» (الاحياء ج ٤ وجه ١٠)

التوبة التي آتى اليناها الله في كتابه المقدس

طهرني. لاني عارف بمعاصي وخطيبي
امامي دائماً. اليك وحدك اخطأت
والشر قدام عينيك صنعت لكي تبرر
في اقوالك وتزكو في قضائك. هأنذا
بالأم صورت وبالخطية جلت بي امي.
ها قد سررت بالحق في الباطن فني
السريرة تعرفني حكمة. طهرني بالزوقا
فأطهر اغسلني فايض اكثر من الثلج.
أسمعني سروراً وفرحاً فتبهج عظام
سحقها. اسر وجهك عن خطايي
وامح كل آثامي. قلباً تقياً اخلق في
يا الله وروحاً مستقبلاً جدد في داخلي.
لا تطرحني من قدام وجهك وروحك
القدوس لا تنزعه مني. رد لي بهجة
خلاصك وبروح متدبة اعضدني.
فاعلم الائمة طرقتك والخطاة اليك
يرجعون. انجني من الدماء يا الله إله
خلاصي. فيسبح لساني برك. يا رب
افتح شفتي فيخبر في بتسبيحك.

التوبة التي أتانا بها النزالي

التوبة التي أتينا بها الله في كتابه المقدس

لأنك لا تسر بذبيحة والا فكنت
أقدمها. بمحرقة لا ترضى. ذبائح الله
هي روح منكسرة. القلب المنكسر
والمستحق يا الله لا تحتقره، (مزمو ٥١)
«ان اعترفنا بخطايانا فهو أمين
وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا
من كل أثم (١ يوحنا ١: ٩)»

«الذين استنبروا مرة وذاقوا الموهبة
السموية وصاروا شركاء الروح القدس
وذاقوا كلمة الله الصالحة وقوات النهر
الآتي ومقطوا لا يمكن تجديدهم ايضاً
للتوبة اذ هم يصلبون لانفسهم ابن الله
ثانية ويشهرونه لان أرضاً قد شربت
المطر الآتي عليها مراراً كثيرة
وأنتجت عشباً صالحاً للذين فلحت
من اجلهم تنال بركة من الله ولكن ان
أخرجت شوكة وحسكاً فهي مرفوضة
وقرية من اللعنة التي نهايتها للحريق»
(عبرانيين ٤: ٦-٨)

«يروى ان الله عز وجل لما
لعن ابليس سأله النظرة فانظره الى
يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت
من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح
فقال الله تعالى وعزتي وجلالي
لا حجبت عنه التوبة ما دام الروح
فيه. وقال صلى الله عليه وسلم ان
المسرات يذهب السيثات كما يذهب
الماء الوسخ. . . وانزل قوله تعالى
«انه كانت للأوابين غفوراً» في
الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم
يتوب الخ الخ» (الاحياء ج ٤ وج ١١)

من التأمل في هذا الجدول البسيط ترون فرقا ظاهرا بين روح
استصغار شأن التوبة والاستهانة بها حسب نظرية الامام الغزالي التي
سمحت للانسان ان يذنب ثم يتوب مئات المرات وعلمت ان الله
لا يحجب التوبة عن الانسان ما دام فيه الروح، وبين روح استعظام
شأن التوبة واكرام مقامها وموقفها المهوب الطاهر حسب تعليم
الكتاب المقدس وحسب تعليم المسيحيين بالحق. ولكن لا يفوتنا
ان الغزالي لم ترتفع روحانيته في التعاليم عن التوبة عن ذلك المستوى
الا حينما كان يسلك بنور اجتهاده الشخصي متجنباً الاقتباسات
والروايات غير قائل قال الله ولا قال صلى عليه وسلم، ولا قال فلان
عليه السلام، ولا قال فلان أو فلان من المشايخ الكرام، بل كرجل
عصامي حر بعيد عن الارتباكات المعلومة التي وقع فيها غيره من
المؤلفين والفقهاء قال :-

« اعلم ان التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتزم من ثلاثة أمور مرتبة -
« علم وحال وفعل » - فالاول موجب للثاني والثاني موجب للثالث ايجاباً
اقضاه المرادسنة الله في الملك والملكوت . . « اما العلم » فهو معرفة عظم ضرر
الذنوب ، وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب ، فاذا عرف ذلك
معرفة محققة يقين خالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات
المحبوب فان القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم فان كان فواته بفعله تأسف

على الفعل المفوت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً (أي حال الندم) فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى عليه انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى ارادة وقصداً الى « فعل » له تعلق بالحال وبالماضي وبالاستقبال . أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابساً . وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحسوب الى آخر العمر . وأما بالماضي فتتلاقى ما فات بالجبر والقضاء ان كان قابلاً للجبر فالعلم هو الاول وهو مطلع هذه الخيرات ، وأعني بهذا العلم الايمان واليقين فان الايمان عبارة عن تأكد هذا التصديق بان الذنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيشر نور هذا الايمان مهما اشرق على القلب فار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر باسراق نور الايمان انه صار محجوباً عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع التور عليه باقتبشاع سحب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبعث تلك النيران برادته للانتهاض للتدارك . فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلاقي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول فيطلق اسم التوبة على مجموعها « (احياء علوم الدين ج ٤ وجه ٣) فما ا كبر الفرق بين رأيه المنقول ورأيه المعقول ١١ .

وبما ان الغزالي لم يذكر لنا انه اقتبس شيئاً من هذه الاقوال فماذا يكون امره ؟ هل هو مقتبس لم يذكر من ابن اقتبس ام هو

بالحقيقة لم يقتبس شيئاً؟ وان كان لم يقتبس شيئاً فهل هو مخطئ أم
 مصيب في اقواله هذه؟ وان كان مصيباً في ما قال فهل هو مجتهد
 حصل على ما حصل عليه بقوة علمه ام قال هذه الاقوال صدفة واتفاقاً
 ام اوحى اليه بوحى خاص؟ اللهم لا هذا ولا ذاك فانه وان كان مجتهداً
 غيوراً ومعلماً صبوراً الا انه نظراً لاحترامه الخاص لانجيل المسيح
 الطاهر ولكثرة معرفته بمبادئه الشريفة ولمداومة اطلاعه عليه وقراءته
 فيه بالاكرام والخشوع عشر على مثل الابن الضال المذكور في لوقا ١٥:
 ١١-٣٢ فاستوعبه جيداً واستفاد مما حواه. وعند ما كتب في
 موضوع التوبة مر بخاطره ما كان قد استفاده فاندفع الى التعليم بماورد
 على خاطره دون ان يلتفت الى المصدر ولكن كتابته كانت كشرح جلي
 لمثل الابن الضال. والدليل على ذلك ان الامام عرف التوبة بانها - «علم
 وحال وفعل» وشرح هذا التعريف كما مر بنا. ولذلك اقول ان الامام
 الغزالي رضي الله عنه قصد «بالعلم» الشعور بفضاعة الخطية وظلمتها، ومعناه
 ان الابن الضال ظل جاهلاً نفسه مبذراً امواله بين السكيرين والزواني
 الى ان تقدم منه المال وافق آخر درهم وعندئذ شعر بخرج مركزه
 ودناءة حياته وفضاعة خطيته وكان الباعث له على هذا الشعور الذي
 هو «العلم» بحالته هو الجوع اخيراً وقصد «بالحال» انتقال الابن الضال

انتقالاً عملياً من حال الغنى الى حال النقر ، ومن حال السيادة الى حال
العبودية ، ومن حال التفاف المرائين الخادعين النصايين (الوانطحية)
حوله والالتقار باوامره والانتهاؤ بنواهيها لاجل سلب امواله بالاحتيال
والى حال وجوده تحت رآسة تاجر الخنازير راعياً لها بنصف بطنه
اجرة حيث كان يشتهي ان يملأ بطنه من الخرنوب الذي هو طعام
الخنازير ولم ينل مشتهاه (ويقال لحال الابن الضال بين الخنازير في
الحقول والجبال جائعاً عارياً حافياً ذليلاً متفكراً حال الندم اي الحزن
على الخطية) وقصد «بالفعل» رجوع الابن الضال الى نفسه اولاً ، وسفره
ورجوعه الى ابيه ثانياً . فان الابن الضال رجع بالفعل الى نفسه وقال :
« كم من اجير لابي يفضل عنه الخبز وأنا اهلك جوعاً ؟ اقوم واذهب
الى ابي واقول له يا ابي اخطأت الى السماء وقدامك ولست مستحقاً
بعد ان ادعى لك ابناً اجعلني كأحد اجراك » ثم رجع الى ابيه « واذ
كان لم ينزل بعيداً رآه ابوه فتحنن وركض ووقع على عنقه وقبله . فقال
له الابن يا ابي اخطأت الى السماء وقدامك ولست مستحقاً بعد ان
ادعى لك ابناً » وهذا هو الفعل الذي عبروا عنه بتغيير القصد فن
العلم النبي هو الشعور ومن الحال النبي هو حال الندم والانتقال العملي
الى مثل حال الابن الضال بين الخنازير ومن الفعل النبي هو الرجوع

الى الله قلباً وقالباً تكونت التوبة الحقّة التي أشار اليها الغزالي ولذلك
«قال الأب لعبيده أخرجوا الحلة الاولى وألبسوه واجعلوا خاتماً في
يده وحذاء في رجله وقدموا العجل المسمن واذبحوه فناكل وتفرح
لان ابني هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوجد» فظهر ان الذي كان
خاطئاً عرياناً من كل بر أصبح بالتوبة الحقّة التي علم بها المسيح (واستفاد
منها وأفاد بها الغزالي وغيره) متسربلاً بثياب الطهارة والعفة متخبلاً
بختام الصلح والاتحاد مع الله محتدياً بحذاء استعداد اخبار النعمة
المفرحة موضوعاً بذراع المراحم الابوية فوق المتكبر الاول في ولية
الافراح الروحية . فلم يكن الغزالي في هذا الموقف الا شاهداً لحق
المسيح الخلاصي في الوسط الذي عاش فيه وبين ابناء عصره - وكانت
شهادته بنير قصد - متمنياً ان يكون بالحقيقة ذلك الابن الضال
ليحصل على السعادة

ان الوقوف عند حد التوبة وحدها لا يسمن ولا ينبغي من
جوع . فان المسيح له المجد قرن التوبة بالايان فلم يفصل احدهما عن
الآخر بل قال : «قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا آمنوا
بالانجيل» (مرقس ١: ١٥) فذكر التوبة والايان وانجيل الخلاص
والحياة المقدّمة ، وعلي هذا فلا يمكن ان تكون التوبة كاملة وصحيحة

الا اذا كانت مصحوبة بالايان بالفادي المجيد ومصحوبة بالحياة الطاهرة الصالحة النقية المقدسة . وكما ان نطق المسيح الكريم علمنا ان التوبة لا تصح بدون الايمان هكذا علمنا الرسول يعقوب بالروح القدس ان الايمان ايضاً لا يصح بدون الحياة المقدسة المملوءة من كل نبر وصلاح (رسالة يعقوب ص ٢) فن تاب ولم يؤمن فتوبته باطلة ، ومن ادعى انه تاب وآمن ولم يظهر لايمانه الثمر المطلوب ، الذي هو العمل الصالح المشار اليه في رساله يعقوب ، والذي هو ربح النفوس والذي به يتجدد الله كما اشار اليه المسيح في يوحنا ص ١٥ فلا فائدة في ايمانه لان ايمانه يكون والحالة هذه ميتاً . ومن تاب وآمن وعمل ما يرضي الله فقد صحت توبته وايمانه ونجا بحياته ونال غفران الله (راجع رومية ص ٦) ولا ننسى ان نذكر القراء بقول ربنا الفادي سبحانه وتعالى : «من ثمارهم تعرفونهم» . وهاكم مثالين للتوبة الحقّة :

الاول - داود النبي والملك الذي قبل التوبيخات خاشعاً خاضعاً امام الله ولم يستعف منها ولم يعتذر ، واحتمل التأديبات ولم يتذمر ، بل قابل التوبيخات الواضحة الجارحة بقوله : «انخطأت الى الرب» وصبر على (١) موت الولد المحبوب ثم خطيته (٢) مقابلة ما فعله هو سرّاً بما فعله أبسالوم ابنه في يده جهرأ (٣) توقف الفتوحات الحربية لانه

بخطيته جعل اعداء الرب يشمتون . ونطق بمزمور ٥١
والثاني بطرس الرسول الذي انكر سيده فنظر اليه المسيح له
المجد نظرة تويخ فشمع بفضاعة خطيته وطارده ضميره فخرج الى خارج
وبكى بكاء مرأ وظل حزينا الى ان ظهر له المسيح بعد ان قام من
الموت الكفاري وشفق عليه وقبل توبته وأعادته الى مركزه بين
المؤمنين فتغيرت حياته وظهرت مواهبه بعد حلول الروح القدس
يوم الخمسين . ويوجد مثال ثالث هو : « نيقودوس والغزالي » وامثال
هذين كثيرون في ايماننا فنسأل الفادي ان يتشجعوا حتى ينالوا التوبة
الحقة والايان بالفادي المخلص ، وادعوكم الى التوبة والايان وحياة
القداسة لعلكم تقبلون والى معرفة المسيح تقبلون

امسكندر عبد المسيح الباجوري

المؤلف التبشيري

مزمور توبة داود عليه السلام

- ١ مثل عظيم رحمتك يا خالقي ارحمني
ومثل فرط رأفتك أمح الخطايا عني
اغسل كثيراً جسدي والنفس من ذنبي
وهكذا خذ يدي مطهراً قلبي
- ٢ ابي باي عارفٌ معترفٌ جهراً
وهو امامي واقفٌ أنظره الدهرا
اخطأت مذنباً اليك بالقول والفعل
والصفح ما بين يديك يا رب فاصح لي
- ٣ اشبع عبيدك الحقير يا رب بالسرور
فيفرح القلب الكبير بلطفك المشهور
قلباً تقياً طاهراً أخلقه بي ربي
وروح عليل ظاهراً جده في قلبي

آمين

(تم)

